دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس

حتى أواخر القرن العاشر الميلادى

٧٥٥م - ٩٧٦م = ١٣٨هـ - ٣٦٦هـ

للدكتور

محمد محمد مرسى الشيخ

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب بجامعة الاسكندرية

١٩٨١م - ١٤٠١هـ

مؤسسة الثقافة الجامعية
٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفه
ت ٣٥٢٢٤

دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس

حتى أواخر القرن العاشر الميلادي

٧٥٥ - ٩٧٦م = ١٣٨هـ - ٣٦٦هـ

للدكتور

محمد محمد مرسي الشيخ

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب جامعة الاسكندرية

١٩٨١م - ١٤٠١هـ

مؤسسة الثقافة الجامعية
٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفه
ت ٣٥٢٢٤

مقـــدمـــة

كان الفرنجة الذين غزوا غالة أو غاليا ، في أواخر القرن الخامس الميلادى ، من أعظم القبائل الجرمانية قوة وأكثرها شهرة في العصور الوسطى ، وكانت المملكة التى أقاموها هناك ، المملكة الجرمانية الوحيدة تقريبا التى كتب لها البقاء والاستمرار في جزء من العالم الرومانى ، فأعطت اسمهـــا وتاريخها لفرنسا ، بعد أن لعبت دوراً خطيراً في الغرب الأوربى ، واعتنـــق الفرنجة المسيحية الكاثوليكية ، وأقاموا حلفاً مع الكنيسة الغربية ، وأسهموا كثيراً في صنع التاريخ الأوربى فى العصر الوسيط .

وعلى الرغم ممـا استنه الملوك الفرنجـة من سنة تقسيم المملكة بين أبنـائهم الذكور بالتساوى ، وما كان يمكن أن يترتب على هذا المبدأ من تفتت الدولة ، وذهاب ريحها ، إلا أن ملوك الفرنجة الميروفنجيين ظلوا قائمين فى الحكم ، توضع على رءوسهم التيجان ، وتقدم لهم فروض الطاعة والولاء ، رغم أنهم تحـولوا فى كثير من الأحيان إلى أطياف ملكية واهية ، وفقدوا الجـانب الأعظم من قوتهم ومهابتهم ، فما كان يكنه الشعب الفرنجى لملوكهم من محبـــة وإحترام يصل إلى حد التقديس أحيانا ، حال دون سقوط هذه الدولة سريعاً ، وحفظ لذرية كلوفس وجودهم واستمرارهم فى الحكم أكثر من قـرنين ونصف من الزمان (٤٨٦ — ٧٥١ م) .

فلقد ظلت دولة الفرنجة الميروفنجيين قائمة فى حكم البلاد ، لفترة طويلة إلى منتصف القرن الثامن الميلادى ، حين انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة من نسل رؤساء البلاط فى أوستراسيا ، فبزغت حقبة جديدة فى عمر المملكة الفرنجية فى تلك البلاد هي الحقبة ـ الكارولنجية ، فأضافت إلى عظمة هـذه الدولة الكثير

بل حاز شارلمان ـ أبرز حكام هذه الأسرة ـ التاج الامبراطورى وارتقى إلى مصاف الأباطرة العظام ، وبلغ شأواً بعيداً بين حكام العالم المعروف حينئذ إذ أقام إمبراطورية كبيرة ابتلعت معظم الغرب الأوربى وتمتعت بتأييد البابوية وبركتها الروحيه .

وفى الوقت الذي كانت الدولة الميروفنجية تنحدر إلى الزوال ، وتعيش الحقبة الأخيرة فى عمرها ، ويتعاظم نفوذ رؤساء البلاط وتشتد مطامعهم للانفراد بالسلطة في دولة الفرنجة ، عبر المسلمون إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، ليفتحوا أسبانيا وليقضوا على مملكة القوط الغربيين بها ، ويرسوا دعائم حكمهم الفتى فى تلك البلاد ، وينتشلوا أسبانيا من براثن الفوضى والظلم والإستبداد ، ويخرجوا أهلها من ظلمات الجهالة إلى نور الهداية والإيمان ، ويمنحونها أعظم حضارة عرفتها الدنيا فى ذلك الوقت .

فليس من شك فى أن تاريخ المسلمين فى الأندلس كان يمثل حلقة هامة وخطيرة من حلقات التاريخ الإسلامي بصفه عامة ، وكان نموذجاً حياً لعظمة الإسلام وسمو تاريخه وحضارته فى العصور للوسطى ، فقد أثرى المسلمون أسبانيا سياسياً وعسكرياً وحضارياً ثراء لا نظير له وأحالوا شبه الجزيرة الأيبيرية إلى مركز ثقل سياسي وحضارى وثقافى عالى القدر عظيم المكانة ، فغدت أسبانيا الإسلاميه قبلة السفراء والعظماء وطلاب العلم والنابهين ، وهوت إلى قرطبه أفئدة المعاصرين ، واتجهت إليها أنظارهم ، وخلبت بعظمتها ومكانتها لبهم ، فليس ثمة مبالغة فى أن الأندلس كان مركز إشعاع حضارى وفكرى ، يفيض على الدنيا فى ذلك الوقت ، وقوة سياسية وعسكرية يضعها الشرق والغرب فى الحسبان ومنهلا عظيما من مناهل العلم والعرفان .

وإذا كانت حلقات التاريخ الإسلامي فى الأندلس ، قد تفاوتت فى قوتها

وعظمتها — شأنها فى ذلك شأن جميع الأمم — ما بين طفولة وصبى وشباب وشيب ، وما بين قوة وضعف واضمحلال ، فان الحقبة الأموية فى التاريخ الأندلسى – التى قاربت قرنين و نصف من الزمان كانت حقبة الشباب فى ذلك التاريخ ، وفترة العظمة والقوة والازدهار فى عمر المسلمين في أسبانيا، تبوأت الأندلس خلالها مكانة عظيمة بين أقطار الدنيا ، وفرضت وجودها السيامى والحضارى على أمم الشرق والغرب على حد سواء ، ومثلت ومضة ساطعة الضوء والبريق فى سماء العالم المظلم فى ذلك الوقت .

ومما يلفت الإنتباه أنه بينما كانت الأسرة الجديدة فى دولة الفرنجة، وهي الأسرة الكارولنجيه ماضية فى إرساء دعائم حكمها في البلاد فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) مجتازة كل الصعاب فى طريقها، كانت الإمارة الأموية في الأندلس ماضية هي الأخرى في تدعيم سطلتها وإحكام قبضتها على الأندلس مجتازة كل المصاعب فى طريقها ، نائية بهذا القطر عن كل الأطماع والمطامع . وبينما كانت سلطة شارلمان آخذة في الازدياد فى الغرب وشهرته أخذت تطبق الآفاق ، كانت هيمنة عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) على الأندلس قد غدت مؤكدة ، وشهرته قد أخذت تذيع في الخافقين أيضاً وقيام الحكم الأموى فى أسبانيا قد ملأ الأسماع . وبينما كانت إكس لاشابل عاصمة شالمان تحتل مكانتها بين عواصم العالم الكبيرة فى ذلك الوقت، كانت قرطبة الأمويين ماضية فى بناء عظمتها ورفعتها كإحدى عواصم الدنيا الهامة في ذلك الوقت أيضاً .

وإذ تجاورت الدولتان ، دولة الفرنجة الكارولنجيين ودولة الأمويين الأندلسية ، على جانبي جبال البرنيه (البرانس) ، بما كانت تمثله كل منها من زعامة سياسية وعسكرية ودينية ، وما كانت تعتقده كل منها بمسئولياتها تجاه

شعبها وأممها وقيمها الدينية والروحية ، كان لابد من حدوث احتكاك بينهما سواء شاءا ذلك أم أبيا ، وسواء جرى ذلك الاحتكاك عنيفاً واتخذ أسلوب النزال والصراع الدموى ، أو جرى فى إطار سلمي دبلوماسى ، أو إطار حضارى وفكرى ، أو إطار إقتصادى مادى ، وبعبارة أخرى كان لابد وأن يحدث إحتكاك بين الدولتين وتجرى صلات بينهما ، بحكم تجاورهما من ناحية واختلاف قيمها الدينية والسياسية من ناحية ثانية ، ومسئوليتها تجاه أممها وشعوبها من ناحية ثالثة ، ولهذا جرى الصراع رهيباً بينهما أحياناً ، وهدأ أحياناً أخرى لتحل محله لغة التفاوض والدبلوماسية ، وتطور فى أحيان ثالثة إلى اتصال حضارى فكرى أو مادى ، وفى كل الأحوال أضاف ذلك عمقاً جديداً فى تاريخ الأمتين : الفرنجية فيما عرف بفرنسا والإسلامية فى بلاد الاندلس .

والواقع أن دراسة هذه التجربة فى تاريخ الأمتين قد شدتنى كثيراً وأثارت اهتمامى ، ففكرت فى تخصيص مؤلف لهذا الموضوع ، يلقى الضوء على أبعاد وأعماق هذا الاحتكاك ويظهر غوامضه ويجلي صفحاته ، بعد تقديم الدولتين تقديماً تاريخياً والتعريف بها جيداً ، دولة الفرنجة في عصرها الكارولنجى والدولة الإسلامية فى الأندلس فى عصرها الأموى ، وخاصة وقد سبق لى أن قدمت دراسة مستفيضة لمملكة الفرنجة الميروفنجيين فى كتابى السابق « الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى » فتكون دراسة الدولة الفرنجية الجديدة صلة وتكملة لما سبق أن قدمته فى دراستى السابقة .

هذا وقد جعلت الكتاب فى أربعة أبواب تضم سبعة فصول ، خصصت **الباب الأول** منه ويشمل فصلين ، لدراسة دولة الفرنجة دراسة مستفيضة لإلقاء الضوء على تاريخها وما جرى فيهما من انقسامات وحروب أهلية وعلاقات.

متضاربة بين ملوكها بعضهم البعض من ناحية و بينهم وبين جيرانهم من ناحية أخرى ، ولعل أبرز ما ضمه هذا الباب هو تقلب الأحوال بهذه الدولة بين عظمة واضمحلال حتى اقتصرت في الجزء الأخير من عمرها على ما يعرف حالياً بفرنسا ، بعد أن انسلخ عنها جانب كبير من جزئها الشرقي ليمضي في درب جديد وتبزغ فيه وما حوله أسرة جديدة هي الأسرة السكسونية في القرن العاشر لتقيم لنفسها خطاً سياسياً جديداً في تاريخ الغرب الأوربي ، فضلا عما حواه هذا الفصل من تفصيلات جديدة عن دولة الفرنجة الكارولنجيين على امتداد تاريخها الطويل حتى أواخر القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) .

وخصصت **الباب الثانى** ويضم فصلين أيضاً لدراسة الدولة الأموية فى الأندلس فى عصر الإمارة الذى امتد أكثر من قرن ونصف من الزمان، وعصر الخلافة الذى عمر بقية الفترة الأموية فى الأندلس وركزت فى هذا الباب على النواحى الداخلية فى دراسة هذه الدولة تاركا العلاقات الخارجية والسياسة الخارجية تجاه الفرنجة بالذات للباب التالى .

وفى **الباب الثالث** الذى ضم فصلين أيضاً درست الإشتباكات العسكرية بين دولة الفرنجة والدولة الأموية سواء ما حدث منها على الجانب الرسمى فى الحملات المتبادلة بينهما وأبرز نتائجها ، أو ما جرى منها على المستوى الشعبي في ما عرف بحركات المجاهدين المسلمين ضد الفرنجة وأقطار الغرب الأوربى، وأبرز نتائج هذه الإشتباكات .

وفى **الباب الرابع** والأخير عرضت للعلاقات الدبلوماسية والسلمية بين الدولتين والسفارات المتبادلة بينهما والنشاط الدبلوماسى السياسى بين الجانبين فضلا عن الصلات الحضارية فى مجال الفكر والثقافة والاقتصاد والتجارة

والصناعة وغير ذلك بقدر ما استفت من المصـــادر الأصلية ، وما أتيح لى الحصول عليه من المراجع الهامة فى هذا الموضوع .

وعلى الرغم مما يكتنف دراسة دولة الفرنجة فى عصرها الثانى من صعاب وما يحتاجه البحث من دراسة وتفنيد مختلف المصادر القديمة بلغاتها الأصلية ، إلا أننى لم أتردد إطلاقا فى إعداد هـــذا المؤلف فعكفت سنوات على دراسة مختلف المصادر القديمة بلغاتها وخاصة وقد جرى منذ سنوات قليـلة نشر كثير من الأعمال والكتابات القديمة باللغة اللاتينية التى تتنـاول تاريخ دولة الفرنجة وتلقى الضوء على كثير من أحداث الغرب الأوربى فى العصور الوسطى ، فقد نشر سنيدر Snyder فى نيويورك سنة ١٩٧٥ معظم وثائق التـاريخ الجرمانى وتاريخ ألمانيا وما سبق نشره وما لم يسبق نشره من قبل من كتابات المعاصرين. فى كتاب بعنـوان : Documents of Th: German Hist. وضم وثائق عن حياة الفرنجة وشارلمان وتتويج شارلمان إمبراطوراً وغير ذلك فى :

" Lcdovico Antonio Muratori. Rerum Italicorum Scriptores Med.olani 1723".

وضم هذا الكتاب أيضاً ما نشره عن تاريخ الجـرمان من قبـل بعض المتخصصين لاســيما بيرتز Georg H. Pertz وآخـــرون فى ما بين سنتى ١٨٢٦ — ١٩٢٥ فى :

"Monumenta Germaniae Historica, Scriptores" Ed. by Georg H Pertz and others - Hanover and Berlin 1826 — 1925.

هذا وفضلا عن هذه المجموعة الخاصة بوثائق التـاريخ الجرمانى ، هنـاك ما نشره كيرز Kurze خاصة فيما يتعلق بتأسيس الحقبة الـكارولنجية فى تاريخ الفرنجة على يد ببين القصير ومحاولة هـــذا إضفاء الشرعية على تلك الخطوة باستقطاب تأييد البـابا فى روما . وكذلك عن معركة الديل Dyle التى نشرها

كيرز Kurze أيضاً سنة ١٨٩٠ عن : "The Chronicle of Reginu of Prûn"
هذا فضلا عما نشره كل من هافيه J. Havet بعنوان : Epistolae Gerberti
El Havex 1889 ولونفيلد Loewen feld سنه ١٨٨٦ بعنـــوان :

Gesta Abbatum Fontenellensium Ed. Loewenfeld 1866

وكذلك ما نشره ويتز Waitz خاصة عن تاريـخ أوتـو الأول فى السيرة التى كتبها الراهب السكسونى ودوكند Widukind ، وعنى فيها بانجازات وتاريخ أوتو الأول وخلد فيهـا انتصاره على المجريين فى ساحـه لشفيلد سنة ٩٥٥ م ولقبه منـذ ذلك الوقت بلقب « أوتو العظيم » وقد نشر وتيز هـــذه السيرة سنة ١٨٨٢ بعنوان :

"Widukind's Rerum Gestarum Saxonicarum Libritres"

وكذلك ما نشره دالتـون Dalton فى أكسفورد سنة ١٩٢٧ من ترجمـة لكتاب جريجورى التورى عن تاريخ الفرنجة بعنوان : "Gragory of Tours : Hist. of The Franks" وما نشره كانتور Cantor فى سنة ١٩٦٨ من فصول ضافية عن كتاب اينهارت Einhard عن حياة وسيرة شارلمان بعنـوان : "Life of Charlemagne" ضمن الوثائق والنصوص القـديمـة والمعـاصرة المترجمه إلى الانجليزية فى كتاب بعنوان :

The Medieval Worl 300 — 1300 by Contor N. Y. 1968

هذا وقد نشر بارى دوبسون Barrie Dobson فى سنه ١٩٧٢ كتاباً بعنوان : "Germany, A Corpanion to German studies" ويتضمن قـدراً هاماً من تاريخ ألمانيا ووثائق هذا التاريخ فى الفترة المذكورة .

ولقـد رجعت إلى كل هذه المصادر واستفدت أحيانا بترجمـات ما ترجم منها إلى الإنجليزية وسيرى القارىء الكريم مدى الجهد الذى بذلته فى هذه الناحية

من خلال ثبت طويل فى نهاية الكتاب بأسماء المصادر الأصلية لهذه الدراسة وكذلك الوثائق الهامه المعاصرة ، فضلا عن عدد وافر من المراجع الغربيـــة الهـــامة .

هذا فيما يتعلق بدراسة دولة الفرنجـة — أما ما يختص بالدولة الأمـوية فى أسبانيـا فقد استفدت كثيرا من المصـادر العربية الأصليـة الخاصـة بتاريخ المسلمين فى الأندلس وكذلك المراجع الهامة ما صدر منها فى الشرق وفى الغرب على حد سواء – أما فيما يختص بالصفحات الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية بين المسلمين فى أسبانيا ودولة الفرنجة ضمن الفصل السابع والأخير فقد استفدت كثيرا من كتاب الدكتور / عبد الرحمن الحجى المكتوب باللغة الانجليزية بعنوان :

" **Andalusian Diplomatic ralations with western Europe during ihe Umayed Period," Beirut 1970**

وكذلك مقالة نشرها نفس المؤلف فى مجـلة **The Islamic Quarterly** التى تصـدر في انجلترا باللغـة الانجليزية بعنوان : **"Diplomatic relatsions between Andalusia and the Franks during the Umayyed period"** **V. xiii, Nov 2 April - June 1969** هذا فضلا عما اطلعت عليه من المقالات والأبحاث العلمية في مختلف المجـلات المتخصصة شرقا وغربا ومـواد الموسوعات العلمية والتاريخية ودوائر المعارف الأجنبية .

وأرجو أن أكون بذلك قد أضفت إلى المكتبة العربية دراسة جديرة بها وألقيت الضوء على تجربة حافلة فى تاريخ العـلاقات بين المسلمين فى الأندلس ودولة الفرنجة فى غرب أوربا ، كما أرجو مخلصا أن تعم الفائدة بهذا المؤلف، وأن يجـد فيه المتخصصون وطلاب الدراسات العليـا والدارسـون كل ما يؤملون .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشـــور ، الذى وجهنى أصلا لهذه الدراسة ، وتابع عن كثب خطواتى لإعدادها وشجعنى على المضى قـدما لإتمامها ، ولم يبخل علىّ بآرائه السديدة وخبرته الطويلة ، وعلمه الغزير ، وأفسح لى المجال للسؤال والاسترشاد وحسن الاستفادة ، فلسيادته ولكل من تفضل بتشجيعى أقدم خالص شكرى وعظيم امتنانى .

والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل .

الاسكندرية { شهر رمضان المبارك ١٤٠٠ هـ
يوليـو سنة ١٩٨٠ م }

محمد محمد مرسى الشيخ

الباب الأول

(دولة الفرنجة)

الفصل الأول : دولة الفرنجة حتى نهاية القرن العاشر الميلادى.

الفصل الثانى : فرنسا بعد وفاة شارل السمين سنة ٨٨٨ م

الفصل الأول

دولة الفرنجة حتى نهـــاية القرن التاسع الميلادى

ينبغي فى البداية أن نحـدد المقصود بكلمة « الإفرنج » أو « الفرنجـة » (Franks) ، إذ جاء استعمال هذا اللفظ متباينا لدى المؤرخين ، ما بـين المعنى العام والمعنى الخاص ، لكن أقرب هذه المعانى إلى الواقع ، ما عنـاه فريق من المؤرخين المسلمين من أن شعب الفرنجـة هو الشعب الذى تزعمه الميروفنجيون والكارولنجيون ، فيما يعرف الآن بفرنسا فضلا عن شمال أسبانيا (قطالونيا)، وشمال إيطاليا وأجزاء من ألمانيا ، وجهات أخـرى فى أوربا (١) . وهـذا المعنى الشامل هو الذى استخدمه المؤرخون المتـأخرون للاشـارة إلى شعب الفرنجة ، بعد أن استعمل تعبير الفرنجة أحيانا للدلالة على سكان إقليم معين(٢)، كأسبانيا المسيحية أو برنطة أو غيرها . ومن المحتمـل أن يكون سبب تغير استعمال هذا التعبير ، بين خاص وعام ، فى رأى مؤرخ محدث ، إنما يكمن فى تقلب وتغير حدود المملكة الفرنجية ذاتها بين مد وجـزر ، وبين اتســـاع وانحسار ، الأمر الذى أثر تأثيرا مباشراً فى استخدام هذا التعبير ، ليعنى عدة شعوب من سكان القارة الأوربية أو شعبا واحدا فى إقليم واحد (٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٣٦ ، وص ١٧٤ ، ج ٦ ص ١٤ ، ص ٦٤ /
ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٢ ـ ٢٣ (ليفى بروفنسال ـ بيروت — سنة ١٩٥٦)
ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٥٢ (بيروت ١٩٦٨) ص ١٤١ (ط بولاق)

(2) El-Hajji : Andalusian Diplomatic relations with western Europe duirng the Umayyad period, p. 119 — 120

(3) El-Hajji : " Diplomatic relations beween Andalusia and the Franks during the Umayyad period. " in the Islamic Quarterly V. xiii Nuv. 2 · April - June, 1969. p. 113.

وعلى الرغم مما بذله المؤرخون المحدثون فى الشرق لتحديد معنى هذا اللفظ، وما يقصد بتعبير الفرنجة أو الإفرنج ، فان الكتاب المسلمين الأوائل ومعاصروا تلك الحقبة الوسيطة من التاريخ كانو أكثر دقة في استعمالهم لهذا التعبير أكثر من المؤرخين المتأخرين . فقد قصدوا « بالإفرنج » تلك الشعوب التى حكمها فرنجة العصرين الميروفنجي والكارولنجي [١] ، وهو نفس المعنى المحدد الذى استخدمه المؤرخون المتأخرون فى الغرب . وكان المسلمون القدامى موفقين فى تحديد المعنى بدقة، فقد استخدم المؤرخ ابن عذارى المراكشى كلمة «الإفرنج» طبقا للمعنى المشار اليه [٢] ، كما استخدم البكرى الكلمة لنفس الغرض [٣] ، وهذا الأخير تأثر كثيرا بالمسعودي الذى حدد المعنى بدقة وتناول كثيرا من شعوب أوربا مميزا بينهم ومدركا الفوارق المختلفة بين تلك الشعوب [٤] ؛ ويضاف المؤرخ أحمد الرازى وابن حيان إلى أولئك الذين حددوا المعنى بدقة، إذ اعتبر بلاد الفرنجة هي التي تبدأ عند الحدود الطبيعية لشبه الجزيرة الأيبيرية فيما وراء جبال البرنيه (البرتات) [٥] . وفى كل كتابات هؤلاء جاءت تلك

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعمال ص ٧٤

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢ ، ٩٧ ، ١٠٨ (كولان وليفى بروفنسال ليدن سنة ١٩٥١)

(٣) البكرى : جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ص ١٤٣ — ١٤٥ (نشر الحجى ١٩٦٨)

(٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ (بولاق)

El-Hajji : And. Dip. Rel p. 120

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ — ٣٤٣ ، محمد محى الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩)

Reinaud : Musli n Colonies in Fsance, Northern Italy and Switzerlard, p. 85 (Eng. t:ans. sherwani Lahore 1964)

الأجزاء التى خضعت لحكم الأسرتين الميروفنجية والكارولنجية ضمن تعبير بلاد الفرنجة التي تمثل فرنسا الحالية جزءا كبيرا منها هو بمثابة القلب في الإمبراطورية الفرنجية . أما فى عصر الحروب الصليبية فقد أطلق المسلمون اسم الفرنجة أو الإفرنج على جموع الصليبيين الذين وفدوا من غرب أوربا سواء من فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو ايطاليا — دون تحديد لأصل عنصرى . وربما كان السبب في ذلك هو غلبة العنصر الفرنجي على الموجة الصليبية .

ولقد عرف المسلمون المعاصرون تعبير « فرنسا » ومن المحتمل أنهم استعملوها للدلالة على الجانب الأكبر من أملاك الفرنجة ، وليس كل تلك الأملاك [١] ، فى حين قصد بالإمبراطورية الفرنجية تلك الأقاليم التى تحدها جنوبا جبال البرنيه (البرتات) ، والتى سماها المسلمون أو سموا الجزء الأكبر منها باسم الأرض الكبيرة The Vast Land [٢] .

ولقد حكمت الأسرة الميروفنجية إمبراطورية الفرنجة ردحا من الزمن ، منذ نجح كلوفس فى وضع دعائم هذه الدولة فى غالة فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وظل أبناؤه وأحفاده يتوارثون الدولة الفرنجية بعد وفاته سنة ٥١١ م بطريق اقتسام الإرث بالتساوى [٣] ، حتى وهنت الدولة كثيرا وران عليها ضعف واضمحلال. حقيقة نجح بعض أفراد الأسرة الميروفنجية في توحيد الإمبراطورية فترات متفاوتة ، كما فعل لوثر الأول سنة ٥٥٨م حين وحد الدولة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ١٢٥

(2) Reinaud : Op. cit. p. 24

(3) R. H. C. Davis : A Hist. of Med Europe, p. 111, p. 156.

من جديد تحت سلطانه (١) ، لكنها عادت إلى الانقسام والتفتت ثانية بعد نحو ثلاث سنوات بعد وفاة لوثر سنة ٥٦١ م ، وظلت الدولة مقسمة حتى أوائل القرن السابع الميلادى (٦١٣ م) ، حين وحدها من جديد لوثر الثانى ، بعد أن أفسح له منافسوه المجال لذلك ، فحكم ابنه داجوبرت (٦٢٩ — ٦٣٩ م) دولة الفرنجة موحدة قوية وحاز بحق سلطة الملوك الأقوياء (٢) .

غير أن الفترة التى تلت وفاة داجوبرت سنة ٦٣٩ ، اتسمت بضعف سلطة ملوك الفرنجة ، وازدياد قوة النبلاء فى الدولة ، واتساع سلطة الكنيسة وكثرة ثرواتها وانغماسها فى السياسة الدنيوية ، وتدهور السلطة العامة (٣) ، واندلاع الحروب الأهلية والمنازعات الداخلية التى غدت قاعدة عامة ، ثم أصبح تاريخ الفرنجة بعد ذلك حتى ظهور شارل مارتل سنة ٧١٤ م يمثل تاريخ النزاع بين العائلات فى نستريا وأوستراسيا للفوز بمركز رئيس البلاط (٤) . وإذا كانت أوستراسيا قد حازت الغلبة فى النهاية فى ذلك الصراع فى أواخر القرن السابع الميلادى فان ذلك إنما يرجع فى الحقيقة إلى أن رئيس بلاطها كان بوسعه أن يضم من الأتباع ما يزيد على ما لدى منافسيه فى نستريا

(1) Camb. Med. Hist I. p. 484

(2) Davis : op. cit. p. 111, pp. 113 — 114

واقرأ الترجمة الانجليزية لهذه الاحداث فى :

Hist. of the Franks by Gregory of Tours (Trans. by Dalton, pp. 18 — 19 — 2 Vol. Oxford 1927)

(3) Heyck : " Rise of the Frankish dominion " in B H. VII, p 3478

محمد الشيخ : الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى ص ١٩٦

(4) Davis ; op. cit. p. 122

وبرجنديا (١) ، فى الوقت الذى اعتمدت فيه هذه الأجزاء على رواج التجارة ونشاط المدن ، فلما تداعت التجارة وتدهورت مكانة المدن فى نستريا وبرجنديا حازت أوستراسيا الغلبة (٢) ، هذا فضلا عن غلبة الصفة الجرمانية وغلبة العنصر الجرمانى على العنصر الغالى الرومانى من الناحية العددية فى أوستراسيا ، وهذا القسم من المملكة الفرنجيه (٣) .

غدا ببين الثانى — الذى عرف ببين هرستال — رئيساً للبلاط فى المملكة الفرنجيه كلها فاتخذ متز Metz مقراً له ، فأصبح مركز المملكة حول أوستراسيا ومتز وآخن وكولونيا ، لغلبة الطابع الجرمانى منذ ذلك الوقت أكثر من الطابع الغالى — الرومانى ، إذ لم يعد مركز هذه المملكة حول نستريا وسواسون وباريس وليون (٤) ، وأصبح بيت ببين منذ ذلك الوقت أهم كثيراً من البيت الميروفنجى المالك ، واستمر ببين رئيساً للبلاط مدة تقرب من سبعة وعشرين عاما (٦٨٨ — ٧١٥ م) ، ثم خلفه ابنه غير الشرعى شارل الذى عرف فيما بعد بشارل مارتل أو المطرقة Martel ، بعد صراع مرير وحروب أهلية جديدة بين أوستراسيا ونستريا استمرت سنوات فى بداية عهده (٥) ، وقضى شارل مارتل نحو اثنين وعشرين عاما رئيساً للبلاط (٧١٩ — ٧٤١ م) ، كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ غرب أوربا ووسطها ، واستند جانب كبير من شهرة

---

(1) Lot : The End of the Ancient world, p. 342

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne pp. 197—8
Davis : op. cit p. 129
Keen : A Hist. of Med. Europe. p. 18

(3) Cantor : Med. Hist. p. 208

(4) Oman : The Dark Ages, pp 261 — 2

(5) Hoyt and Chodorow : Europe in the Middle Ages p. 140

شارل مارتل إلى ما حققه من نجاح تجاه المسلمين فى جنوب المملكة الفرنجية ، كما سوف تفصل (١) .

ولقد أعاد شارل مارتل حدود المملكة الفرنجية إلى ما كانت عليه قديماً ، واهتم بنشر المسيحية بين قبائل ألمانيا الوثنية ، ونشر القانون وضرب بيد من حديد على كل محاولات الفتنة فى الداخل، ورتب الأمور فى برجنديا، وأخضع دوق أكوتين الجديد سنة ٧٣٥ م ، وكان أدواق هذه المقاطعة يطمحون دائماً إلى الإستقلال عن المملكة الفرنجية ربما منذ الربع الأخير من القرن السابع الميلادى (٢) . ووجه شارل مارتل جانباً هاماً من جهوده لجنوب المملكة، فغزا بروفانس وشمال سبتمانيا ، وقضى السنوات الأخيرة من عهده فى إكمال إخضاع السكسون وتنظيم الكنيسة المسيحية فى جنوب ألمانيا ومساعدة بونيفاس فى تحويل قبائلها إلى المسيحية (٣) ، ولكنه أثار البابا جريجورى الثالث بعدم مساعدته ضد اللمبارديين ـ حلفاء الفرنجة ـ وباستيلائه على بعض أراضى الكنيسة لمنحها لأتباعه ، وبتعيين أعوانه فى الأسقفيات الشاغرة . وتوفى شارل مارتل فى النهاية فى أكتوبر سنة ٧٤١ م (٤) .

نال بين القصير (الثالث) ـ أبرز أبناء شارل مارتل الثلاثة ـ رئاسة

---

(1) Camb. Med. Hist. V. 2. pp. 129 — 30.

(2) Pirenne ; op. cit. p. 197

(3) Gesta Abbatum Fontenellensium, p. 32 (Ed. Loewenfeld (1886)

وقد كتبت بعد نحو مائة سنة من هذه الاحداث ، وانظر أيضا :

R H, C Davis : op cit. p 134

Seidlmayer: Curent. of Medieval thought. p 35 (tr. by barker)

(4) Hoyt and Chodorow op. cit p. 147

البلاط وحده في المملكة بعد أن تخطى كل العقبات في بداية عـهده ، وما لبث أن سوى الأمور مع الكنيسة ، فآذن بعهد جديد في العلاقة بين الفرنجه والكنيسة الكاثوليكية (١)، ثم خطا أهم خطوة في تاريخه حين أنهى عهد البيت الميروفنجي، ووضع بداية عهد جديد في تاريخ الفرنجة هو العهـــد الكارولنجي الذى جاء جديداً في كثير من النواحي بالمقارنة بالعهد الميروفنجي الذي أسهب جريجورى التورى في وصف سماته المميزة ورسم صوره المختلفة (٢). فقد رأى ببين القصير عدم انتظار وفاة تشلدريك الثالث آخر سلالة الميروفنجيين لإنهـــاء عهد هذه الأسرة وسارع بإرسال سفارة إلى روما يسأل البابا زكريا : « أليس من حق الشخص الذى بيـده السلطة الحقيقية أن يكون له أيضاً لقب الملك ؟ » فأجاب البابا : « من حق الرجل الذى بيده السلطة الحقيقية أن يحصل على لقب الملك ، بدلا من أن يحتفظ بهذا اللقب الرجل الذى ليس له سلطة حقيقية » . فاجتمع على أثر ذلك مجلس النبلاء في سواسون بنستريا في أكتوبر سنة ٧٥١ م (٣) ، وقرر أن يمنح ببين لقب «ملك»، وأن يرسمه القديس بونيفاس لهذا المنصب، وجرى رفعه على التروس ملكا جديداً للفرنجة حسب العادة الجرمانية القديمة (٤)، ثم جرى تتويجه ملكا على يد البابا ستيفن الثاني في شتاء سنة ٧٥٣ — ٧٥٤ م ، كما توج البابا ولدى ببين شارل وكارلومان ، وأصبحت ذرية ببين — كما عبر البابا نفسه — ذرية مقدسة وكهنة ملكيون ، وترتب على ذلك حصول البابوية

(1) Davis : op cit. p 133

(٢) اقرأ تفصيلات أكثر لما كتبه جريجورى التورى :

Hist. of the Franks, (trans. Dalton) VIII, 36

Davis : op. cit pp. 129—30

(3) Annals Regni Francorum: Ed Kurze' p. 9.

(4) Oman : op. cit p. 326

على مساعدة الفرنجة ، وازدياد قوة البابوية فى إيطاليا واتساع نفوذها (١) .

أسس بيبن القصير بذلك البيت الكارولنجى ، واستمر ملكا على الفرنجة مدة تقرب من سبعة عشر عاما (٧٥١ — ٧٦٨ م) ، قام خلالها بمد حدود المملكة إلى مناطق لم تخضع من قبل للفرنجة ، ومنح البابوية حمايته وقلم أظفار اللمبارديين من خلال حملتين عسكريتين قام بهما فى إيطاليا أجبر على أثرهما أستولف على الخضوع والتعهد بتقديم جزية سنوية ، ورد ما سبق أن أخذه من أملاك البابا (٢) ، كما حارب المسلمين فى الجنوب – كما سيأتى – وأخضع أدواق أكوتين وربط هذه الدوقية بالتاج الفرنجى سنة ٧٦٧م ، وخلال ذلك شن حروباً ضارية ضد السكسون ، ونجح فى كبح جماحهم ، وإن لم يوفق فى إخضاعهم نهائياً وترك هذه المهمة لابنه شارل الكبير(٣) ، وبعد أن أرسى دعائم البيت الجديد ومهد السبيل أمام أبنائه ، أسلم الروح سنه ٧٦٨ م، بعد أن قسم دولته الواسعة بين ولديه .

جاء تقسيم المملكة بين ولدى بيبن القصير : شارل وكارلومان سببا فى حدوث الفتن بينها ، واندلاع الحروب الأهلية قبل أن يتمكن شارل من توحيد المملكة عقب وفاة أخيه كارلومان بعد نحو ثلاث سنوات سنه ٧٧١ م ، دون أن يلقى معارضة من نبلاء وأساقفة برجنديا وألمانيا (٤) ، ولقد نجح شارل فى

( ) Ostrogorski : Hist. of the Byzantine State, p: 151

(2) Davis : op. cit. pp. 135 — 6
Caml. Med. Hist. V. II, pp 589 — 90

(3) A Passage trans. from Bouetius Capitularia Regum Francorum. (M. G. H. 1883), p. 168
Davis : op. cit 141 — 3.

(4) Pirerne : op cit. p. 228 Oman ; op. cit. pp. 338 — 9

توسيع رقعة المملكة الفرنجية ، ونشر المسيحية بين الشعوب الوثنية الضاربة على تخوم المملكة ، وحارب اللمبارديين والسكسون والآفار والسلاف ، فضلا عن محاربته للمسلمين فى أسبانيا ـ كما سوف نفصل ـ وقام بنحو أربع وخمسين حملة طوال عهده أكسبته شهرة ذائعة ، وبوأته مكانة مرموقة فى مختلف الأنحاء [١] . غير أن شارل لم يحتل مكانته فى أفئدة المعاصرين لمجرد أعماله العسكرية الناجحة أو إصلاحاته الداخلية فحسب ، وإنما لحماسته الشديدة فى نشر المسيحية وروحه الصليبية المتقدة التى أعجب بها المعاصرون وأكبروه من أجلها واتضحت هذه الروح فى كثير من المناسبات والمجالات ، وظهرت بجلاء فى خطاب أرسله شارلمان إلى البابا سنة ٧٩٦ م ، أكد به هذه الحماسة الدينية والروح الصليبيه الجارفة ؛ [٢] حتى لم يكن ثمة من ينازعه فى زعامة العالم المسيحى فى ذلك الوقت ، وفى ضوء ذلك يمكن فهم الأحداث التى أدت إلى تتويجه إمبراطورا على الرومان رغم أصوله الجرمانية [٣] . وقدر لشارلمان أن يحيي الإمبراطورية الرومانية فى الغرب بعد زوال عهدها قبل عدة قرون ، ويضع أساس إمبراطورية العصور الوسطى سنة ٨٠٠ م ، وأن يسعد بأنه لم يعد مجرد ملك متبربر ، وإنمـــا إمبراطورا عظيما لشعب صاحب تراث

---

(1) Cantor : Med. Hist. pp 220 — 1

(٢) ترجمة إلى الانجليزية R. H. C. Davis من :
Dummler, Epistolae Karolini Aevi (M. G. H.) II, no 93, in Davis: op cit p. 146

(3) See " Lives of the Roman pontiffs in ; Lodovico Antonio Muratori, Rerum Italicarum Scriptores Mēdiolani 1723, III, 284 — 85 " in ; Documents of the German Hist. by Snyder. (New-york 1975), pp. 26 — 7

عظيم (١) ، كما قدر له أن يضع أسس نظرية سياسية جديدة قوامها أن مملكته تمثـــل الشعب المسيحى ، وتخضع لسلطة الكنيسة المسيحية فى روما ، وأن البابوية قد خصتها ببركتها الروحية وتأييدها الدينى (٢) ، بعد أن قطعت كل ما كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية ، ولم تعد تعـــترف سوى بإمبراطور واحد فى الغرب هو شارلمان .

وبالإضافة إلى ذلك كان شارلمان منظما بارعا ، ولعل أعماله فى هذا الميدان لا تقل روعة عن أعماله العسكرية والسياسية ، فقد نظم الإدارة ، واهتم بالنظام المالى والاقتصادى والنظام القضائى ، وعنى عناية فائقة بالجيش ، كما أظهـــر اهتماما كبيرا بالثقافة والتعليم (٣) ، وبذل جهـودا صـادقة فى تنظيم الـكنيسة الفرنجية ، والرقى بها ، وأدت هذه الجهود كلها إلى بدء نهضة عظيمة فى أوربا عرفت بالنهضة الكارولنجية ، أرسى دعائمها وتعهدها هذا العـــاهل الفرنجى العظيم (٤) . وعنى شارلمان عناية فائقة بعاصمته آخن Aachen إكس لاشابل التى كان يستقبل فيها السفراء والمبعوثين ، فبنى فيها القصور والمتنزهات ومقراً للسناتو ، ونقل إليها أعمـــدة الرخام والفسيفساء من قصور روما ورافنا

---

(1) See : " The Annals of Lauresheim in : Monumenta Germaniae Historica, Scriptores; Ed. by Georg H. Pertz and others, Hanover and Berlin 1826 — 1925 " in : Documents of German Hist. by Snyder, p 26

(٢) فيمـا يختص بحـادثة التتويج أنظـر وجهتى النظـر فى هـذا الأمر من خـلال : Liber Pontificalis التى تعكس آراء البابا . وأنظر كذلك : Royal Annals التى يعتقد أن كاتبها Angilbert ، والتى تمثل وجهة النظر الفرنجية فى هـذا التتويج وذلك فى :

R. H. C. Davis: op. cit. p. 91 ?

(3) Alcuin, Epist. 148, Davis ; op. cit. p. 138

(4) Cantor : op. cit p. 132

لتزيين وزخرفة الكنيسة (١)،فضلا عن عنايته بعواصم أخرى فى أنحاء المملكة، كان ينتقل إليها مصطحبا حاشيته وكبار موظفيه ومدرسة القصر لقضاء بعض الوقت ، والإهتمام بضياعه الواسعة فى مختلف أنحاء المملكة المترامية (٢) .

وكان شارلمان قد قسم الإمبراطورية الكارولنجية فى حياته بين أبنائه الثلاثة ، لكن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء الثالث ، وهو لويس التقى (الأول) جاء فى صالح وحدة الإمبراطورية،وأخر تقسيمها بعض الوقت (٣) وقد احتفل شارلمان قبل وفاته بتتويج ابنه لويس التقى سنة ٨١٣ م الذى اعتلى عرش الإمبراطورية بعده ، والذي أعاد البابا ستيفن الرابع تتويجه بعد ذلك بنحو عامين . وعلى الرغم من أن لويس التقى كان فى فى السادسة والثلاثين من عمره عندما توفى والده ، وأنه كان واسع الثقافة شديد التدين ، إلا أنه افتقر إلى ما عرف عن والده من مهارة فى الشئون السياسية والعسكرية والإدارية(٤) وما اتصف به شارلمان من همة وحماس وحسن تعامل مع الكنيسة ، فقد كان ينقصه بعد النظر والمثابرة على العمل ، وكثيرا ما كان يتخذ قرارات فجائية ومتناقضة لاسيما حين حاول أن يخضع جميع الرعايا لقوانين موحدة مع وجود الفوارق فى الجنس واللغة (٥) ، وطغت عليه شخصيته الدينية وتقواه فحاول أن يرفع من شأن الكنيسة ويطهرها من الشوائب ، وفى نفس الوقت أغدق

(1) Einhard : " Life of Charlemagne " Chapter 25, p 148

(2) Davis ; op. cit. p. 138

(3) Caml. Med. Hist. V. II, p. 624

(4) Davis ; op. cit, pp. 154 — 5

(5) M. G. H. Epist , 159

Cap. Reg. Fraco, 1, p 203

Davis : op. cit pp 155 — 6

المنح الكثيرة على الكنائس ، واهتم بحياة الرهبان والراهبات ، واتخذت علاقاته بالبابا اتجاها جديدا [١] ، أدى إلى شعور البابوية بنوع كبير من الاستقلال ، وهو أمر لم يكن يسمح به شارلمان من قبل ، وترتب على ذلك أن تخلى لويس التقى عن كل سلطة له فى روما ، وعن ممارسة السيادة الإمبراطورية فى روما ، وأقر البابا على ما يدعيه من حقوق للبابوية فى جنوب إيطاليا [٢] .

ولقـــد جاء ذلك كله فى وقت اشتدت فيه الأخطار على الدولة وتكالب الأعداء ، عليها من كافة الجهات إذ بدأ الفيكنج غزواتهم للامبراطورية عبر الحدود الشمالية الغربية [٣] ، حتى قبيل وفاة شارلمان وجاء فى إحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأي بنفسه إحدي إغارات الدانيين على سواحل دولته فى أواخر أيامه ، وأنه أسف لذلك كثيرا والتفت إلى أتباعه قائلا : « لقد تأثرت لذلك كثيرا .. وإننى لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الأمام ، وأرى كم من الضرر سيلحقه أولئك بذريتى وخلفائى وشعوبهم » [٤] . وظلت غارات الفيكنج تروع شواطىء الإمبراطورية فى كل عام تقريبا ، بعد وفاة شارلمان وعلى عهد ابنه لويس التقى [٥] ، وقد حـــدث فى عهد لويس التقى أن نزل الدانيون على طول ساحل فريزيا وفلاندرز ابتداء من سنة ٨٣٥ م ، حيث عاثوا

---

(1) **Oman** : op cit. p 387

(2) **Davis** . op. cit. p. 156

(3) **Hoyt** and Chodorow ; op cit. pp. 189 – 90
Schjoth . " Great days of the Northmen ", B. H. VII, pp. 3539—40

(4) Viking .(trans by Keary), p. 131
Haskins : The Normans in European Hist. p. 32

(5) **Oman** : op, cit. p. 416

فسادا بهما ودمروا ونهبوا بعض مراكزها منتهزين فرصة الحروب الأهلية الدائرة بين أفراد البيت الكارولنجى ، وزاد من غلوائهم أن لويس التقى حاول مسالمتهم واتقاء شرهم بمنحهم قطعة من الأرض قريبة من رودشتاد ، وفى فريزيا ولكن كل ذلك لم يؤد إلى وقف مطامعهم (١) .

كما تزايد الخطر الخارجى فى عهد لويس التقى من ناحية السلاف والآفار على حدود الإمبراطورية الشرقية ، وكذلك من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية — كما سوف تفصل فيما بعد — وساعد على سوء الأحوال استمرار تمسك لويس التقى وخلفائه من بعده بسياسة تقسيم الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة : لوثر وبيبن ولويس (٢) ، ولما تزوج لويس التقى بعد ذلك وولدت له زوجته البافارية الجديدة واسمها جديث Judith فى سنة ٨٢٣ فى فرانكفورت إبنا رابعا سماه شارل، حاولت جديث أن تؤمن مستقبل ولدها الصغير ، وتضمن له نصيبا أكبر من إرث والده ، فألزمت زوجها لويس التقى باعادة النظر فى تقسيم الإمبراطورية ليضمن حقوق هذا الابن الجديد (٣) . وأدى ذلك إلى حدوث معارضة من قبل أبناء لويس التقى خاصة لوثر ، إلا أن لويس التقى لم يحفل بهذه المعارضة بل أقر فى مجمع فورمز سنة ٨٢٩ م إعطاء ابنه شارل أراضى خاصة به قوامها ألمانيا والألزاس وريشيا وقسما من برجنديا ، فلم يرض هذا التصرف الأبناء الثلاثة (٤) ، فاندلعت الحرب ضارية بين الإخوة بعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين والدهم من جهة أخرى ، ثم حدث فى سنة

---

(1) Haskins. op. cit. p. 33
(2) Camb. Med. Hist. V. III. pp. 10 — 11
(3) Davis : op. cit. p. 159
(4) Ibid : p. 159

٨٣٨ م أن توفى أحد الإخوة وهو ييبن الذى كان يحكم أكوتين ، ثم توفى بعده أبوه لويس التقى نفسه سنة ٨٤٠ م فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين لويس ولوثر وشارل حتى جرى الإتفاق بينهم فيما عرف باتفاقية فردان الشهيرة سنة ٨٤٣ م التى جرى بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بين الإخوة الثلاثة (١).

فقد كان من نصيب لوثر الجزء الأوسط من الإمبراطورية ، فريزيا — الأراضى المنخفضة — وجزء من أوستراسيا غربى نهر الراين فضلا عن برجنديا وبروفانس وإيطاليا . وخص الإبن الثانى ، لويس الجرمانى الجزء الواقع شرقى نهر الراين من أوستراسيا بالإضافة إلى بافاريا وسوابيا وسكسونيا ونال الأخ الثالث شارل الأصلع الجزء الغربى من الإمبراطورية ، نستريا وأكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية (٢) . وبعبارة أخرى أعطى لويس الجزء الواقع إلى الشرق من نهر الراين ، والذى يعرف الآن بألمانيا تقريبا ، وأعطى شارل الجزء الغربى الممتد حتى حدود أسبانيا أو مايعرف الآن تقريبا بفرنسا ، وأعطى لوثر الإقليم الواقع بينهما أى بين نهر الراين ومصب الشلد والممتد جنوبا حتى نهر الرون وإيطاليا أى من بحر الشمال إلى روما(٣).

وهكذا تجزأت إمبراطورية شارلمان بين أحفاده ، وحملت اتفاقية فردان فى طياتها ملامح بعض الدول الحديثة (٤) ، فقد حكم لويس الجرمانى الجزء

(1) Oman : op. cit p. 409

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit, pp, 183 — 4

(3) See : Snyder : Documents of German Hist. p. 29 (New york 1975)

(4) Hollister : Medieval Enrope, pp 102 — 4

الشرقي الذى تسوده اللغة الألمانية ، وتجرى الإشارة إلى هذا بألمانيا ، بينما حكم شارل الأصلع الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية المحرفة عن اللاتينية، ويمكن أن نطلق عليه لفظ فرنسا ، أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية وقد سميت لوثرنجيا ـ أى مملكة لوثر ـ ثم حرف الإسم إلى اللورين وهي نفس المنطقة التى ما زالت حتى اليوم تمثل حلقة الإنتقال بين الفرنسية والألمانية (١) . وهكذا أدت اتفاقية فردان سنة ٨٤٣ ، إلى نتائج هامة وخطيرة بالنسبة لمستقبل التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى (٢). ومن الواضح أن معاهدة فردان قد قضت نهائياً على وحدة الإمبراطورية الكارولنجية، وعلى ما كان يؤمله البعض من ضرورة الدفاع عن الشعب المسيحى وعظمة الكنيسة الغربية فى ظل هذه الوحدة ، فقد أطاح هذا التقسيم بمفهوم الإمبراطورية والإمبراطور ولم يبق مملكة بل بقايا مملكة وان أدى ذلك إلى تشكيل أمتين كبيرتين هما فرنسا وألمانيا (٣) .

غير أن الواقع تمخض عن مولد ثلاث ممالك مستقلة يظللها تحالف وإخاء، وان كان لوثر يحمل لقب الإمبراطور ، إلا أنه لم يكن فى الحقيقة يتميز عن أخويه بشيء ، ولم يمنح هذا اللقب لحامله سوى رتبة شرفية ليس لها كبير أهمية (٤) . غير أن لوثر حاول استغلال هذا اللقب لمحاولة إعادة البابا إلى حدود

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٠٤ (ط سنة ١٩٧٥) .

(2) See : " Annales Bertiniani " in " Monumenta Germania Historica, Scriptores " Ed. by Georg H. Pertz and others, Hanover and Berlin 1826 — 19 5, 1, p. 440 — in Documents of German Hist. p. 29, by Snyder (The Treaty of Verdun, 843),

(3) Davis : op cit. pp. 162 — 3 .

(٤) عاشور : تاريخ العصر الوسيط ص ٢١٠ — ٢١١ .

الطاعة والالتزام بالسير فى ركاب الامبراطـــور بعد أن دمرت المشاجرات والحروب بين الإخوة الثلاثة هذا المفهوم (١)، فأرسل لوثر ابنه الأكبر لويس الثانى إلى إيطاليا بعد أن نصبه ملكا عليها فلم يسع البابا سوى مبايعة الإمبراطور وبارك ابنه لويس الثانى ملكا فتوطدت إلى حد ما سلطة الإمبراطـــورية فى إيطاليا ، على الرغم من أنها كانت سلطة ضعيفة (٢) . ولقد حاول لويس الثانى فى إيطاليـا تأكيد الوحدة ، وانصرف إلى محـاولة الإصلاح لتوطيـد السلطة الملكية وإعادة النظام وإصلاح رجال الدين ، وقام استجابة لرأى والده الإمبراطور باسترداد بعض الأراضى من المسلمين فى جنوب إيطاليـا على أثر حملة قام بها سنة ٨٤٦ م ، فاسترد بنفنتو من المسلمين (٣)، وهدأ المنازعات بين الأدواق فى الجنوب حتى لا ينتهز المسلمون الفرصة للوثوب هنـاك ، وحاول لويس الثـــانى استرداد بارى من أيدى المسلمين إلا أنه أخفق فى ذلك سنة ٨٥٢ م . وقام لوثر فى سنة ٨٥٠ م بتنصيب ابنه لويس الثـانى إمبراطورا ، وبارك البابا ذلك وترك الإمبراطور الشاب يمارس فى روما سلطاته بصـورة فعلية ، وعادت البابوية تجرى فى ركاب الإمبراطور الجديد (٤) .

أما شارل الأصلع فكانت الأحوال فى مملكته الغربيـة سيئة للغـاية ، إذ تقلصت سلطته كثيرا ، ولم يجر الإعتراف به فى البداية فى أكوتين وبريتانى والمنطقة أمامهما ، وفشل سنة ٨٤٣ فى تأكيد سلطانه فى أكوتين ، واضطر

---

(1) Hoyt and chodorow : op cit. 185.

(2) Davis : op cit. p. 163

Hoyt and chodorow : op cit p. 185

(3) Pirenne : op cit p. 158

Keen : A Hist of Med Europe, p. 34

(4) Hoyt and chodorow : op cit. p 185

للتراجع عن تولوز وأجبر على التخلى عن جزء من هذه البلادلا بن أخيه بيبن[١].
وفى سنة ٨٤٨ م اندفع شارل الأصلع إلى أكوتين واشتبك مع ابن أخيه المناوىء في معركة حاميه واستولى على تولوز فى العام التالى وأجبر ابن أخيه على الفرار سنة ٨٥٢ م ، لكن ذلك كله لم يمنحه سلاما فى هذا الجزء من بلاده. نظرا للمقاومة التى أبداها سكان أكوتين بتحريض من لويس الجرمانى[٢] ، فاضطر شارل إلى منحهم نوعا من الحكم الذاتى ، وانتهى الأمر بأن نصب شارل ابنه ، ويدعى شارل أيضا ملكا على أكوتين ، فهدأت الأحوال فيها إلى حد ما ، وعلى هذا النحو جرى الأمر فى بريتانى إذ اضطر شارل الأصلع إلى منح زعيم البريتون لقب ملك ، وتخلى له عن جزء كبير من الولاية مقابل اعترافه بالطاعة ، كل هذا فى الوقت الذى اشتدت فية هجمات النورمان على سواحل المملكة ، وعجز شارل الأصلع عن وقف تقدم هؤلاء الغزاة فاستشرت الفوضى فى المملكة وعاث الغزاة فيها الفساد[٣] .

أما عن لويس الجرمانى فقد نجت مملكته من الإضطراب إلى حد ما ، على الرغم من أن ذلك لم يمنحه قوة وسلطانا فى مملكته الشرقية ، فلم تكن سلطته فى بوهيميا سوى سلطة شكلية وضعف نفوذه كثيرا فى مورافيا ، وهجم البلغار على أطراف مملكته سنة ٨٥٣ م بتحريض من شارل الأصلع ردا على تدخل لويس الجرمانى فى أكوتين ، هذا فضلا عن اضطرار لويس الجرمانى للقيام بحملات فى الجزء الشمالى من المملكة ضد القبائل الضاربة فى هذا الجزء

(1) Davis : op cit. p. 171

(2) Oman : op cit p 422

(3) Camb. Med. Hist. V. III. p 316

لإدخالها فى حـدود الطاعة (١) . على أن الشىء الذى كفل للويس الجرمانى بعض الهدوء هو جهوده الدائبة لنشر المسيحية فى أجزاء مملكته ، وتخومها إذ كان لنشاطه التبشيرى جانب من الفضل فى تهدئة الأمور فى كثير من الجهات ، وأخذت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بين كثير من الرعايا ، والقبائل الضاربة فيما وراء الراين والدانوب ، ولعب القديس أنشير دورا بارزا فى هذا النشاط التبشيرى (٢) .

وعلى الرغم مما بدا أحيانا من سوء العلاقة بين الإخوة أبناء لويس التقى لاسيما بين لويس الجرمانى وشارل الأصلع ، إلا أن ذلك لم يغير كثيرا من سياسة الإخاء والوئام التي سار عليها أبناء لويس التقى في ممالكهم الثلاث (٣) . غير أن الأمر مالبث أن تبدل بوفاة لوثر سنة ٨٥٥م ، فبدأت حقبة جديدة فى العلاقة بين أفراد الأسرة الكارولنجية ، وتبدد ما حاول الاخوة الثلاثة إقامته من التعايش والإخاء والتحالف ، وبزغت فترة جديدة فى العلاقات بين أفراد هذه الأسرة الفرنجية (٤) .

توفى لوثر سنة ٨٥٥م وترك مملكة تمزقها الأهواء والمطامع ، ويتكالب على السلطة فيها أبناؤه الثلاثة : لويس الثانى ولوثر الثانى وشارل (٥) . وكان

(1) Oman · op. cit. p. 422

(2) Helmolt : " Italy throughout the Middle Ages ", B. H. VII, p. 3934

(3) Hoyt and Chodorow : op cit p. 185

(4) Mahrenholtz : " The Empire of Charlemegne " B H. VII, p. 3409

Hollister : Medieval Europe p 104

(5) Hollister : op. cit. p, 104

Hoyt and chodorow : op cit p. 185

كل من لويس الثانى ولوثر الثانى يعتقد فى أنه مغبون فى حصته ، وينبغى إعادة التقسيم ليضمنا حصة أكـــبر ، وربما فكرا فى ابتلاع حصة أخيهما الصغير شارل ، لولا وقوف أمراء بروفانس إلى جانب شارل الصغير ، احتدم النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وكاد يرهص بصراع مرير بينهم واشتباكات ضارية لولا الجهود التى بذلت لـكفالة السلام فيما بينهـــم [1] ، وغدا تاريخ الكارولنجيين يشبه إلى حد كبير تاريخ الميروفنجيين فى أواخر أيامهم ، إذ أصبح تاريخ أسرة وليس تاريخ شعب ، وغدت الأمور تتجـه فى صالح الملك الذى يكون له أقل عـدد من الأبناء [2] . وإذا أضفنا إلى ذلك ما كان جاريا من سوء العلاقة بين شارل الأصلع ولويس الجرمانى ، وما فجره بين من ثورات ضد عمه شارل الأصلع فى أكوتين ، فضلا عن انهيار سلطة هـذا الأخير فى بريتانى ، تأكدنا أن حقبة جديدة من الضعف والاضمحلال قـد بدأت في تاريخ الدولة الكارولنجية المتداعية [3] .

فقد لقى شارل الأصلع اضطرابا شديدا فى كثير من جهات مملكته ، وزاد فى سوء أحواله ماحدث من غـــزو الفيكنج لسواحل المملكة ونجاحهم فى الوصول إلى كثير من مدنها عبر الأنهار الفرنسية وإحداث الخراب والدمار فى كثير من جهات غرب فرنسا [4] . واندلعت الثورات ضد شارل الأصلع فى أكوتين وماين وبرجنديا ، واتصـل الثوار بلويس الجرمانى فى المملكة الشرقية راجين إياه التدخل لعزل شارل الأصلع وتهدئه الأحوال فى فرنسا ،

---

(1) Oman : op, cit p. 423

(2) Davis : op cit p 164

(3) Reinaud : Muslim Colonies in France pp. 119—1 0

(4) Camb. Med. Hisf. V. III. p. 315

ولم يستطع لويس الجرمانى أن يقاوم الرغبة الكامنة فى نفسه لإقامة مملكة متحدة ، وبعث الإمبراطورية القديمة من جديد ، فقاد جيوشه سنة ٨٥٨ م واخترق الحدود الفرنسية ، فهوى إليه كبار الأرستقراطيين الفرنسيين وأحزاب العصيان فى فرنسا الغربية (١) ، فاضطر شارل الأصلع إلى الهرب ، إلا أن لويس الجرمانى لم يستطع برغم ذلك إنجاز مشروعه لعدم تأييد رجال الدين له من ناحية ، وتقاعس حلفائه عن نصرته من ناحية أخرى ، فاضطر لويس الجرمانى فى النهاية إن الارتداد إلى مملكته خائباً .

أما الإمبراطور لويس الثانى (٨٥٥ — ٨٧٥م) فى إيطاليا فقد شغل هو الآخر بالثورات التى تأججت هناك خاصة فى سالرنو وبننتو ، بعد أن جرى استقلال كابو ، وما حدث من رفع دوق اسبوليتو راية العصيان ، الأمر الذى اضطر لويس الثانى لمحاربته لاعادته إلى حدود الطاعة والولاء . وجاهد لويس الثانى لتوطيد سلطته فى روما ، فأقام علاقة طيبة مع البندقية التى أخذت تستقل تدريجيا عن بيزنطة (٢) . هذا فى الوقت الذى انشغل فيه لوثر الثانى (٨٥٥ — ٨٦٩) — أخى لويس الثانى — بمشاكله الخاصة ، وطلاقه من زوجته توتبرج لعقمها وزواجه من خليلته والدراد وما حدث من معارضة الكنيسة وعقد المجامع الدينية لتسوية هذه المشكلة . وأدلى شارل الأصلع بدلوه فى هذه الأحداث (٣) للحيلولة ضد زواج ابن أخيه من والدراد ليظل دون عقب حتى تؤول لوثارنجيا (مملكة لوثر) إليه ، الأمر الذى اضطر لوثر الثانى إلى

(1 Hoyt and chodorow : op. cit. p. 18?

(2) Helmolt : op. cit VII, p. 3935

(3) Mahrenholtz : " France throughot the Middle Ages. " B. H. VII, p. 3761

الإلتجاء إلى عمه الآخر لويس الجرمانى ، وعلى الرغم من أن هذا كان مثل شارل الأصلع يبطن الطمع فى إرث ابن أخيه (١) ، إلا أنه رأى أن يتدخل لحسم هذا الخلاف خوفا من انتهاز شارل الأصلع الفرصة للتدخل ، فحسم هذا الخلاف وعقد مجمع دينى أقر زواج لوثر الثانى من زوجة ثانية فتزوج لوثر من والدراد وتوجها ملكة إلى جانبه ، ضاربا عرض الحائط بمعارضة البابا نيقولا الأول ، وما نجم عن ذلك من مشاكل (٢) .

وفى غمرة الأحداث توفى لوثر الثانى سنة ٨٦٩م ، فاقتسم عماه لويس الجرمانى وشارل الأصلع مملكته سنة ٨٧٠م، بمقتضى اتفاقية ميرزن Mersen (٣) فحاز لويس الجرمانى : آخن وكولون وترير Trier وثيونفيل Thionville ومتز وميتز وألسيز Alsace والجورا Jura ، وتعهد لويس الجرمانى ألا يضايق أخيه شارل الأصلع أو يحاول اغتصاب الجزء الذى آل إليه ، وأن يظهر له المودة والإخلاص (٤) ، وحاز شارل الأصلع فريزيا والأقاليم الواقعة إلى الغرب مما حازه لويس الجرمانى ، وأصبحت الحدود بينهما تسير مع نهر الميز والموزيل (٥) ، فاختفت بذلك المملكة الوسطى ، واتخذت الخريطة السياسية

---

(1) Davis : op. cit. p. 164

(2) Oman : op. cit. p. 428

(3) See . " Monumenta Germaniae Historica, Scriptores. " Ed. by George H Pertz and others, 1, p. 516 — in Documents of German Hist; by Snyder, p. 30

(4) See : " The Treaty of Mersen 870 ", Monumenta Germaniae Historica, Scriptores, pertz, I, p. 516 — in Documents of German Hist. by Snyder, p 30

(5) Hoyt and chodorow : op cit p. 183

لأوربا شكلا غدا أكثر ألفة لأعيننا ليس لتبلور فرنسا وألمانيا ، ولكن لظهور المملكة الفرنجية الغربية ، والمملكة الفرنجية الشرقية (١) .

وتابع لويس الثانى جهوده ضد المسلمين فى جنوب إيطاليا ، وانحازت إليه نابلى وأمالفى ودوق بنفنتو وأسطول البندقية ، ولم يبق للمسلمين فى الجنوب سوى بارى وتارنتو وحوصرت بارى ولم تسقط سوى سنة ٨٧١ م(٢) غير أن المحن تكالبت على لويس الثانى واندلعت ضده الثورات وضرب الجنوب فى فوضى ، وزاد من سوء الأحوال أن لويس الثانى لم يعقب ، ولهذا طمع أيضا عماه لويس الجرمانى وشارل الأصلع فى أملاكه هو الآخر ، ولما توفى لويس الثانى فعلا سنة ٨٧٥ م دون وريث زحف عمه شارل الأصلع إلى إيطاليا رغم ما كان جاريا فيها من الفوضى ومن هجمات المسلمين (٣) ، ودخل شارل الأصلع روما ونصب إمبراطورا بمباركة البابا وحاول أخوه لويس الجرمانى منازعته السلطة فى إيطاليا إلا أنه لم يوفق لثورة أبنائه عليه (٤) . وأخيرا جاز لويس الجرمانى إلى ربه فى فرانكفورت سنة ٧٧٦ م فتطلع شارل الأصلع إلى مملكة هذا الأخ المتوفى أيضا منتهزا فرصة اندلاع الصراع بين ورثته : كارلومان ولويس وشارل السمين (٥) . غير أن الإخوة ساءهم طمع عمهم شارل الأصلع فى مملكتهم ، فسووا خلافاتهم وقسموا أملاك والدهم ، فأخذ كارلومان بافاريا وبانونيا وكارانثيا والجهات السلافية التابعة لها ، وحاز

(1) Davis : op. cit. 164

(2) Ibid , p. 168

(3) Lewis : The Arabs in History, p. 117

(4) Hoyt and chcdorow : op. cit. p, 186

(5) Helmolt : op cit. p. 3936

لويس الشاب فرنكونيا وسكسونيا وثورنجيا ، وأخذ شارل السمين سوابيا . وفي العام التالي توفي شارل الأصلع (١) آخر الأخوة الثلاثة وهو في طريقه إلى إيطاليا سنة ٨٧٧ م . وهكذا توفي أبناء لويس التقي الثلاثة لوثر ٨٥٥ م ولويس الجرماني سنة ٨٧٦ م وشارل الأصلع ٨٧٧ م ، واقتسم أبناؤهم أركان الإمبراطورية الكارولنجية التي توالى تجزئتها وتقسيمها ، وألحت عليها المحن طوال هذا العهد (٢) .

وكان على مسرح الأحداث بعد وفاة أبناء لويس التقي أبناؤهم وأحفادهم ، فكان هناك هيو بن لوثر الثاني بن لوثر الأول من زوجته الأخيرة والدراد ، ومن أبناء لويس الجرماني كان لويس الشاب وأخيه شارل السمين (٣) ، ودخلت مملكة الأخ الثالث لهما وهو كارلومان — بافاريا — في حوزة لويس الشاب ، بعد إصابة كارلومان بمرض عضال ، فأضاف ذلك إلى قوة لويس الشاب ، وبقي من أبناء شارل الأصلع لويس المتلعثم Stammerer (٤) ، الذي ما لبث أن توفي بعد نحو سنتين من وفاة والده ، فاقتسم ولداه : لويس الثالث وكارلومان مملكته على الرغم من أنه ولد للويس المتلعثم بعد وفاته ابن ثالث هو شارل الذي عرف بشارل البسيط (٥) .

وبدأ النزاع في الحقبة الجديدة مريرا واندلع الصراع رهيبا ، مما أضاف إلى ضعف الإمبراطورية الكارولنجية ، فقد طمع لويس الشاب في مملكتي أبناء

(1) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 187
(2) Oman : op. cit pp 433 — 35
(3) Davis : op. cit. p 172
(4) Hoyt and chodorow : op cit p 187
(5) Mahrenholtz : op. cit. p. 3762

عمه لويس المتعلثم (لويس الثالث وكارلومان) فى فرنسا ، فدخل لويس الشاب فرنسا أكثر من مرة ولكنه اضطر في النهاية للجلاء عنها والاعتراف بحقوق أبناء عمه في مملكتيهما [١] ، وزج ابن لوثر الثانى بنفسه فى هذه الأحداث محاولا استرجاع مملكة أبيه ، غير أن اتفاق الأخوين : لويس الثالث وكارلومان ، أنهى هذه المشكلة مؤقتا إذ حاز لويس الثالث نستريا وحاز برجنديا وأكوتين [٢] . وشهدت هذه المرحلة اتفاق ذرية البيت الكارولنجى للتصدى للأخطار خاصة وقد تطلع بعض الغرباء عن الأسرة إلى السلطة فى الدولة ، فكان لقاء أفراد الأسرة الكارولنجية واتحادهم أمام الأخطار المحدقة بهم [٣] . أما شارل السمين بن لويس الجرمانى فقد خصه البابا بالبركة لحاجة البابوية إلى المعاونة لدرء الأخطار من قبل المسلمين والحكام الثائرين والمنشقين فى إيطاليا ، فاعترف البابا بشارل السمين (ملك سوابيا) ملكا على إيطاليا ، ثم جرى تتويجه إمبراطورا فى روما سنة ٨٨١م [٤] ، وبهذه الخطوة انتقل التاج الإمبراطورى إلى أبناء لويس الجرمانى ، بعد أن تخلي عنه ابن شارل الأصلع (لويس المتعلثم) . وهكذا كانت هذه الخطوة من خطوات قيام البيت الألمانى من ذرية لويس الجرمانى ، لإقامة الإمبراطورية الكارولنجية الجديدة أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، كما هي شهيرة فى تاريخ أوربا فى الحقبة التالية [٥] .

(١) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(2) Camb. Med. Hist. V. III, p. 321

( ) Helmolt : op. cit. p. 3936

(4) Oman : op. cit. p. 438

(5) Mahrenholtz : op. cit. p. 3762

وما لبث شارل السمين أن نجح في توحيد الإمبراطورية ، بعـد أن توفى أخوه لويس الشاب سنة ٨٨٢ م ، ولحق به أحفاد عمه شارل الأصلع : لويس الثالث (الذى توفى فى نفس العام) وأخوه كارلومان (الذى تلاه بعد قليـل سنة ٨٨٤ م) ، واعترف كبار الأمراء بشارل السمين ملكا خلفا لهؤلاء جميعا[1] وهكذا عادت الوحدة الكارولنجية من جديد — باستثناء قسم من بروفانس — على الرغم من أنها كانت وحدة شكلية إلى حد بعيد ، وعلى الرغم من عـودة قسم بروفانس إلى حدود الطـاعة لشارل السمين سنة ٨٨٧ لتصبح الوحـدة متكاملة ، فان مفهومها ظل نظريا ولم تصل إلى مفهوم الوحـدة العمليـة ، أو ترقى إلى اسم الإمبراطورية المتحدة عمليا[2] . وزاد من سوء الأحـوال أن شارل السمين لم تكن له صفـات الملك الناجح لضعفـه الجسمى والفـكرى والخلقى ، فتوالت المحن على الدولة ولاسيما وقد دهمه فى هـذه الظروف غزو النورمان الذين اقتحموا فرنسا وحاصـروا باريس فى نحـو سبعمائة سفينة ونحو أربعين ألف محارب ، ولكنهم مع ذلك عجزوا عن اقتحامها[3] ، ولما حاول شارل السمين نجدة باريس ، وجاء بجيشه بدا له استحالة محاربة النورمان، فاشترى رحيلهم بدفع الأموال وغض الطرف عن نهبهم برجنديا ، فأحدث بذلك استياءا عظيما فى كافة الأوساط[4] ، فتخلى عنه أنصاره وأتباعه وثار أحد

---

(1) Davis : op. cit. p. 172

(2) Camb. med. Hist. V. III, p. 321
Barrie Dobson : " German Hist. 911 — 1618" — in "Germany A companion to German studies " — Ed. by Malcolm Pasley — p. 132

(3) Davis : op. cit. p. 166

(4) Oman : op. cit. p. 443

أبناء إخوته وأعلن نفسه ملكا فى فرانكفورت وجرى خلع شارل السمين فى النهاية من الحكم سنة ٨٨٧ ، ثم مالبث أن جاز إلى ربه فى العام التالى سنة٨٨٨م. وانفصمت عرى الوحدة الكارولنجية من جديد وإلى الأبد لتنشأ على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجية بعد ذلك الأمم الثلاث فرنسا وألمانيا وإيطاليا بعد أن جمع شارل السمين تحت سلطته الضعيفة كافة البلاد التى خضعت قبلا لسلطة شارل الكبير (شارلمان) (١) .

وحين تجزأت الإمبراطورية من جديد حاولت كل مملكة أن تجد لنفسها ملكا من أبنائها لا سيما وأنه لم يكن هناك حينئذ من سلالة البيت الكارولنجى ممثلا شرعياً سوى « شارل البسيط » (٢) ابن لويس المتعلثم ، الذى ولد بعد وفاة والده بقليل ، ولم يكن يتعدى السابعة من عمره فى ذلك الوقت ، هذا فضلا عن ابن غير شرعي لكارلومان بن لويس الجرمانى ملك بافاريا يدعى أرنولف (٣) ، وكان رجلا ناضجاً له دراية عسكرية ونجابة وطموح ، وكان والده قد عهد إليه بإدارة بعض الولايات فى الشرق لاسيما بانونيا وكارانثيا ، ثم تولى إدارة شئون بافاريا ذاتها خلال مرض والده . ولقد أجبر الثوار شارل السمين بعد خلعه على الاعتراف بأرنولف خليفة له فى ألمانيا ، فاضطر شارل السمين إلى ذلك ، وجرى تنصيب أرنولف ملكا على ألمانيا دون منازع (٤) .

---

(1) Mahrenholtz : op. cit p 3762
Cantor : op cit. pp. 220 — 1
(2) Davis : op. cit. p. 2:2
(3) Helmolt : op. cit p. 3936
(4) Barrie Dobson : German Hist. 911 — 1618, p. 133
Oman : op cit p. 443

ويبدو أن أمراء ألمانيا رغبوا بهذه الخطوة تجنيب ألمانيا مغبة الفوضى والانقسام وإقامة سلطة شرعية في البلاد من نسل البيت الكارولنجي، رغم كون أرنولف إبناً غير شرعي (١).

غير أن الأمر كان مغايراً في فرنسا ، فلم يكن ثمة حرص على الولاء للبيت الكارولنجي في ظل الظروف الحرجة التي عاشتها البلاد ، وغـزو النورمان وحصـــار باريس ، وما تلاه من تسليم مشين ، لاسيما وقد خلت الأسرة من وريث راشد يمكن أن يسير دفة الأمور بنجاح في هذه المرحلة الدقيقـة (٢) ، ولهذا أضحت الرغبة جامحة ، والحاجة ماسة لحاكم قوى من غير هـذه الأسرة يمكن أن يعتمد عليه بدلا من طفل صغير لا حول له ولا قـوة ، ولا يستطيع الخروج بالبـــلاد من أوضاعها السيئة . ولهذا فقـــد نادى الأمراء بأودو ـ كونت باريس ـ ملكا (٣) ، وزكته في ذلك مواقفه الشجاعة أثناء حصار النورمان لباريس ، فضلا عن أنه كان قوى الشكيمة محارباً ذو مهارة فائقة ، فجري تتويجه ملكا في أوائل سنه ٨٨٨ م (٤) . وعلى الرغم ممـا بدا من بعض المعارضة لتتويج أودو ملكا لأنه لم يكن من الأرومة الملكية ، إلا أن أودو نجح في تثبيت أقدامه حين أحرز نصراً مؤزراً على النورمان بعد تنصيبه بعـــدة أشهر (٥) ، وتبع ذلك اعتراف أرنولف ملك ألمانيا بأودو ملكا علي فرنسا ، واجتمع معه في فورمز ، ويبدو أن أرنولف لم يكن يهتم كثيراً بما كان يجرى

---

(1) Hoyt and chodorow : op, cit. p. 195

(2) Davis : op. cit. p. 1:0

(3) Camb . Med. Hist V. III, pp. 62 — 3

(4) Oman : op. cit. p. 444

(5) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 188

فى المملكة الغربية ، ولم يكن يهمه أكثر من أن تظل الوحدة المعنوية والتفاهم قائما بين الشطرين اللذين انقسمت إليها الإمبراطورية المنصرمة ولهذا لم يجد غضاضة فى التفاهم مع الملك الجديد فى فرنسا ومباركة تتويجه ملكا (١) .

وبجانب هذين الشطرين الكبيرين ، بزغت ممالك أخرى صغيرة فى نطاق البلاد التى دانت لشارل السمين يوما ، فقد نهضت مملكة بروفانس فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادي معتمدة على ما يجرى فى ألمانيا وفرنسا من ضعف وانقسام (٢)، كما نهضت مملكة برجنديا بعد وفاة شارل السمين وكرست استقلالها بل طمعت فى إحياء مملكة لوثرانجيا القديمة ، ومضت فى تكريس استقلالها (٣) . كما نهضت مملكة اللورين بعد أن ظلت مقدراتها مرتبطة بمقدرات ألمانيا حتى أواخر القرن التاسع ، ولكنها اختارت ابنا لأرنولف لتقيمه ملكا عليها وظل فيها هذا الملك يتمتع بشيء كبير من الاستقلال فى نطاق تبعية شكلية لألمانيا ، حتى وفاته سنة ٩٠٠ م ، ولما ورث لويس الطفل ــ الذى يعتبر آخر سلالة شارلمان من لويس الجرمانى (٤) ــ أباه أرنولف فى ألمانيا منح هذه المملكة استقلالا ذاتياً أكبر وعين فيها أحد الأدواق ، فتمتعت اللورين باستقلالها الذاتى فترة طويلة . وفى إيطاليا بزغت مملكة أخرى بعد وفاة شارل السمين ، على الرغم من أنها لم تستقر على حال نظراً لشدة التنافس على السلطة ، وتنازع كبار الأمراء فيها ، وطمع كل راغب فى التاج فى الحصول على تأييد ملك ألمانيا أرنولف ، إلا أن هذا لم يلتفت لذلك كثيراً

---

(1) **Mahrenholtz : op. cit. p. 3762**
(2) Parrie **Dobson** : op. cit. p. 131
(3) Helmolt : op. cit. pp. 3936 — 7
(4) Davis : op. cit. p. 212

لإنشغاله بشئون مملكته (١) ، وأخيراً وصل التاج فيها إلى دوق سبوليتو بعد حروب مريرة وصراع رهيب ، فجرى تتويجه في بافيا سنة ٨٨٩ م ، غير أن سلطة هذا الملك تقلصت كثيراً نظراً للوجود البيزنطى فى الجنوب ، وأملاك المسلمين هناك (٢) ، فضلا عن تواجد مناوئين له فى الشمال الشرقى من البلاد .

وعلى الرغم من انقسام الإمبراطورية الكارولنجية وتفتتها ، وبزوغ ممالك متعددة على أنقاضها إلا أن فكرة الإمبراطورية كانت حية فى الأفئدة لم تمت (٣) ، لأنه جرى الاعتراف لأرنولف ملك ألمانيا بنوع من السمو والتفوق من قبل ملك باريس وملك برجنديا فضلا عما أبداه ملك إيطاليا من احترام (٤) ، لأن أرنولف كان من ذرية شارلمان مهما كان وضعه في ألمانيا ، ولعل ذلك هو الذى جعل فريقا من المؤرخين يؤكد أن اعتراف الممالك الصغري بهذا الرجل ملكا أعظم هو الذى مهد لقيام الإمبراطورية فى شكلها الجديد (٥) ، لأن فكرة الإمبراطورية لم تمح تماما ولم تذهب من الوجود بل كانت حاضرة حية في القلوب حتى فى أحلك الأوقات وأصعب الظروف (٦) . وساعد على نمو هذه الفكرة أن البابا كان يميل أيضا إلى تتويج أرنولف رغم أنه كان ابنا

---

(1) Helmolt : op. cit. p. 3936

(2) Keen : op. cit p. 34
Lewis : op. cit. p. 117

(٣) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٢٢٩

(4) Oman : op. cit. pp. 468 — 9

(5) Barrie Dobson : op. cit. p. 133

(6) Mahrenholtz : op. cit. p. 3762
Davis : op. cit. p. 212

غير شرعي ، ورغم العار الذى لصق به من صغره ، وذلك للخدمات التى أداها للكنيسة وللمسيحية ، ولم يكن البابا يميل إلى تتويج شارل البسيط ملك فرنسا لمعارضة فرنجة الغرب لهذه الخطوة من ناحية ، وصغر سن هذا الملك وضعفه من ناحية أخرى[1] ، فى الوقت الذى سلك فيه أرنولف سلوكا أقنع البابا بأحقيته فى العرش الإمبراطورى ، فقد تقرب أرنولف إلى رجال الدين الألمان وسمح لهم بعقد المجامع الدينية ، وهو أمر لم يعهده الناس منذ أمد طويل فى ألمانيا ، كما أخذ على عاتقه الضرب بيد من حديد على يد القبائل الوثنية الضاربة على تخوم المملكة وحماية المسيحيين من شرهم ، فقام فى سنة ٨٨٩ م بحملة ضد السلاف وتلقى بعدها دعوة البابا فى إيطاليا بالذهاب إلى روما [٢] ، وتطهير إيطاليا من الوثنيين الأشرار والمسيحيين المنحرفين ، فدل ذلك على اتجاه البابا إلى تتويج هـذا العاهل النشط ، على الرغم من تحفز ملك إيطاليا « دوق سبوليتو » ومعارضته لهذه الخطوة لتعارضها مع مشروعاته للمطالبة بالتاج الإمبراطوري رغم عدم انتسابه للبيت الكارولنجى [٣] .

وعلى الرغم من هذه الميول التى أظهرها البابا لتتويج أرنولف وحماسة أرنولف ذاته للحصول على اللقب الإمبراطورى ، فانه لم يتمكن فى ذلك الوقت من إجابة البابا إلى طلبه والذهاب إلى روما والفوز بالتاج الإمبراطورى ، نظراً لظروف داخلية خطيرة اضطرته إلى البقاء بألمانيا حتى سنة ٨٩٤ [٤] ،

---

1) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 188

(2) Camb. Med. Hist. V. III. pp. 64 — 5

(3) Ibid. V. 5, pp. 167 — 8

(4) Helmolt : op. cit. p. 3937

فقد حدث أن أعلن برنارد وهو ابن غير شرعي لشارل السمين الثـورة ضد أرنولف في سوابيا ، وبرزت أخطار مورافيا فيالشرق ضد أرنولف ، رغم تدخل البابا ووساطته ولم، يكن أرنولف يطمئن منهذه الجهة فىالوقت الذى هدد فيه النورمان المملكة أيضا من الغرب بعد أناقتحموا نهر الموز وخربوا إكس لاشابل وعاثوا فساداً فى البلاد ، ولهـذا لم يستطع أرنولف أن يتفرغ فى هذه الحقبة لمشروعاته في إيطاليا والفوز بالتاج الإمبراطورى (١) .

غير أن أرنولف نجح منذ سنه ٨٩١ م في تصفية هذه المشاكل تباعا ، فقد قضى على برنارد فى سوابيا وأخمد ثورته ونكل بأنصاره وأتبـاعه ، وتحول إلى مورافيا فى الشرق فاقتحمها وسمح لجيشه أن يعيث فيها الفساد، وارتكب فيها كثيرا من أعمال العنف ونصب فيها المذابح البشرية الرهيبة(٢) ، ثم التفت إلى النورمان في الغرب فردهم على أعقابهم سنة ٨٩١م (٣) ، وتحالف مع ملك البلغار ، وجنب بلاده كثيرا من الويلات ، وألهته هـذه المشاكل عن المطالبة بالتاج الإمبراطورى ، وغض الطرف مرغما عن دعوة البـابا له للذهاب إلى روما ، ولم يكن بوسع البابا الانتظار طويلا دونأن يحسم هذا الوضع ويقرر إلى من يدفع التاج واللقب الإمبراطورى (٤) .

---

(1) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3766 — 8

(2) Oman : op. cit. pp. 468 — 9

(3) See : " The Battle of the Dyle 891 " — Trans. from " The Chronicle of Regins of Prum" — Ed. Kurtz, pp. 136 — 7 — in Davis : op. cit. p. 173, "The Annals of. Fulda M. G. H. Scriptorum, I. 407" — in Davis : p. 174

(4) See : " The Battle of the Dyle 891 " — op. cit. p. 136 Davis : op. cit. p 174, Oman : op. cit. pp. 463 — 4

وعلي الرغم من أن البابا لم يكن يميل إلى دوق سبوليتو ـ ملك إيطاليا ـ ولا يحب أن يحمل هذا الملك اللقب والتاج الإمبراطورى ، نظرا لأنه لم يكن يظهر إجلاله للكرسي البابوى، فضلا عن تعارض مصالح البابا مع مصالح هذا الملك فى مناطق النفوذ ، فضلا عن أن استشراء النزاع والخلاف فى إيطاليا أمر يؤثر على مصالح البابوية هناك ويعرض استقلالها للتهديد (١) ، إلا أن ملك إيطاليا هذا أخذ يعمل من جانبه على تغيير هذا الأنطباع لدى البابا وأظهر قدراً كبيراً من الإجلال والاحترام للكرسي البابوى ، وعقد مجمعا فى بافيا أقر فيه أن الكنيسة الرومانية هي رأس الكنائس كلها ، وأنه ينبغي الحفاظ على امتيازاتها وسلطاتها ، ولهذا بدأ البابا يميل إلى منح هذا الملك اللقب الإمبراطورى (٢) وخاصة أن أرنولف ظل مصما أذنيه عن دعوة البابا ، ولم يبد استجابة لهذه الدعوة لانشغاله في مشاكله هناك(٣)، وانتهى الأمر بتتويج دوق سبوليتو ملك إيطاليا فى كنيسة بطرس فى أوائل سنة ٨٩١م ، وهكذا انتقل التاج الإمبراطورى من الأسرة الكارولنجية العريضة إلى ملك محلى فى إيطاليا وبدا أن الإمبراطورية الكارولنجية قد أصبحت أثراً بعد عين(٤).

أما الإمبراطور الجديد فقد منحه هذا اللقب زهوا عظيما ، فحاول التشبه بالأباطرة الكبار وأكسب أعماله مسحة من التقديس ، وأضفى على تشريعاته أنماط تشريعات شارلمان وسمات قوانينه وبلغ بهذه الأعمال الذروة حين جعل الإمبراطورية وراثية فى أسرته (٥) ، وأملى على البابا ضرورة تتويج ابنه

(1) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 195

(2) Oman ; op. cit. p. 464

(3) Davis : op. cit p 168

(4) Helmolt : op. cit. p. 3937

(٥) حاطوم : المرجع السابق ص ٢٤٣

لامبرت ، فتم له ما أراد فى سنة ٨٩٢ م ، على الرغم من إمبراطورية سبوليتو لم تكن إلا ظلا باهنا للامبراطورية القديمة حتى أن سلطتها لم تمتد على كل إيطاليا ذاتها، فنازعه فيها المنازعون، وأظهر ملك فرنسا احتقاره لها ولفظتها حتى الممالك الصغرى فى لوثرنجيا، وراح ملك ألمانيا أرنولف يعد العدة للقضاء عليها (١).

ففى أواخر عام ٨٩٣ م أضحت الظروف مهيأة فى ألمانيا للقيام بعمل حاسم ضد إمبراطور إيطاليا ، فقد فرغ أرنولف من مشاكله وبدأ يستجيب للدعوات الموجهة إليه للذهاب إلى إيطاليا، فقد قلب البابا ظهر المجن لإمبراطور إيطاليا ، وجدد الدعوة لأرنولف لتخليصه منه ، وكذلك بعث منافسو الإمبرطور فى إيطاليا بدعوات مماثلة لأرنولف ، ولهذا استجاب أخيراً ملك ألمانيا (٢) ، وأرسل حملة يقودها أحد أبنائه ، فما أن اقترب هذا من إيطاليا ، وهوى إليه منافسو الإمبراطور في إيطاليا حتى تملك الذعر الإمبراطور وتحصن فى بافيا ، ففرضوا عليه الحصار فيها لمدة ثلاثة أسابيع دون طائل فقرر الأمير الألمانى العودة إلى بلاده حتى قيل أن إمبراطور إيطاليا قد اشتراه بالمال فقفل راجعا إلى بلاده . وعندئذ لم يكن أمام أرنولف سوى أن يأتى بنفسه إلى إيطاليا (٣) ، فقام على رأس حملة فى أوائل العام التالى (٨٩٤م) ، وشق طريقه فى شبه الجزيرة، فخضعت بعد صراع مرير مدن كثيرة إذ دخل برجام واستسلمت ميلانو و بافيا ، وفر الإمبراطور إلى سبوليتو ، وخضع أمراء تسكانيا للملك أرنولف (٤) ، وفكر فى الزحف إلى روما غير أنه غير

(1) Hoyt and Chodorow , op. cit. p 195
Camb Med. Hist. V. 5, pp. 167—8
(2) Deanesly : A Hist. of Early Mebieval Europe. p. 565
(3) Hoyt and chordorow : op cit. p. 195
(4) Deanesly ; op. clt. p 565

رأيه فجأة وقفل راجعا إلى ألمانيا ، وتعزو بعض الحوليات المعاصرة هذه العودة المفاجئة إلى مرض انتشر في الجيش الألمانى ، فضلا عن ظهور مشاكل أخرى وعداء من قبل ملك برجنديا ، الذى أخذ يتدخل فى إيطاليا مناوئا أرنولف ومساعدا إمبراطور إيطاليا ، ولهذا قرر أرنولف العودة مباشرة إلى بلاده (١) .

غير أن الظروف ما لبثت أن تغيرت فى إيطاليا فى أواخر عام ٨٩٤ م ، وتبدلت لصالح أرنولف ، فقد توفى إمبراطور إيطاليا ، وخلفه فى العرش ابنه لامبرت الذى لم يكن له ما يؤهله لقيادة الإمبراطورية فى تلك الظروف الحرجة ، أو توجيه الكفاح فيها ضد الألمان ، وفى نفس الوقت جدد البابا دعوته لأرنولف للعودة إلى إيطاليا (٢) . وعندئذ استجاب أرنولف من جديد وخرج في أوائل عام ٨٩٥ ، فوصل إلى بافيا ثم زحف إلى روما ، ورغم المصاعب الجمة التى واجهت أرنولف ، فقد اقتحم روما ، وقضى على مقاومة الحامية الإمبراطورية فيها ، واستقبله البابا استقبال الظافرين ، وتوجه إمبراطورا فى أوائل عام ٨٩٦ فى كنيسة بطرس العريقة ، واسترد أرنولف بذلك التاج واللقب الإمبراطورى الذى فقدته الأسرة الكارولنجية قرابة خمسة أعوام (٣) ، غير أنه كان مطالبا بالقضاء على جيوب المقاومة الباقية فاتجه إلى سبوليتو لإنهاء المقاومة فيها ، ولكنه مرض فى الطريق وأصابه شلل مفاجىء فجرى نقله إلى ألمانيا وأخليت إيطاليا من جيوشه وعاش

---

(١) اقرأ تفصيلات عن ذلك فى :

Oman : op. cit. pp. 464 — 6

(2) Helmolt : op. cit. p. 3937

(3) Helmolt : op. cit. p. 3937

أرنولف مشلولا حتى توفى فى النهاية سنة ٨٩٩ (1) ، لينتهى عهد الأمرة الكارولنجية فى ألمانيا ، وتبزغ حقبة جديدة فى تاريخ الإمبراطورية هناك، لأن أرنولف كان من الناحية العملية آخر أباطرة السلالة الكارولنجية فى هذا الجانب من الإمبراطورية ، وبموته انتهت الإمبراطورية الكارولنجية بصورة قاطعة ، وإن ظل بعض الأمراء يتلقبون باللقب الإمبراطورى ، ولكن لم يكن لهم كبير أهمية لا فى الممالك المسيحية الغربية ولا حتى فى ممالكهم الخاصة مهما صغر حجمها وضاقت رقعتها (2) . وهكذا أدى إخفاق أرنولد فى مشروعاته فى إحياء الإمبراطورية الكارولنجية وضمان وحدتها إلى زيادة التفتت والتجزئة التى شهدتها هذه الإمبراطورية الزائلة . فلم تستطع الأسرة الكارولنجية البقاء والإستمرار ، وأضحت هذه الإمبراطورية فى ذمة التاريخ من الناحية الفعلية (3) ، لأنه بعد وفاة لويس الطفل ابن أرنولف دون عقب ، أصبح وضع القسم الشرقى من إمبراطورية الفرنجة مختلفا ، وأرهص ذلك بانتهاء السلطة الفرنجية فى هذا الجانب من الإمبراطورية التى وضع أسسها شارلمان (4) .

---

(1) Hoyt and Chodorew : op. cit. p. 196

(2) Oman : op. cit. p. 465

(3) Camb. Med. Hist. V. III, p. 67

(4) Barrie Dobsou : Germany, A Companion to German studies, Ed. by Malcolm Pasley, p. 130 [Loudon 1972]

وانظر حاطوم : نفس المرجع ص ٢٤٦

الفصل الثانى

فرنسا بعد وفاة شارل السمين سنة ٨٨٨ م

لم يكن هناك فى فرنسا بعد وفاة شارل السمين ممثل للبيت الكارولنجى سوى شارل البسيط ، الذى كان فى السابعة أو الثامنة من عمره ، ولقد جاء انتخاب أودو كونت باريس ملكا أمراً أملته الأخطار المحدقة بالبلاد وحصار النورمان لباريس (١) ، فى الوقت الذى أيقن فيه الناس أن المصلحة العليا تقضى بهذه الخطوة ، على الرغم من أن الولاء للسلالة الكارولنجية كان لا يزال باقياً ، والرغبة فى الحفاظ على الأسرة الكارولنجية لا زالت حاضرة (٢) ، ولقد أكد أودو أحقيته فى العرش الفرنسى حين نجح فى رد الغزو النورمانى عن منطقة السين واللوار وإجبار النورمان على فك الحصار عن باريس. وإذا كان هذا مبرراً قويا لحصول أودو على العرش ، إلا أنه لم يكن - بمرور الوقت - سببا مقنعا باحتفاظه بهذا العرش لاسيما فى ظل نمو النظم الاقطاعية (٣) ، ووجود كونتات ونبلاء إقطاعيين نظروا إلى أودو على أنه ليس إلا شخصا منهم لا يزيد عن أحدهم فى شىء ، ولهذا بدأ بعضهم يتطلع إلى هذا العرش طالما هو فى حوزة أودو ، ولم يعد إلى الأسرة الشرعية أو الذرية الكارولنجيه (٤) ،

---

(1) Davis : op. cit. p. 166

(2) Camb. Mad. Hist, V. III, pp. 62 — 3

(3) Ganshof : Feudalism, p. XVI, 3, 115
Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 202 — 203

(4) Mahrenholtz : " France throughout the Middle Ages "; B. H. V. VII, 3761

وبرز في هذه الحقبة كونت فلاندرز ، وكونت بواتو وغيرهما ممن طمع في الحصول على التاج الفرنسي في هذه المرحلة . وساعد على ذلك أن النصر الذى أحرزه أودو على النورمان في سنه ٨٨٨ م سرعان ما جرى نسيانه حين عاد أودو ليشترى مسالمة النورمان بدفع الأموال الطائلة لهم حين هددوا البلاد من جديد سنة ٨٩١م (١)، بعد أن اجتاحوا غرب فرنسا وشمالها، ولم يوقف تقدمهم جديد ويجبرهم على الارتداد سوى ما أنزله بهم أرنولف من هزيمة (٢) أخلوا على أثرها البلاد واتجهوا إلى الجزيرة البريطانية (٣) .

ولقد تسبب إخفاق أودو في صد النورمان في هبوط شعبيته ، وبروز أطماع المناوئين والكارهين ، فاندلعت الثورات في فلاندرز وفي أكويتين وغيرهما وبرز في سنة ٨٩٣، شارل البسيط ليطالب بحقه في التاج الفرنسي، فجرى تتويجه ملكا في نفس العام ، لينفتح باب المنازعات منذ ذلك الوقت بين ذرية الكارولنجيين — المؤيدين من قبل كبار النبلاء في أوستراسيا وبرجنديا — وبين أودو وأنصاره — المؤيدين من قبل أهل نستريا في الغرب (٤) . غير أن أودو لم يكن على استعداد للتسليم بسهولة ، فقد فعل كل ما في وسعه للحفاظ على تاجه

(1) Davis ; op. cit. p. 166

(2) See : ' The Balttla of the Dyle 891 " — trans form " The Chronicle of Regins " — Ed. Kurtz, pp. 136 — 7, in Davis ; op. cit. p. 173

See : " The Anals of Fulda, M. G. H Seriptorum, i, 407 " — in Davis : op. cit, p. 174

(3) " Widukind' s Rerum Gestarum S xonicarum, Libri Tres-" Ed waitz 1882. — in Davis : pp. 216 — 7

Camb. Med. Hist. V. III, p. 322

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 192

وعرشه ، فأصلح ما بينه وبين كونت بواتيه ، وأجبر دوق برجنديا على التخلي عن مناصرة شارل البسيط ، وبدا أن استرداد الأسرة الكارولنجية لعرشها مسألة تحتاج إلى جهد كبير وصبر عظيم (١) ، وفى نفس الوقت نشط شارل البسيط وأنصاره فى تهيئة الجو وكسب الأنصار والمؤيدين من كبار الحكام وذوى السلطة فى إيطاليا وألمانيا ، فكاتبوا البابا يلتمسون التأييد، كما كاتبوا إمبراطور إيطاليا ، وملك ألمانيا ، أرنولف ، وتعهدوا له بالاعتراف بسموه وتفوقه ، لو استعادت الأسرة تاجها فى فرنسا (٢) . وعلى الرغم من تعاطف البابا ومساندة أرنولف لشارل البسيط ، إلا أن هذا أخفق فى إجبار خصمه أودو على التنازل عن العرش ، فى حين شغل أرنولف بحملته الثانية فى إيطاليا ولم يعد يهتم بالنزاع فى فرنسا ، ولهذا نشط أودو فى محاولة القضاء على شارل البسيط وأحلامه فى استعادة العرش الكارولنجى(٣) ، لولا أن وصل النورمان من جديد سنة ٨٩٥ — ٨٩٦ م إلى مصب نهر السين ، واخترقوا البلاد عبر هذا النهر (٤) . وأمام هذه الأخطار قبل أودو أخيرا المفاوضة مع شارل البسيط حيث قبل فى النهاية أن يتنازل لشارل البسيط عن قسم من المملكة ، ووعده على حد قول كثير من المؤرخين بأن يوصى به خلفا له فى العرش ، وذلك حين شعر بدنو أجله (٥) .

ويبدو أن الحروب الأهلية قد أنهكت قوى أودو ، وجعلته يستسلم أمام النورمان ، إذ سمح لهم باجتياح نستريا وأكوتين ، ولم يقو على مدافعتهم أو

(1) Ibid, p. 196

(2) Ibid p I95

(3) Helmolt : op cit, p. 3937

(4) Haskins : The Normans in European Hist. p. 27

(5) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 62 — 8

ردهم عن هذه الجهات ، ثم توفى بعد ذلك فى سنة ٨٩٨ م بعد أن بر بوعده وأوصى كبار النبلاء ورجال دولته بانتخاب شارل البسيط خلفا له [١] . وهكذا تسبب خطر النورمان فى رفع أودو إلى العرش الفرنسى فى البداية ، ثم ما لبث هذا الخطر أن أودى بشهرة أودو وجعله يستسلم ويوصى بشارل البسيط ممثل البيت الكارولنجى خلفا له ، حين تأكد من سطوة رجال الإقطاع وعجز فى نفس الوقت عن تحقيق انتصارات على النورمان تكبت أصوات المعارضين وتكسر شوكتهم [٢] .

دلف شارل البسيط إذن إلى العرش الفرنسي دون مصاعب تذكر ، فقد بايعه أخو أودو ، وكبار النبلاء الإقطاعيين ، واضطر فى النهاية دوق برجندية إلى الاستسلام والاعتراف بشارل البسيط ملكا ، ولم تعد نظرة الأمراء الفرنسيين لهذا الملك على أنه ليس إلا واحدا منهم ؛ بل إن وارث البيت الكارولنجي كان أعز منهم نسبا ، وأعظم منهم منزلة ، فضلا عن أنه حرص على أن يحافظ على روح التوازن بينهم فى ظل تأييدهم له والتفافهم حوله [٣] . وعلى الرغم مما لصق بشارل هذا من أسماء تجعله فى عداد البسطاء أو السذج ، إذ سمى بشارل البسيط أو شارل الساذج ، إلا أن فريقا من المؤرخين يؤكد أن هذا الرجل لم يكن يخلو من مناقب [٤] ولم تنقصه القوة أو الطموح ، ولم يفتقر فى كثير من الأحيان إلى الأصالة والكرم والهمة ، وان لم تسعفه الظروف والأحوال .

---

(1) Ibid. p. 68

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 196

(3) Davis : op. cit. p. 212

(٤) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٢٧٤

في ذلك الوقت ، وتوفر المال اللازم (١) .

استعاد شارل البسيط إذن العرش الفرنسي ، فاسترجع بذلك ملك آبائه وأجداده ولكن الظروف في فرنسا لم تكن مواتية لكي تضمن لهذا الشاب حياة هادئة ، فقد كانت هجمات النورمان تؤرق الفرنسيين وتقض مضاجعهم ، لاسيما في الجزء الغربي والشمالي من البلاد ، ولهذا حين استأنف النورمان غزوهم لفرنسا في أوائل القرن العاشر ، تصدى لهم الملك الجديد وكبار النبلاء (٢) ، في همة وعزيمة وحماسة طاغية حتى نجح الفرنسيون في إلحاق هزيمة كبيرة بالنورمان تحت أسوار شارتر في ذلك الوقت، تراجعوا على أثرها إلى الوراء ، وقبل زعيمهم رولو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط ، عرفت بماهدة سان كلير، على نهر الإبت في يوليو سنة ٩١١ م (٣). وتعتبر هذه المعاهدة أبرز أحداث تاريخ النورمان بهذه البلاد ، ونقطة البداية في تأسيس المملكة النورمانية بغالة ، كما جاءت سنة ٩١١ م — على حد قول المؤرخ هاسكنز — في منتصف قرن وربع من الغزو والاستقرار النورماني في إقليم نورماندیا (٤) .

فلقد رأى الملك الفرنجي شارل البسيط — بعد سلسلة من المغامرات النورمانية بغالة — أن يمنح رولو بمقتضى هذه المعاهدة الجزء الشرقي الذي عرف فيما بعد باسم نورماندیا كإقطاع له ولرجاله نظير ارتباط هذا بالتبعية له

---

(1) Painter : A Hist of the Middle Ages, p. 153

وانظر كذلك : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨

(2) Camb. Med. Hist. V, III, p. 322

(3) Cantor : op. cit. p. 254, Oman : op. cit. p. 501

(4) Haskins : op. cit. pp. 26 — 7

وحلفه يمين الولاء[١]، واعتناقه المسيحية هو وقومه ، فمنح روللو الإقليم الواقع على جانبي نهر السين، الذي عرف فيما بعد بنورماندیا العليا وإن حصل النورمان بعد ذلك وفى سنة ٩٢٤ م ، على وسط نورمانديا ثم الجهات الغربية فى كوتنتين Cotentin والإفرانشين سنة ٩٣٣ م[٢] ، وكان استقرار روللو وأتباعه فى نورمانديا بداية عهد جديد للشعب الإسكندناوى فى ذلك الإقليم[٣] .

ويبدو أن كلا من شارل البسيط وروللو رغبا فى إبرام هذه المعاهدة طلبا للراحة ، بعد فترة طويلة من القتال والغارات النورمانية ، والتصدى الفرنسى لها ، وذهاب الاستقرار وضياع الأمن[٤] ، حتي لتذهب الروايات إلى أن خسائر النورمان فى آخر معركة قبل هذه الاتفاقية بلغت سبعة آلاف رجل، ولا شك أنها فى الجانب الفرنسى لا تقل عن ذلك إن لم تزد ، على حين توصل كبار زعماء النورمان إلى أن الحصول على إقليم غنى ، يعد أمرا مجزيا وثمنا مناسبا ، ويبدو أن الإقليم المعروض امتد حول نهر السين واعتبر من أغنى وأخصب الأقاليم الفرنسية[٥] .

وربما اعتقد شارل البسيط أنه بهذه المنحة ، إنما ينشىء إقطاعا جديدا لقائد النورمان ليجعله أحد أنصاره ، ويربطه برباط التبعية له ، بينما كانت هذه المنحة بالنسبة لروللو — وهو خالي الذهن من الأفكار الإقطاعية — مجرد

وانظر : محمد الشيخ : الممالك الجرمانية ص ٢٨٦

(1) Schjoth : " Great days of the Northmen " B. H. V. VII p. 3550

(2) Haskins : op, cit, pp, 27 — 8

(3) Hallam : View of the State of Europe during the Middle Ages, p. 16

(4) Hoyt and Chodorow : op cit. p 192

(5) Fliche : op. cit. pp. 72 — 7

منحة كاملة يمتلكها هو ورفاقه كأرض يحتويها فى وطنه (١) ، وطبقا لذلك لم يجر فى البداية اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة وما يحيط بهـا ، لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الذوبان فيما حولها ، ويعطونها الفرصة لتأكيد ذاتيتها وإبراز سماتها بعيدا عن جاراتها . وهكذا أخـذت نورمانديا تشكل ببطء كيانها كبـلد إفرنجى وكمستعمرة نورمانية لتبـــدو كدوقية شبه مستقلة ، تلعب دورها فى هذه الحقبة (٢) . ويبدو أن روللو نفذ ما جاء بمعاهدة سان كلير ، فيما يختص باعتناقه المسيحية وإدخال قومه فيها ، فقد بدأ الجميع يدخلون فى المسيحية أفواجا ، وابتداء من سنة ٩١١ م أصبح النورمان فى زمرة مسيحيي البلاد الغربية ، وجرى تعميـد روللو نفسه وتبعه قومه (٣) .

وإذا كانت معـاهدة سان كلير قد أثارت استيـاء فى كثير من الأوساط الفرنسية واستهجن المؤرخون سياسة شارل البسيط ، واتهمـــوه بالجبن والإستسلام للنورمان والتفريط فى إقليم من أغنى أقاليم فرنسا وأخصبها (٤) ، ومنحه لقرصان حقير على حد قولهم ، فانه سرعان ما تغيرت هذه الإنطباعات ، وجرى اعتبار هذه المعاهدة عملا أملاه العقل وسداد الرأى ، لأنها وضعت حدا للاغارات النورمانية ، وأعادت السلام إلى ربوع البلاد والهـــدوء إلى منطقة السين (٥) ، وأمدت فرنسا بدماء جديدة سرعان ما أخذت تنـــدمج فى فرنسا لتلعب دورها فى الحقبة التالية ، لا سيما وأن روللو تنصر فى العام التالى لهـذه

(1) Davis : op. cit. p, 166

(2) Haskins : op, cit, p, 45

(3) Camb. Med. Hist. V. III, pp, 315 — 20

(4) Hoyt and chodorow : op. cit p, 192

(5) Davis : op. cit. p, 16 i

المعاهدة (٩١٢ م) ، وجرى تعميده وفقاً للمسيحية الكاثوليكية ، وتسمى باسم روبرت Robert (١) وقرن توبته وهدايته بالمنح السخية من الأراضى للكنائس والأديرة في وطنه الجديد، وأن ابنه وليم طويل السيف Long Sword كان من طراز أكثر رسوخا فى المسيحية والفرنجية (٢) .

وبعد أن نجح شارل البسيط فى حل مشكلة النورمان على هذه الصورة ، اهتم بالحصول على إقليم آخر يوسع به حدود المملكة الفرنسية ونجح فى ضم اللورين إلى المملكة فدفع بحدود المملكة إلى الراين والفوج ، على الرغم من أن هذه الخطوة جرت عليه المتاعب ابتداء من سنة ٩٢٠ م (٣) ، ذلك أن دوقية اللورين أعجبته كثيرا ، وفضل الإقامة بها باعتبارها مهد عائلته ، إلا أن هذه الخطوة أثارت ضده أهل نستريا فى الغرب الذين ساءهم أن ينقل شارل البسيط مركز الثقل نحو الشرق ، وفجرت ضده الثورة أيضا فى اللورين ذاتها ، التى كانت مطمعا لأمير محلى ومطمعا أيضا للملك ألمانيا هنري الأول الذى اعتلى عرش ألمانيا سنة ٩١٩ م خلفا لكونراد الأول (٤) ، وما لبث شارل البسيط أن دخل فى حروب انتهت بعقد اتفاقية مع هنرى الأول ، احتفظ فيها مؤقتا باللورين ، وإن أشارت الدلائل إلى إلى أنه سيفقدها إن عاجلا أو آجلا ، خاصة أن هنرى الأول حاز شهرة عظيمة بانتصاره على المجريين فى ذلك الوقت، واحتل مكانة هامة فى هذا الجانب من دولة الفرنجة (٥) .

---

(1) Schjoth : op. cit. p. 3550

(2) Haskins : op. cit. pp. 45 — 6

(3) Davis : op. cit. pp 212 — 13

(4) Fliche : op. cit. pp. 37 — 40

(5) Widukind's Rerum Gestarum Saxonicarum. i. 25, Luidprand of Cremona, (Antapodosis. iv, 25)
R. H. C. Davis : op. cit. pp. 212 — 13

ولم يكد يمضى وقت طويل على هذه الاتفاقية التى أبرمت فى سنة ٩٢٠ م، حتى تفجرت الثورة ضد شارل البسيط من قبـل روبرت أخى أودو — الملك السابق — الذى نجح فى تأليب أهل نستريا، ومعظم الرعايا وكبار النبلاء ضد شارل البسيط ، حتى جرى تتويج روبرت هذا فى نفس العام ، بعد أن انفض الناس من حول شارل البسيط ، غـير أن هذا لم يشأ الاستسلام بسهولة ، بل جهز جيشا فى اللورين ، وتقدم نحو سواسون مقر الملك الجديد ، بعد أيام من تتويجه ، وجرت معركة ضارية قتل فيها روبرت(١)، وكادت تتم الكارثة على أنصاره وأتباعه لولا ثبات هيو — ابن روبرت المقتول — الذى استطاع أن يجمع شتـات الجيش ويصمد فى الميـدان ، حتى انتهت المعركة بتراجع جيش شارل البسيط نحو اللورين (٢) .

وعلى الرغم من تراجع شارل البسيط إلى اللورين، فان ذلك لم يحفز الثوار على رفع هيو — ابن روبرت — إلى العرش ، نظرا لأن هذا لم يكن فى نظر الأمراء والنبلاء أهلا لهذا المنصب من ناحية ، فضلا عن أن اختيار هذا سيعتبر اعترافا بالمبدأ الوراثى لصالح أسرة جديدة من ناحية أخرى ، وهو أمر كان يعارضه كبار النبلاء ولا يرتضون به (٣)، ولهـــذا استقر رأي الأمراء على اختيار رؤول صهر روبرت ملكا فى يوليو سنة ٩٢٣ م ، نظرا لقوة شكيمته من جهة وللخلاص من فكرة المبدأ الوراثى من جهة أخـــرى (٤) ، وجرى تتويجه فى سواسون ملكا بتأييد من كبار رجال الدين ، وقبول من أمراء شمال

(1) Camb. Med. Hist. V, III, p. 74

(2) Ibid. p. 74

(3) Barrie Dobson : German Hist. 911 — 1618, — in Germany A companion to German Stadies, ed. by Pasley, p. 132

(1) Camb. Med. Hist. V. III, pp. 184 — 5

فرنسا وغربها ، على حين ظلت نورمانديا وجنوب فرنسا وشرقها واللورين تتمسك بملكها الكارولنجي شارل البسيط [١].

ويشاء سوء حظ شارل البسيط أن يقع فى أسر أحـد الأمراء المحليين من أنصـار رؤول يدعى هربرت أمير فرماندوا سنة ٩٢٣ م ، الذى احتفظ به رهينة يمكن أن يساوم عليها مليكه إذا اقتضى الأمر [٢] ، ففقـد شارل البسيط حريته في فترة حرجة كان يمكن أن يستعيد فيهـا تاجه وينفرد بالسلطة فى دولته فى ظل تأييد جانب لا يستهان به من أهل البـلاد ، لاسيما أن رؤول شغل فى السنوات الأولى من حكمه باضطرابات شديدة جاء أولها من قبـل نورمانديا التى انتهزت الفرصة لتثير المشاكل فى وجه الملك الجديد ، وفى نفس الوقت انتهز ملك ألمانيـا الفرصة ليعبر نهر الراين ويستولى على اللورين [٣] ، وفى سنة ٩٢٦ م وما بعدها دهم المجريون رؤول واجتاحوا إقليم شامبانيا وعاثوا الفساد ونهبـوا الأديرة [٤] ، وفى نفس السنة تفجرت الثـــورة فى أقطانيا منتهزة فرصة انهماك رؤول فى مشاكله ، وفى نفس الوقت ظهرت مطامع هربرت الذى أسر شارل البسيط فراح يساوم الملك للحصول على كونتية كبيرة ، ولما لم يستجب رؤول، أفرج هذا عن شارل البسيط، واعترف به ملكا سنة ٩٢٧ ، إلا أن هذه المناورة لم تفلح لاسيما وأن رؤول عاد فوافق على طلبات هربرت ، فأعاد هذا الملك شارل البسط إلى السجن حيث بقى فيه ، حتى جاز إلى ربه فى العام التالى سنة ٩٢٩ [٥] ، على حـين التجـأ ابنه لويس

(1) Hoyt and chodorow : op cit. p. 203

(٢) حاطوم : المرجع السابق ص ٤٨٢ .

(3) Mahrenholtz : op cit. p 3764

(4) Davis : op. cit. p. 168

(5) Hoyt and chodorow : op cit. p. 192

(الرابع) إلى انجلترا مع أمه ابنة الملك أدوارد الأول ، ولم يفكر لويس في المطالبة بالعرش في هذه الظروف ، فصفا الجو لرؤول ليلعب دوره في تاريخ المملكة ، في ذلك الوقت .

جاء هذا التطور في صالح رؤول دون شك ، الذى يؤكد المؤرخون أنه كان شخصية عظيمة فعلا ، فقد أهلته صفاته الشخصية الممتازة للحصول على شعبية كبيرة في بلاده ، فزاد في السلطة الملكية ، وأضفى عليها مهابة واحتراما ، وساعده على ذلك مهارته الفائقة في القتال كقائد عسكرى موهوب وصاحب خطط عسكرية فذة واستراتيجية هامة ، فضلا عن أنه كان رجل حكم بمعنى الكلمة ، وكانت له سياسة ثابتة طوعها لخدمة العرش والبلاد ، على حين كان سلفه أودو خاضعا للظروف تسيطر عليه وتوجهه (١)، هذا بالإضافة إلى امتداح المؤرخين لتقوى رؤول وثقافته وكرمه وعدله وحبه للنظام وشهامته، ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه أظهر امتعاضا من تابعه هربرت حين أسر هذا الملك شارل البسيط في كمين أعده وأودعه السجن بدلا من أن يفرح لخلاصه من منافس عتيد ، ووارث شرعي للسلطة الكارولنجية ، فدل رؤول بذلك على شهامته وأصالته وتقواه ، فلم يكن يوافق على تلك الأساليب الرخيصة للتخلاص من منافسيه ، وإنما يعول على الحكمة والحصافة والحرب ، في الوقت الذى لم يكن فيه شارل البسيط على شيء من الحكمة أو الحصافة (٢) .

ولعل هذه الصفات الممتازة هي التى جعلته يقضى على المشاكل تباعا ، ويؤمن العرش لخلفائه ، ويتخلص من أكثر مشاكل عصره تعقيدا ، فقد أخضع

(1) Oman : op. cit. pp. 444 — 5

(2) Davis ; op. cit, p. 212

النورمان فى نورمانديا ، وقضى على ثورتهم ، والتفت إلى أقطانيا ، فأعادها إلى الهدوء والسكينة [١]، وعالج مشكلة تابعه هربرت فى فرماندوا بحكمة ، حتى أدخله فى حدود الطاعة من جديد ، وبسط سيطرته على أنحاء الشمال والجنوب فى فرنسا ، بفضل مهارته السياسية والدبلوماسية ، فلم تكد تحل سنة ٩٣٥ م حتى ظللت الوحدة المملكة الفرنسية فى كل أرجائهـا ، ولم يمت رؤول سنة ٩٣٥ م إلا بعد أن مهد الطريق لخلفائه ليحكموا مملكة متحدة هادئة على الرغم من أنه لم يترك وريثا للعرش [٢] .

ولم يكن أخو رؤول أهلا للعرش الفرنسى فى هذه المرحلة ، الأمر الذى مهد الطريق أمام هيو الكبير الذى كان يمت لرؤول بمتانة النسب ، وهو ابن أمير نستريا وكونت باريس ، وكان إقطاعيا كبيرا وزوج إثيلد أخت الملك الإنجليزى إثلسان ، فضلا عن أنه كان يتميز بذكاء خارق وهمة عظيمة وكفاءة دبلوماسية عظيمة [٣] ، أغنته عن اللجوء للسلاح فى كثير من الأحيان ، ودل هيو الكبير على مهارته وذكائه حين رفض قبول التاج أو الإنتخاب ، لأنه أدرك بثاقب فكره أن الأرستقراطية الفرنسية ، ربما لن تمنحه هذه الفرصة حسدا وغيرة ، ولهذا أقنع كبار الأمراء والنبلاء بولائه لسلالة البيت الكارولنجى وبدعوته للويس (الرابع) بن شارل البسيط اللاجىء إلى إنجلترا ليتسلم تاجه على حين فضل هو أن يمارس السلطة من وراء حجاب فى هذه المرحلة على الأقل ريثما تتحسن الظروف وتتهيأ الفرصة [٤] .

---

(1) Hoyt and chodorow : op. cit. p 205

(2) Mahrenholtz : op. cit. p, 3764

(3) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 203

(4) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

وبعودة لويس الرابع بن شارل البسيط إلى فرنسا سنة ٩٣٦ م ، عادت الأسرة الكارولنجية من جديد إلي السلطة ، ولمدة تربو علي النصف قرن بقليل أى حتى سنة ٩٨٧ م ، ولو أن تسلسلها قطعته حوادث غير متوقعة أحيانا (١). وإذا كان شارل البسيط ضعيفا هشا قليل الحصافة والحكمة ، كان ابنه لويس الرابع فارسا ممتازا اتصف بالقوة والحزم والشهامة ، وعلي الرغم من أنه لم يحظ بكثير من التعليم أو الثقافة ، إلا أنه كان ذكيا نشيطاً مرنا شديدالصبر والمثابرة، وكلها صفات أهلته للتغلب علي مشاكل عصره والعقبات التى تنتظره في فرنسا ، هذا في الوقت الذى أمل فيه هيو الكبير فى ممارسة السلطة من خلف هذا الشاب مستنداً إلى تأييد خارجى (٢) ، إلا أن هيو الكبير سرعان ما اكتشف أنه أسرف فى التفاؤل ، وأن لويس الرابع لم يكن على شاكلة والده ، بل إنه سلك في سبيل ممارسته سلطته مسلكا حسنا دون عداء أو أحقاد. ولهذا اتخذ الصراع بينهما شكلا مستترا فى البداية ، ثم ما لبث أن أصبح سافرا وبحث كل منهما عن حلفاء لحسم هذا الصراع (٣).

فعلى حين عول هيو الكبير على محالفة أوتو الأول ملك ألمانيا بزواجه من أخت هذا الملك ، بعد اختياره ملكا فى آخن بواسطة كبار الأدواق والكونتات. وبتأييد من الكنيسة (٤) ، وبدأ هيو أيضا يتودد إلى كبار الأمراء والنبلاء

(1) Camb. Med. Hist. V. III, p 80

(2) Davis ; op. cit. pp. 215 — 19

Hoyt and chodorow : op. cit p. 203

(3) Davis : op. cit. pp. 215—16

Barrie Dobson : op. cit. pp. 136 — 7

(4) Widukind's Rerum Gestarum Saxonicarum, Libri Tres, ed Waitz in Davis : op. cit. pp 215 — 16

لاسيما منافسة القديم هربرت سيد فرماندوا ، إذا بلويس الرابع يتقرب إلى دوق برجنديا هنرى المعروف بالأسود ، وعقد معه اجتماعا سنة ٩٣٨ م، وجرى التفاهم بينهما ضد العدو المشترك هيو الكبير ، على حين هوى إلى لويس الرابع أمراء اللورين لإثبات ولائهم للبيت الكارولنجي . وفي غمرة هذه الأحداث لم يلتفت كل من هيو الكبير ولويس الرابع إلى الخطر الذى دهم شمبانيا و برجنديا سنة ٩٣٧ م من قبل المجريين ، الذين أحدثوا فى تلك الجهات الخراب والدمار ، وأمعنوا فى نهب الأديرة (١) .

ولقد اندلعت الحرب ضارية بين لويس الرابع وهيو الكبير ، واضطر لويس الرابع أن يجابه هيو الكبير وحلفه المتعاظم الذى ضم أوتو الأول الذى اتخذ هذا الموقف ردا على موقف لويس الرابع من أمراء اللورين ، وقبوله بالسيادة عليها ، على حين لم يكن أوتو الأول يسمح لأحد بتعكير صفو حكمه أو بث الفرقة فى الولايات أو المقاطعات الخاضعة له ، أو التى ينبغى أن تدخل فى نطاق حكم الألمان ويمتد إليها النفوذ الألمانى (٢) ، على حين ضم هذا الحلف أيضا هربرت سيد فرماندوا ودوق فلاندرز ووليم طويل السيف دوق نورمانديا ، وألف الجميع عصبة ضد ملك فرنسا لويس الرابع ، الذي لم يبق على الولاء له سوى هنرى الأسود ودوق برجنديا ، وكان على لويس الرابع أن يجابه الحرب الأهلية الداخلية وفى نفس الوقت يجابه العدوان الخارجى (٣)

---

(1) Hollister : Med. Europe, p 166

Hoyt and Chodorow : op. cit. p 199

(2) Barrie Dobson : op. cit. p. I35

(3) Hoyt and Chodorow ; op cit. p. 203, Davis : op. cit. p.169

اجتاح أوتو الأول الألمانى مقاطعة اللورين ، واستردها وسلمها لأحد أتباعه سنة ٩٣٩ م ، ونفذ فى العام التالى إلى شمبانيا وأجبر الأمراء الفرنسيين على تقديم فروض الطاعة والولاء ، ثم تتبع لويس الرابع — الذى تقهقر بسرعة تجاه برجنديا — ولحق أوتو بهنرى الأسود على ضفاف السين، وأجبره على الخضوع والتخلى عن حليفه لويس الرابع ، وعندئذ قفل راجعا إلى ألمانيا ظنا منه أنه بذلك قد شفى غلته ، وقضى على منافسه ومد نفوذه إلى تلك الجهات (١) . غير أن الأحداث أثبتت أنه كان مخطئا ، فقد ثبت لويس الرابع، وتحول الموقف لصالحه ابتداء من سنة ٩٤٢ م ، حين تدخل البابا ، وبذل وساطته لإنهاء هذا الصراع ، وهدد باللعنة على كل من يرفع السلاح فى وجه الملك لويس الرابع (٢) ، وفى نفس الوقت خفت حدة عداء أوتو الأول للويس الرابع ، وتمهدت قواعد التفاهم بينهما ، فالتقيا فى صيف سنة ٩٤٢ م ، بعد أن تزوج لويس من أخت أوتو الأول ، وأسهمت هذه الزيجة السياسية فى تخفيف روح العداء بينهما (٣) .

عاد الهدوء من جديد إلى ربوع فرنسا فى صيف سنة ٩٤٢ م ، وظلل السلام البلاد ، ومنح البابا حمايته الروحية للويس الرابع ، واعترف ملك ألمانيا بسلطة لويس فى فرنسا وهدأ الثوار ، وأخلد كبار الأمراء للسكينة ، وبدا أنه أصبح بوسع لويس الرابع أن يحكم مملكته فى أمان، كما أن انجابه لوريث للحكم سنة ٩٤١ م قد أرهص ببقاء البيت الكارولنجى فى الحكم لفترة أخرى (٤)، لولا أن هيو الكبير لم يكن قد سلم بعد أو دب اليأس فى نفسه ، فقد أضمر

(1) Hollister : op. cit. pp. 123 — 4

(٢) حاطوم : نفس المرجع السابق ص ٤٨٩

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203

الانتقام ، وأخذ يعد العدة لإشعال الفتنة من جـديد ، دون أن يترك الفرصة لغريمه لإظهار كفاءته ومواهبه ، فراح يبـــذر بذور الفتنة فى فرماندوا ونورماندیا وبعض الجهات الأخرى ، وسعى لضم أوتو الأول من جديد إلى صفه معتقدا أن هذا يعنيه مد نفوذه إلى فرنسا بأية طريقـة وبأى ثمن (١) ، غير أن أوتو أصم أذنيه عن تلك الدعـــوة بتأثير من أخته جربرج زوج لويس الرابع من ناحية ، ولاقتنـاعه بأن إثارة القلاقل فى المملكة الفرنجية لا يفيده فى شىء إن لم يضره من ناحية أخرى ، فربما حذت ألمانيا والأمراء الألمان حذو أقرانهم فى فرنسا ، فضلا عن انشغاله بمشروعات أهم فى هذه المرحلة (٢) . ولهـذا صمم على عـدم التدخل فى فرنسا ، ورفض مقـابلة هيو الكبير .

وعلى الرغم من نشاط هيو الـكبير فى هـذه المرحـلة ودأبه على إثارة الفتنة ، وتأكيد سلطته فى بعض المناطق الشرقية ، ليقطع أى معونة من قبـل ملك ألمانيا للويس الرابع ، إلا أنه ابتداء من سنة ٩٤٨ م أخذ الوضع يتبدل فى غير صالحه (٣) ، وساندت الكنيسة الفرنسية لويس الرابع ، وأنزلت اللعنة والحرمان على هيو الكبير لتدخله فى شئونها ووضع رجاله فى أهم وظائفها ، فاتخذت الكنيسة الفرنسية بذلك نفس الجـانب الذى وقفت فيه البـابوية من قبل . ولما ساءت أحوال هيو الكبير اضطر فى النهاية إلى بذل الطاعة للويس الرابع سنة ٩٥٠ م ، والتمس الصلح ، فأبرم الصلح بينهما ، وخاصـة وأنه لم يعد يؤمل فى أى حليف خارجى بعد أن رفض أوتو الأول التدخـل إلى

---

(1) Lyon, Rowen, Hamerow : A Hist. of western world, p. 192

(2) Davis : op. cit. pp. 216 — 17

(3) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 203

جانبه ، وشعل فى هذه الفترة بالذات بحملته فى إيطاليا سنة ٩٥١ م [١] ، لتبدأ مرحلة جديدة من الهدوء فى البلاد ، وإن لم يقض هذا الصلح تماما على مطامع هيو الكبير ، وتحفزه للوصـــول إلى الانفراد بالسلطة فى فرنسا . وظلت الأحوال هادئة حتى وفاة لويس الرابـع فى سبتمبر سنة ٩٥٤ م ، تاركا العرش الفرنجى لذريته ، وممهدا الوضع لبقاء البيت الكارولنجى فى الحـــكم [٢] ، ولم يثر أوتو الأول أية مشاكل أو يتطلع إلى المملكة الفرنسية بعـد وفاة لويس الرابـع وخاصة وأنه شغل فى تلك الفترة بالثورة التى فجرهـا أحـد أبنائه فى سوابيا . الذى ضم إليه بعض الأمراء الحانقين ولم يوقف تفاقم هـذه الثورة سوى موجة جديدة من غزوات المجربين المدمرة [٣] .

إعتلى لوثر بن لويس الرابـع العرش بعد والده ، على الرغم من أنه لم يكن قد تعدى الثالثة عشرة من عمره ، فقد أصر كبار الأمراء والأساقفة على انتخاب لوثر هذا وإظهار الولاء للبيت الكارولنجي ، والغريب أن هيو الـكبير لم يبد معارضة لانتخاب لوثر ملكا ، ولم يحاول أن ينتهز الفرصة ، ويثير المتـاعب فى وجه الملك الجديد [٤] ، ويبدو أنه أحس بدنو أجله فلم يشأ أن يعكر الصفو فى أواخر أيامه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لاستمـرار يأسـه من تلقى أية معونة من أوتو الذى لا زال منهمكا فى مشاغله الخاصـة ، لاسيما فى دفـــع

(1) Hollister : op. cit. p. 124
Barrie Dobson : op. cit. p. 137

(2) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

(3) Davis : op. cit. p. 218
Barrie Dobson : op. cit. pp. 134 — 5

(4) Hoyt and chodorow : op. cit. p. 203

المجريين الذين روعوا بلاده سنة ٩٥٥ م ، إذ نجح أوتو الأول فى إلحـــاق هزيمة كبيرة بهم فى ساحة لشفيلد Lechfeld ، حاز بفضلها شهرة ذائعـــة فى جميع الأوســـاط الأوربية ، واستحق أن يطلق عليه الراهب السكسونى ودوكنـد Widukind — الذى كتب تاريخ أوتو الأول وعنى بتدوين سيرته — منذ ذلك الوقت فصاعدا لقب « أوتو العظيم » (١) ، ولاستمرار يأس هيو الكبير من تلقى أية معونة خارجية لم يحاول أن يعارض فى اختيار لوثر الرابع ، وقد أحس بدنو أجله إذ توفى فعلا بعـد ذلك بأقل من عامين سنة ٩٥٦ م تاركا ذرية ضعافا ، لم يكن أحـدهم أهـلا للمطالبة بالعـرش فى هذه الظروف بالذات ، وكانوا ثلاثة أبناء : هيو الذى عـــرف بهيو كابيه ، وأوتو وهنرى ، وكانوا جميعا قاصرين وغـير قادرين على المطالبـة بالعرش حينئذ (٢) ، فى الوقت الذى عاد فيه أوتو العظيم ملك ألمانيا للانشغال بشئونه الخاصة فى إيطاليا حيث جرى تتويجه إمبراطورا فى روما على يد البـابا سنة ٩٦٢ م ، فلم يلتفت لغير ذلك من شئون فرنسا وما كان يجرى فيهـا (٣) .

وكان وصول أوتو العظيم إلى روما فى ينـــاير سنة ٩٦٢ م ، حيث كانت الاستعدادات قد جرت لتتويجه إمبراطورا ، وتم ذلك بعد يومين من وصوله إلى روما فى ٢ فبراير على يد البابا يوحنا الثانى عشر فى كنيسة بطرس

---

(1) Widukind's Rerum Gestorun Saxonicarum, Libri Tres, Ed waitz 1882 — in :

Davis : op. cit. p. 219

( ) Hoyt and chodorow : op, cit, pp. 203 — 4

(3) Hollister : op. cit. p. 124

بروما (١) .

إضطر لوثر أن يسير فى بداية حياته فى ركاب الملكيــة الألمانيــة ، ويقر بنوع من الانقياد لها ، فقد حضر المجلس الكبير المنعقد فى كولونيا تحت رئاسة أوتو العظيم سنة ٩٦٥ م ، ولكنه عاد فى أوائل سنة ٩٦٦ م فتزوج بنت ملك إيطاليا ، ليحدث نوعا من التوازن فى علاقاته الخارجيــة مــع كل من ألمانيــا وإيطاليا (٢) ، ودل لوثر على أنه كان على شاكلة والده إذ كان مثــله شجاعا صاحب عزم وتصميم ، معنيا بإعادة الجاه والعظمة إلى أسرته وعرشها ، مع حزم وحسم إحتاج إليهما الوضع فى تلك الظروف ، فضلا عن دهــاء ومكر يصل فى بعض الأحيان إلى حد الخداع ، وساعــدته الظروف فى السنوات التالية بوفاة الإمبراطور أوتو العظيم فى سنة ٩٧٣ م (٣) ، ولحق به برونو — أسقف كولونيا النشط — الذى كان معنيا بربط فرنسا بألمانيــا برباط أشبه برباط التبعية ، وعندئذ جاء رد الفعل عند لوثر ، الذى ما لبث أن أظهر همــة عظيمة حين قاد جيوشه ، واندفع نحو ألمانيا بعد أن قطــع العــلاقات معهــا ، وزحف نحو إكس لاشابل ، وسمح لجنوده بنهب القصر الإمبراطــورى ، ثم قفل راجعا إلى بلاده ، مقتنعا بأن عهد الانقياد لألمانيــا والتبعية لهــا قد ولى

---

(1) Gregorovius : Hist of the City of Rome in the Middle Ages, III, pp. 332—4 (trans. to Eng. by Hamilton. London 1895)

Mann : The Lives of the Popes in the Early middle Ages, IV, p. 248 (London — 1906 — I0)

(2) Lyon, Rowen, Hamerow : op. cit. p, 192

(3) Camb. Med. Hist. V. III, p. 203

Davis : op. cit, p. 227, Lyon, Rowen, Hamerow : op. cit. p, 192

وذهب إلى غير رجعة (١) .

دخلت العلاقات بين ألمانيا وفرنسا مرحلة حرجة ، بهذه الغـارة المفاجئة ، لأنه أصبح فى حكم المعروف أن يحاول أوتو الثانى ، الذى خلف والده أوتو العظيم ، أن يثأر لهذا العمل ، ويغسل هذا العار ، فقاد جيشه سنة ٩٧٨ م أى بعد نحو خمس سنوات من إغارة لوثر ، واجتاح رنسا واستولى على لايون ، ونودى بشارل اللورين ملكا — وكان أخا أصغر للوثر (٢) ، ثم تقدم أوتو الثانى مخترقا فرنسا حتى نهر السين ، واضطر لوثر للفرار ، وبرز فى هذه المرحلة هيو كابيه ابن هيو الكبير ، وبدأ يثبت أمام الألمان ، وأجبرهم على التراجع ، مكتفين بإحراق ضواحى باريس ، وكان آل كابيـه يؤمنون أنه من المهم قبل أن يحاول الملك الحصول على سلطته أو يشرع فى الحكم ، لابد أن يكون قويا بما يكفى لإجبار رعاياه على الطاعة الكاملة (٣) . ولهذا فقد حاول هيو كابيه أن يثبت فى هذه المناسبة قوة شكيمته وشدة بأسه ، تمهيدا لحيـازة السلط فى المملكة كلها ، وفى نفس الوقت أمد صمود هيو كابيـه الملك لوثر بفرصـة مواتية استطاع خلالها أن يكون جيشا وراء نهـر السين ليقف فى وجـه الألمان ، وبدأت الظروف تتبدل فى صـالح فرنسا فى هـذا الصراع (٤) ، فاضطر أوتو الثانى إلى العودة إلى بلاده فى خـريف سنة ٩٧٨ م ، وتشجـع لوثر فأخذ يلاحق الجيش الألمانى ، وظفر بمؤخرة الجيش ، فأبادهـا تماما ، ودخل أوتو الثانى فرانكفورت بعد أن تقلص عمله إلى مجرد إغارة مماثلة تماما

(1) Mahrenholtz : : op. cit. p. 3766

(٢) حاطوم : المرجع السابق ص ٤٩٢

(3) Davis : op cit. p. 209

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit p. 203

لما قام به لوثر ضد إكس لاشايل قبل ذلك بنحو خمس سنوات ، لا أكثر من ذلك ، ولم يجن أوتو الثانى ثمرة لهذه الأعمال الحربية ، بل كان عهده على حد ما وصفه المؤرخون مأساة لألمانيا وللشعب الألمانى (١) .

ويشير المؤرخون إلى أن الحرب التى بدأها لوثر ضد ألمانيا لم يكن لها أى مبرر ، اللهم إلا التخلص من شعور التبعية والانقياد ، ولم تكن لتسفر عن فائدة لكلا البلدين إن لم تتسبب فى إلحاق الضرر بها ، وفى زعزعة العرش الفرنسى تحت حكم الذرية الكارولنجية ، بإثارة الخلاف بين لوثر وشارل اللورين ، ولهذا فقد سعى لوثر إلى إنهاء الصراع بين البلدين ، وأبدى استعداده للقاء أوتو الثانى في أى مكان لحسم الخلاف ، على الرغم من أن أوتو الثانى لم يكن فى تلك الظروف مهتما بشئون فرنسا وإنما كان معنيا بتأكيد سيادته الإمبراطورية فى روما وفى إيطاليا كلها شمالها وجنوبها (٢) . بدأ لوثر بارسال وفد إلى ألمانيا لبحث هذا الأمر ، فجرى الاتفاق على لقاء أوتو الثانى ولوثر فى إيطاليا فى يوليو سنة ٩٨٠ م ، حيث تعاهد الملكان على الصداقة والتحالف ونبذ الخلافات وإعادة السلام إلى ربوع البلاد (٣) . وتبع هذه الخطوة إشراك لوثر لإبنه لويس (الخامس) معه فى الحكم ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره فى الوقت الذى كان فيه نفوذ هيو كابيه — الإبن البكر لهيو الكبير — فى ازدياد وتعاظم ، بعد أن حصل على شعبية كبيرة بدفاعه المجيد عن باريس أمام الألمان سنة ٩٧٨ م ، فضلا عن ورعه وتقواه ،

---

(1) Davis : op. cit. pp. 227 — 8

(2) Barrie Dobson ; op. cit. p. 1?8

(3) Mahrenholtz : op. cit. p 37..6

وحبه لرجال الدين ، الذى ضمن له تأييد الكنيسة الفرنسية (١) :

ويبدو أن لوثر أحس بازدياد نفوذ هيو كابيه وتعاظم شعبيته ، فحاول حجبه وتقليل أهميته ، فأبعده عن المفاوضات التى جرت بينه وبين إمبراطور ألمانيا ، فأحنق بذلك هيو كابيه ، وتسبب فى إغاظته ، الأمر الذى دفع هذا إلى السفر إلى إيطاليا للقاء أوتو الثانى فى أوائل عام ٩٨١ م ، أثناء قيام أوتو الثانى بإعادة غزو جنوب إيطاليا (٢) ، فاستقبله هذا استقبالا وديا ، أدى إلى حنق لوثر وكاد يشعل نار الحرب من جديد بين ألمانيا وفرنسا ، إذ فكر لوثر فى إعلان الحرب على أوتو الثانى لولا أن قدم كبار مساعديه النصح له بالتريث والصبر ، وضغطت عليه الحاشية لضبط النفس ، وأعقب ذلك وفاة أوتو الثانى فى أوائل عام ٩٨٣ (٣) ، تاركا طفلا صغيرا هو أوتو الثالث ، الذى لم يكن يتجاوز عمره ثلاث سنوات ، فوجدها لوثر فرصة لإشعال الفتنة من جديد مع ألمانيا ، وصورت له خيالاته إمكان الوصاية على الطفل الصغير الذي كان تحت وصاية والدته الإمبراطورة ثيوفانو الإغريقية الأصل (٤) ، غير أن الحلم لم يتحقق لوقوف هنرى ودوق بافاريا القوي فى مواجهة لوثر ، فى الوقت الذى تربص فيه هيو كابيه بلوثر ، منتهزاً فرصة انشغاله بمحاولة تحقيق أحلامه وأوهامه ، إذ فجر هيو كابيه الثورة فى وجه لوثر ، وأنزل الهزيمة بقواته فى الألزاس ، اضطر على أثرها لوثر إلى التراجع ثم التقى بهيو كابيه فى مواقع أخرى ، انتهت بعقد الصلح بينهما سنة ٩٨٥ م ،

---

(1) Camb. Med. Hist. V. III, p. 80 — 3

(2) Davis : op cit. p. 228, Barrie Dobson : op. cit. p. 138

(3) Davis : op. cit. p. 228

(4) Barrie Dobson : op cit p 138

ثم تـوفى لوثر فى العـام التـالى سنة ٩٨٦ ، تاركا العـرش لابنـه لويس الخامس [١].

وحين اعتلى لويس الخامس العرش كان فى التاسعة عشرة من عمـره ، ولم تصادفه متاعب فى البداية من قبل هيو كابيه ، الذى فضل الصمت لاعتقـاده فيما يبدو أن ولاء الناس للأسرة الكارولنجية أقـوى من رغبته هو فى هـذا العرش ، وحماسته للفوز بالسلطة ، فضلا عما بدا من حروب أهلية وفوضى فى ألمانيا عقب وفاة أوتو الثانى واعتلاء أوتو الثالث العرش الألمانى [٢] ، ولم يكن لويس الخامس على شاكلة والده أو جده ، ولم يكن له ما كان لهما من همة ونشاط وحزم وحسم واهتمام بإكساب الملـكية الفرنجية المهـابة والتعظيم بل أضاف إلى ضعف الكارولنجيين فى هذه الحقبة [٣] ، إذ كان متردداً ضعيفاً ، أثار استهزاء الناس وسخريتهم لا سيما حين تزوج ، قبـل ذلك بسنوات وعلى عهد والده ، من أرملة أمير أكويتين التى كانت تكبره سناً ، ثم ما لبث أن دب الخلاف بينهما فهجرها ، فتزوجت بعده من كونت آرل، بعـد أن تسببت فى إحراجه وإثارة السخرية منه ، ولم يدم حـــكم لويس الخامس سوى سنة واحدة (٩٨٦ — ٩٨٧ م) [٤] ، لم تجر فيها أمور ذات أهمية اللهم إلا إظهار لويس الخامس النفور من ألمانيا وإساءة العلاقة مع الكنيسة الأمر الذى أنذر بشر مستطير ، لولا أن توفى لويس الخامس فجأة سنة ٩٨٧ م [٥] .

---

(1) Camb. Med. Hist. V. III, pp 80 — 7

(2) Davis : op cit. p. 248

(3) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 204

(4) Encyclopaedia Britannica (Ed. 1952), Caper. V., IV. p. 789

(5) Mahrenboltz : op. cit. p. 3766

ولم يكن هناك ممثل للبيت الكارولنجى ، بعد لويس الخامس سوى عمه شارل دوق اللورين ، ولم يكن محبباً إلى كبار النبلاء ، وجموع الناس بسبب تكريسه الإنفصال فى اللورين وأطاعه فى اللورين العليا ، وخدمته لملك ألمانيا ودخوله فى طاعته ، فى الوقت الذى كرست فيه ألمانيا نفسها على عهد أوتو الثالث للظهور بمظهر الإمبراطورية الرومانية الوراثة لتراث الإمبراطورية القديمة من ناحية ، وإمبراطورية شارلمان من ناحية أخرى (١) . ولهذا تطلع هيو كابيه إلى العرش ، وشعر أن الوقت قد حان للفوز بثمرة أعماله وإخلاصه وساندته شهرته وأعماله الطيبه ودفاعه المجيد عن فرنسا ، وحبه لرجال الكنيسة وورعه ورجاحة عقله ، فقد انبرى أحد كبار رجال الدين يدلل على أحقية هيو كابيه فى العرش قائلا : « إن العرش لا يكتسب بحق وراثى وإنما يجب أن يوضع على رأس المملكة من لا يتميز بنبله فحسب ، بل أيضا بصفات عقله ، أى من يوصى الشرف به وتدعمه مروءته وشهامته » (٢) ، وأيدت جموع الناس اختيار هيو كابيه للعرش الفرنجى ، وجرى تتويجه ملكا فى نفس العام سنة ٩٧٨ م ، وباركته الكنيسة الفرنسية (٣) .

وهكذا انتهت الأسرة الكارولنجية ، بعد عمر طويل فى حكم المملكة ، وكان يمكن أن تستمر لفترة أخرى ، لولا وفاة لويس الخامس الفجائية وشخصية عمه شارل دوق اللورين غير المحببة . ولهذا جاءت سنة ٩٨٧ م حداً فاصلا فى تاريخ المملكة الفرنجية . حقيقة لم يكن سلطة هذه المالكية تامة ، إلا فى جزء من فرنسا ، بينما مارست دوقيات كبيرة نوعا من الحكم الذاتى ، إلا أن

---

(1) Epistolae Gerbert, Ed, J. Havet, 1389, p. 231 Chronicon Novaliciene (trans. Davis — in C. M. H, 3, p. 213 — 14)

(٢) أنظر حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربة ج ١ ص ٤٩٠ عن المؤرخ ريشيه

(3) Camb. Med. Hist V. III, p. 80

الولاء لهذه الأسرة ضمن لها البقاء ، فى أوقات اعتقد الناس فيهـا باستحـالة استمرارها والدليل على ذلك ، انتقال العـرش من لويس الرابع إلى لوثر ، ومن لوثر إلى لويس الخامس ، فى الوقت الذى تطلع فيه هيو الكبير وهيـو كابيه إلى العرش، وكان كل منهما يمثل دوراً أشبه بدور دوق الفرنجة ورئيس البلاط ، فى أوائل عهد الأسرة الكارولنجية فى فرنسا فى مستهل القرن الثـامن الميلادى[١] ، بينما مضت ألمانيا والجـــزء الشرقى من إمبراطورية الفرنجة فى تكريس كيانها وذاتيتها ، وإقامة إمبراطورية تحمل سمات الإمبراطورية التى أقامها شارلمان، بل بدأت على عهد أوتو الثالث تعتقد أنها إمبراطوريةالرومان قاطبة ووارثة الإمبراطوريةالرومانية القديمة، فقد شعر أوتو الثالث أنه أكثر رومانية من والده وجده ، لكون أمه ثيوفانو أمـيرة إغريقية ، ومن سلالة بيزنطية — كما أشار إلى ذلك الكتاب القدامى ونوهوا به [٢] .

(1) Mahrenh ltz ; op. cit. pp. 3766 — 8

(2) Epistolae Geberti, Ed. J. Havet, 1889, p. 237
R. H. C. Davis ; op. cit. p. 229

الباب الثانى

الدولة الأموية فى أسبانيا

الفصل الثالث : عصر الامارة ٧٥٥ - ٩١٢ م = ١٣٨ هـ - ٣٠٠ هـ

الفصل الرابع : عصر الخلافة ٩١٢ - ٩٧٦ م = ٣٠٠ هـ - ٣٦٦ هـ

الفصل الثالث

عصر الإمارة الأموية فى أسبانيا ٧٥٥ م – ٩١٢ م

١٣٨ هـ – ٣٠٠ هـ

بعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية فى شمال إفريقية ، فى مطلع القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) ، ودخل البربر فى الإسلام وصالح إسلامهم ، وأظهروا حماسة طاغية للفتح والجهاد ، عبر المسلمون المضيق سنة ٧١١ م ، وانسابوا فى أسبانيا فاتحين ، فنجحوا فى القضاء على دولة القوط الغربيين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وشكل البربر الجانب الأعظم من الجيوش التى استولت على أسبانيا ، ولم يمض وقت طويل حتى ضعفت الخلافة الأموية فى الشرق ، وقضى عليها العباسيون وقتلوا آخر خلفائها مروان بن محمد سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) .

غير أنه قدر للدولة الأموية أن تبعث من جديد ويمتد عهدها فى إقليم ناء بعيد في أقصى الغرب فى بلاد الأندلس أو أسبانيا الإسلامية ، حيث نجح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذى لقب بالداخل ، فى الفرار من مذابح العباسيين إلى المغرب [١] . ومنها إلى الأندلس بعد أن نجح فى نشر الدعوة الأموية فيها ، ومهد الطريق لبعث الدولة الأموية هناك [٢] ، وهوى إليه جند

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٧ (تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد — بيروت سنة ١٩٤٩ م)

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٠ (ط بولاق)

(٢) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ (كولان وليفى بروفنسال) .

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٩

فلسطين وجند الأردن ، وكثير من زعماء القبائل وجموع كبيرة من الأمـويين في الأندلس وأهل الشام والناقمين على حكم يوسف بن عبـد الرحمن الفهري ، الذى كان يحكم الأندلس كإمارة مستقلة (١) ، فى ظل ولاء إسمى للخـلافة العباسية الناشئة ، وتقدم عبد الرحمن إلى اشبيليـة وجنـوب الأندلس (٢) تسبقه دعوته إلى جنوب البلاد وغربها : ثم تقـدم إلى قرطبـة فى أوائل سنة ٧٥٦ م (١٣٨ هـ) ، حيث ألحق الهزيمة بيوسف بن عبد الرحمن الفهـــرى ، وأجبره على الفرار إلى طليطلة ، وانتهى الأمر بمقتله على يد بعض أصحابه ، ودخل عبد الرحمن قرطبة دون مقاومة تذكر ، وبويع بالإمارة فى مايـو سنة ٧٥٦ م (٣) .

لم يكن دخول عبد الرحمن قرطبة ، ومبايعته بالإمارة فيها نهاية لمتاعبه وتتويجا لكفاحه، بقدر ما كان بداية لعهد من النضال والكفاح لتأكيد سلطته، وإحياء دولة الأمويين بالأندلس موحدة متماسكة أمام الأخطار المحدقة بها، فقد كانت الأندلس فى ذلك الوقت نهباً للفتن والثورات (٤) ، ما بين خصومـة حادة بين المضرية واليمنية ، إلى تطاحن القبائل من أجل مصالحها الذاتية ، على حساب تماسك الإمارة ووحدتها ، إلى فتن البربر الذين مثلوا أحد العناصر القوية فى

---

(1) El — Hajji : And. Dip. Rel. p. 41

Lane - poole : The Moors in Spain, p. 61 (Beirut 1967)

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٥٠ — ٥١ .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٧

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، ابن عذارى: البيان ج ٢ ص ٤٨ — ٤٩

(٤) المقرى : نفسه ج ١ ص ٣٠٨ ، ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٥١ — ٥٣

ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٣٣ ، ص ٥٠ (القسم المطبوع بعناية دوزى)

البلاد يبغضهم الدفين للعرب ، فضلا عن جيوب المقاومة النصرانية في الشمال والشمال الغربي من البلاد ، تنتظر الفرصة للوثوب والاسترداد (١) ، إلى تربص مملكة الفرنجة من وراء البرنيه رغبة في تمزيق المسلمين في الأندلس، وانتزاع أطراف الإمارة منهم وتصفية مناطق نفوذهم قرب جبال البرنية (البرتات) ، بالإضافة إلى خطر العباسيين، الذين لم يسلموا بعد بضياع هذا الإقليم الهام ، وتربصهم بعبد الرحمن انتظاراً لفرصة مواتية لطرده من الأندلس (٢) .

وكان على عبد الرحمن أن يواجه ذلك كله بالصبر والمثابرة والعزم، وعلى الرغم من أنه لم يكن يتجاوز السادسة والعشرين من عمره حين دخل قرطبة ، إلا أن عزيمة هذا الشاب كانت أقوى من الخطوب وأصلب من المحن ، فقد قضى بقية عمرة في نضال مستمر (٣) حتى نجح في النهاية في إرساء دعائم ملكه ، وبعث الدولة الأموية في ذلك القطر النائي ، لتبقى وتزدهر ردحا طويلا من الزمن .

فلم يكد عبد الرحمن يستقر في قرطبة حتى تبعه العلاء بن مغيث من إفريقية سنة ٧٦٣ م (١٤٦ هـ) رافعا العلم العباسي الأسود في الأندلس مستقطبا العناصر الثائرة والكارهة للحكم الأموي في البلاد ، وكان الخليفة العباسي المنصور قد عين العلاء واليا على الأندلس ، غير أن عبد الرحمن نجح في إنزال الهزيمة بالعباسيين ، والقضاء على أملهم في طرده منها ، وجرى قطع رأس

(1) EL - Hajji : op. cit. pp. 39 — 46

(2) Lévi - Provençal : Histoire de L'Lspagne Musulmane, I, p. 121

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٣٥ (ليدن) ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٨ (ليفي بروفنسال)

العلاء ، وأمر عبد الرحمن بمن أخذ رأس العلاء وحشاه بالملح والكافور ، لحفظه ثم وضعه فى قفة مع السجل واللواء العباسى ، وأرسله مع بعض الحجاج الأندلسيين ، فوضع أمام سرادق المنصور أثناء أدائه الحج ، فلما رأى المنصور ذلك ارتاع كثيرا وقال : « ما فى هذا الشيطان (يقصد عبد الرحمن) مطمع فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحرا » (١) . ويذكر المؤرخ الشهير دوزى Dozy أن نجاح عبد الرحمن فى القضاء على هذه العقبة يعد أمرا بالغ الأهمية فانها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل تحت لواء واحد (٢) . ويشير المؤرخون إلى أن أبا جعفر المنصور كان شديد الإعجاب بما أنجزه عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ، وهو الذى أطلق عليه لقب « صقر قريش » لأنه : « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلدا عجميا منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين ، ونال ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته » (٣) .

ثم التفت عبد الرحمن إلى البربر ، فقضى نحو عشر سنوات فى إخضاعهم ،

( ) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٥٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١١
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ وانظر كذلك : العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٥ ،
Scott : Hist. of the Moorish Empire in Europe, I p. 309 (London 1904)

(2) Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, V. 1, p. 234
وانظر كذلك : محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ١ ص ١٦٣

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٩ — ١٠

والقضاء على ثوراتهم ، واستنفذ ذلك جانبا كبيرا من جهوده (١) ، ونجح في النهاية في كسر شوكتهم وقتل زعمائهم بالحرب تارة والخديعة تارة أخرى (٢) كما نجح بفضل دهائه وسياسته في طحن اليمانية ، وأعمل فيهم السيف حتى بلغ جملة من قتله منهم نحو ثلاثين ألفا وشتت الباقي منهم (٣) في الوقت الذي فشل فيه شارلمان في حملته على الأندلس ، ولحقت بجيشه كارثة في ممر رونسفال كما سوف نفصل (٤) . كما التفت عبد الرحمن للدويلات المسيحية في الشمال ، وخاصة البلاد الواقعة بين بلاد البشنكس وجبال كانتابريا على ضفاف نهر الإبرو ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على مشيرى الشعب في تلك الأنحاء (٥) ، ولم يهمل الجهات النصرانية المجاورة ، فتعرضت لضرباته وأجبرت على الانصياع .

وفي نفس الوقت أخذ سكان أسبانيا المسيحيون يتحولون في ظل التسامح الإسلامي إلى الإسلام رويداً رويداً ، بعد أن كانوا يشكلون عاملا خطيرا في إثارة القلاقل أمام عبد الرحمن ، فجاء تحول الغالبية العظمى منهم إلى الإسلام وتحمسهم له وتعصبهم له ، عاملا هاما في توطيد سلطة عبد الرحمن في أسبانيا (٦).

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٢٤ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٣

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٥٦ (بيروت سنة ١٩٦٥)

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣١ — ٣٢ .

(4) Camb Med. Hist V III, p 413

(٥) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٥٦ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٩ ،
Leivi · Provençal ; op. cit I. p. 126

(6. Lane - poole ; The Moors in Spain, pp. 65 — 6

وبعد نحو ثلاثة وثلاثين عاما من الكفاح المستمر ، توفى عبد الرحمن فى أكتوبر سنة ٧٨٧ م (ربيع الثانى سنة ١٧٢ هـ) ، تاركا الحكم لابنه هشام الأول(١) .

وكان هشام الأول الرضا ، الذى خلف أباه عبد الرحمن ، عاقلا وافر الشجاعة والحزم متواضعا عادلا قرب الفقهاء ورجال الدين ، وأجزل لهم العطاء ، وحاول التشبه بالخليفة عمر بن عبد العزيز فى عدله وتقواه . وكان حين ولى الإمارة فى الثالثة والثلاثين من عمره ، ولم يكن أكبر إخوته بل خصه والده بالولاية ، لما توسمه فيه من النجابة والنبل وحسن الصفات (٢) ، فكان هذا الاختيار سببا فيما تعرض له هشام من ثورات أخوية : سليمان وعبد الله ، غير أن هشاما استطاع أن يخمد هذه الفتنة ، وأن يجبرهما على طلب الأمان ، وعفى عنهما وسمح لهما بترك الأندلس والعبور إلى المغرب حيث أقاما بالمغرب ، وتخلص هشام بذلك من خطر هدد ولايته (سنة ٧٩٠ م = ١٧٤ هـ) (٣) .

وواجهت هشاما أيضا ثورات فى شمال البلاد ، إذ أشعل سعيد بن الحسين الأنصارى الفتنة فى طرطوشة والتف حوله جموع من اليمنية (٤) ، وطرح والى برشلونة الطاعة واستولى على سرقسطة ووشقة . غير أن هشاما أثبت أنه

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢١٠ ، ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٥٨
المراكشى : المعجب ص ٩ ، ابن الأثير : نفسه ج ٦ ص ٣٧

(٢) راجع ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٢ (مصر سنة ١٩٢٨)
ابن الاثير : الكامل ج ٦ ص ١٣٣ ، عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٠
ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦

(٣) انظر ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٦٢ ، ٦٤

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤

لا يقل همة عن والده فبعث بجيوشه إلى الشمال ، نجحت فى إخمــاد ثورة طرطوشة ، ودخلت سرقسطة بعد أن قتلت واليها الثائر ، وأنهى هشام بذلك ثورات الجهات الشمالية (١) . وفى نفس الوقت انتهز نصارى الشمال الفرصة لمحاولة العبث والعدوان كلما أحسوا بانشغال حكومة قرطبة عن حماية الأطراف غير أن هشاما سارع بمجرد انتهائه من القضاء على الفتنة الداخلية بإرســال جيوشه إلى الشمال، فحارب الأسبان فى ولاية اشتوريش فى شمال غرب أسبانيا ، وكان لهذه الولاية جبهتان مع الحدود الإسلامية ، جبهة شرقيــة وهي منطقــة القلاع Castellas التى صارت قشتالة فيما بعد ، وجبهة غربيــة وهي منطقة غاليسيا أو جليقيه (٢) . فاجتاح بلادهم ومزقهم شر ممزق هم وحلفاؤهم من البشكنس (٣) . ولم يخلد البربر أيضا للسكينة في عهد هشام ، إذ أشعلوا نار الفتنة من جديد سنة ٧٩٤ م (١٧٨ ه) ، فلم يتوان هشام عن إرسال حملة إلى منطقة رندة مركز تجمعهم نجحت الحملة فى إخمــاد ثورتهم ، وأبادت جموعا كثيرة منهم ، وخربت بلادهم وشتتت شمل الكثيرين منهم وقضى هشام بذلك على هذا الخطر (٤).

وهكذا نجح هشام فى كفالة الإمن والاستقرار فى الإمارة . فكان عهده زاهرا وافر الرخاء ، وكان لسياسته وعدله وتسامحه أثر فى تحول كثير من النصارى إلى الإسلام ، لاسيما بعد أن جعل لغة التدريس فى معاهد النصارى

(1) El - Hajji : And. Dip. Rel. pp. 42 — 3
Lévi - Provençal ; op. cit. I, pp 142 — 3

(٢) احمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٩

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٧٢ ، وابن الأثير : نفسه ج ٦ ص ٤٨

(4) Lane - poole : The Moors in Spain, p . 71

واليهود هي العربية ، فكان ذلك سببا فى بث روح التفاهم والوئام بين المسلمين والنصارى وغيرهم ، وكان له أكبر الأثر فى اعتنـــاق الكثير منهم الدين الإسلامى (١) . ولقد قرب هشام الفقهاء ورجال الدين وأكرمهم ، وأطلق أيديهم أحيانا فى السياسة ، حتى غدوا خطرا على الدولة ، وعلى رأسهم يحيي بن يحيي الليثى ، الذى انتهز الفرصة ووجد فى تقوى هشام وورعه غفلة يمكن أن يستغلها للحصول لهذه الفئة من رجال الدين على أعلى المراتب فى الدولة ، وإذا لم يبرز خطر الفقهاء على عهد هشام بشكل سافر ، فان ذلك الخطر ما لبث أن ظهر بصورة واضحة على عهد خليفته الحكم الأول (٢) . وتوفى هشام سنة ٧٩٦ م (١٨٠ هـ) ، وهو فى الأربعين من عمره بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام .

خلف هشاما ولده الحكم الربضى فى الإمارة (٧٩٦ — ٨٢٢ م = ١٨٠ هـ — ٢٠٦ هـ) ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره ، وعلى عكس والده كان طاغية شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، لكنه مع ذلك كان شجاعا حازما ، ينزع أيضا إلى الإنصاف والعدالة (٣) . كما كان مؤثرا للذات الحياة ، مبالغا في حياة الترف والتنعم ، وكان مرحا مولعا بالصيد والقنص وحفلات الرقص والغناء ، ومجالسة الشعراء والندماء ، حتى شابهت قرطبة فى

(1) Scott : op. cit. 1, p. 433

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١١ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٤ ، Dozy : op. cit. 1, 288

(٤) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ١٢٥ (١٨٦٧)

وأنظر كذلك : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٢٣٠

عصره مدينة بغداد فى الشرق (١) ، الأمر الذى أثار حفيظة الفقهاء ، بعد أن أهملهم الحكم وفضل علي مجالسهم مجالس الندماء والشعراء، ويبدو أن الحكم تعمد ذلك ليحد من نفوذهم ، الذى استفحل علي عهد والده (٢) ، محاولا إبعادهم عن التدخل فى السياسة وشئون الدولة، فراحوا يعرضون به وبسياسته ويحونه فوق المنابر ، ويحاولون الإساءة إليه بين الرعية ، ووجدوا استجابة بين البربر ومسلمى الأسبان أو المولدين ، وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات أسبانيات ونشأوا علي الإسلام ، فهم إذن خليط من دم أهل البلاد الأصليين ومن دم العرب والبربر الفاتحين ، وكانوا علي عهد أمراء بنى أمية يكونون الكثرة الغالبة من السكان (٣) . وقد اشتد سخطهم علي العرب لاستئثارهم بالسلطة ، ولما كان فيهم من كبرياء (٤) واستغل الفقهاء هذه الروح فدبروا مؤامرة لخلع الحكم سنة ٨٠٥ م (١٨٩ ه) ، غير أنها اكتشفت ، فبادر الحكم بالقبض على المتآمرين ، وأعدم منهم اثنين وسبعين رجلا ، واستطاع البعض الآخر الفرار ، وكان من جملة الذين أعدمهم بعض أعمامه ، صلبهم تجاه القصر ، وأظهر القسوة فى قتلهم مما كان سببا فى إحداث الشغب والثورة بين الناس فى العاصمة ، إلا أن الحكم سحق الهياج دون رأفة وأخمد أوار الفتنة (٥) .

---

(١) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٧١

(2) Jackson : The Making of Medieval Spain, p. 30

(٣) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٧ ، ص ١٢٨

(4) Lévi - provençal ; op. cit 1, pp. 140 — 1
Lewis : op. cit. pp. 122 — 3

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٨٨ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧١

ولم يخل الأمر أيضا عن ثورات داخلية ضد الحكم ، إذ اندلعت الثورات في الثغور الشمالية لاسيما سرقسطة ووشقة ولارده وغيرها [١] ، وأذكي نيران هذه الفتنة عبد الله بن عبد الرحمن ضد ابن أخيه الحكم ، بعد أن قبع فترة فى بلاد المغرب، يترقب ويتحين الفرصة حتى واتت فتقدم إلى الشمال وأذكى نار الفتنة واستعان بالفرنج - كما سوف نفصل فى الفصل التالى - لكن الحكم استطاع بعد جهد جهيد ، إخماد هذه الثورة ، واسترد الحكم سلطانه علي الثغور الشمالية وأجبر الفرنج علي الانسحاب إلى ما وراء البرانس [٢] . وفى نفس الوقت أشعل عمه الآخر سليمان بن عبد الرحمن الفتنة ، وضم إليه جموعا من البربر وانحاز إليه أخوه عبد الله بعد فشله فى الشمال ، وسار الجميع نحو قرطبة . غير أن الحكم استطاع أن ينزل بالثوار الهزيمة وقبض علي عمه سليمان سنة ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) ، وأمر بإعدامه فى العام التالى ، والتمس عمه الآخر عبد الله الصفح فعفا عنه الحكم وألزمه الإقامة فى بلنسية وأجرى عليه الأرزاق [٣] .

كما اندلعت الثورة فى المدن الكبرى فى ماردة وفى باجة وأشبونة وفى طليطلة ، وتلاحقت ثورات طليطلة يغذيها اندفاع المولدين والنصارى فى مناوأة حكومة قرطبة ، وانضمام جموع البربر إليهم ، ولهذا بذل الحكم جهودا مضنية للقضاء على هذه الثورات واستطاع أن يخمد الفتنة فى ماردة ، ثم

---

(1) Schmitz : Enc. Isl art " Al - Haham "

(٢) ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس — مخطوطة — لوحة ٩

عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٢ ، شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٩ .

El - Hajji : And. Dip. Rel pp. 149 — 50

(٣) ابن حيان : نفسه لوحة ٩٠ ، عنان : نفسه ج ٢ ص ٢٢٢

التفت إلى طليطلة سنة ١٩١ م (٨٠٧ م) ، واستطاع بالحيلة والخداع أن يدبر مؤامرة أطاح فيها بوجهاء المدينة دفعة واحدة ، وهلك فى تلك المؤامرة عدد كبير من وجهاء المدينة وأعيانها ، فتجردت المدينة من زعماتها ، وخمدت روح الثورة فيها ، وأخلدت المدينة إلى السكينة (١) . وفى السنوات الأخيرة من عهد الحكم عاد نصارى الشمال إلى العبث بالأراضى الإسلامية المتاخمة لهم ، فأرسل الحكم حملة سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) ، هاجمت جليقية (غاليسيا) ، وأنزلت هزيمة كبيرة بالنصارى فيها ، وقتلت عددا كبيرا منهم، وأسرت عددا آخر من أمرائهم ومبرزيهم ، فلجأ النصارى إلى الجهات الوعرة هربا من سيوف المسلمين ، وعادت الحملة إلى قرطبة ظافرة (٢) .

لكن أخطر ما صادف الحكم فى سنواته الأخيرة الثورة التى اندلعت فى قرطبة ، والتى أذكاها المولدون من أهلها وجمع من الفقهاء ، وبعض الرعاع ، الذين طحنتهم الضائقة الاقتصادية ، واشتعلت الثورة سنة ٨١٨ م (٢٠٢ هـ) ، في الربض الجنوبى لقرطبة (٣) ، على الناحية الأخرى من نهر الوادى الكبير ، وهو حى آهل بالسكان امتد من ضفة النهر جنوبا حتى بلدة شقندة Secunda (٤) ، واقتحم العامة فناء قصر الحكم غير أن قوات الحكم نجحت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٩٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٦ — ١٢٧ ؛

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٦ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٥

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٣٩ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٥ — ٧٧
ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٩٨ — ٣٠٠ (وبعضها فى أحداث سنة ١٩٨ هـ) ؛

(٤) العبادى : نفس المرجع السابق ص ١٣٠ ، وأنظر أيضا :
Dozy : Musulmans d' Espagne, II, p. 353

فى دفع الثوار إلى الوراء ، واقتحام الضاحية الثائرة ، وجرى اضرام النار فى بعض أنحائها ، وحصدت سيوف الجند رقاب الثوار بعد أن طوقوهم فى حيهم وطاردوهم فى كل مكان لجأوا إليه ، وأمر الحكم بصلب نحو ثلاثمائة رجل من الثوار تجاه القصر ، وأتبع ذلك بالأمر بمسح بيوت ومعالم الضاحية الثائرة [١]، حيث جرى هدم المنازل ومسح المعـــالم وحرث الأرض وزراعتها وتشريد الألوف من أهل ذلك الحى دون مأوى ، فاتجه البعض ناحية طليطلة، وفضل البعض الآخر العبور إلى المغرب ، وطلب الحكم إلى سكان الحى الثائر أن يخرجوا من أسبانيا نهائياً فى مهلة قدرها ثلاثة أيام ، وقرر أن يستأنف صلب من يبقى بعد انتهاء المهلة ، فجمع السكان ما استطاعوا جمعه من أموالهم وحاجياتهم وحملوا أطفالهم ونساءهم ، وقصدوا شاطىء البحر فركبوا إلى مصر [٢] ؛ وكان عددهم نحو خمسة عشر ألفاً من الأندلسيين ، وهـــؤلاء هم الذين نزلوا بالاسكندرية ، وشاركوا فى الحـــرب الأهلية ، التى أضرمت فى عصر الخليفـــة العباسى المأمون ، حتى قدم عبد الله بن طاهر من قبل المأمون أميراً على مصر ، فصالحه الأندالسيون واتجهوا إلى كريت تحت زعامة أبى حفص عمر بن عيسى البلوطى ، ففتحوها واستقروا بها سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) [٣]، وأسسوا بهـــا إمارة صغيرة استمرت نحو قرن وثلث حتى استعـــاد البيزنطيون الجزيرة سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، بقيادة القائد ذائع الصيت نقفور فوقاس قائد الإمبراطور

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٦ — ٧٧

(٢) الكندى : تاريخ الولاة والقضاة ص ١٩٣ ،

Bury : Eastern Roman Empire, p. 287

وفازيلييف : العرب والروم ص ٥٢ — ٥٣

(3) Bury : op. cit. p. 288, ، فازيلييف : العرب والروم ص ٥٥ — ٥٦

رومانوس الثانى فى ذلك الوقت [١].

وليس من شك فى أن ثورة الربض كانت حركة شعبية عامة شارك فيها رجال الدين والفقهاء والشعراء ، وقام بها العامة ومعظمهم من المولدين ، لكنها افتقرت إلى الزعامة ، وحسن التنظيم فانتهت إلى ما انتهت إليه ، ويفسر ذلك اهتزاز الحكم كثيرا أمام هذه الثورة وإخمادها بمنتهى الشدة والقسوة ، لأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من الإطاحة بحكمه ، ومرض الحكم بعدها وطال به المرض عدة سنوات ، فأناب عنه ابنه الأكبر عبد الرحمن ، وأخذ له البيعة قبل وفاته ثم ما لبث أن جاز الحكم إلى ربه فى مايو سنة ٨٢٢ أواخر سنة ٢٠٦ هـ [٢].

كان عبد الرحمن بن الحكم فى الحادية والثلاثين من عمره ، حينما ولى الإمارة بعد والده (٨٢٢ — ٨٥٢ م = ٢٠٦ هـ — ٢٣٨ هـ) ، وعرف بعبد الرحمن الثانى أو الأوسط ، لأنه ثانى ثلاثة سموا بهذا الاسم [٣] ، وقد اهتم والده بإعداده للحكم ، وأنابه عنه أثناء مرضه ، وكان قد عنى بتربيته وتثقيفه منذ الصغر ، فدرس الأدب والحديث والفقه ، وكان حكيم مستنيرا معنياً بالنواحى الثقافية والعلمية محاولا محاكاة بغداد فى عظمتها العلمية والأدبية [٤] ، كما كان عظيم الكفاية وافر الخبرة بشئون الحرب والإدارة يحسن اختيار الرجال

---

(1) Camb. Med. Hist. V. IV, p 70
Schlumperger : Un Empereur Byzantin aù dixiéme siecle,. Nicephore Phocas pp. 80 — 95
Lewis : Naval power, pp 185 — 6

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٤١ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٥

(٣) العبادى : المرجع السابق ص ١٣٧ ، El - Hajji ; op. cit. pp. 43—6

(4) Jackson : op. cit p. 28

للمناصب ، كما كان وافر البأس والعزم يعشق مظاهر البذخ والفخامة ، وسطعت في عهده الفروسية الأندلسية ، حتى غدت مثلا يحتذى في مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسية النصرانية (١) .

وكما حدث في عهد والده وجده ، اندلعت الثورات في كثير من الجهات والمدن ، وقضى عبد الرحمن وقتاً في اخضاعها ، فقد شبت الثورة في تدمير ، ولكن عبد الرحمن نجح في القضاء عليها ، واندلعت الثورة في قرطبة ذاتها وكانت ثورة شعبية شابهت تلك التي حدثت في عهد والده ، وذلك بعد مبايعة عبدالرحمن بأيام قلائل ، وأذكى أوراها أهل الذمة القادمين من البيرة ، وجموع من أهل قرطبة ذاتها ، ولكن عبد الرحمن نجح في القضاء عليها أيضا (٢) . واندلعت فتنة أخرى في طليطلة ، وفي ماردة برز أحد زعماء البربر ويدعى محمود بن عبد الجبار بن راحلة ، فعاث في تلك الأنحاء الفساد قتلا ونهبا وتخريبا ، ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذه الفتنة في البداية ، فاتسع سلطان هذا البربرى ، حتى شمل بطليوس واكشونبة وباجة ، وأخيرا نجح عبد الرحمن في تطويق هذا الثائر وهزيمته (٣) ، ففر لاجئا إلى نصارى الشمال ، ولاذ بالفونسو الثانى في غاليسيا (جليقية) ، واستمرت طليطلة في ثورتها سنة ٢١٤ هـ تحت زعامة رجل من العامة يدعى هاشم الضراب ، وحاول عبد الرحمن القضاء على الثورة فيها مرارا ، وكلما هدأت الثورة وبدا وكأن المدينة قد أذعنت عادت من جديد إلى فتنتها حتى اضطر عبد الرحمن إلى الخروج إليها بنفسه سنة ٢٢٠هـ

---

(١) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٦١ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٩٢
ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥٠٧ ، Lane - poole : op. cit. p 83

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٣٨٤ ، ص ٤٠٠ ، ص ٤١٦

(3) Lévi - Provençal : op. cit. I. pp 203

(٨٣٥ م) ، وعاد فأرسل إليها حملات أخرى حتى ضعفت الثورة فى النهاية سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) بعد حملات مستمرة وحروب ضارية (١) .

وصرف عبد الرحمن جانبا من جهوده للجهاد ضد نصارى الشمال فى غاليسيا وأهل غسقونيا والأطراف حيث أوغلت جيوشه إلى تلك الجهات وهزمت النصارى فى مواقع عديدة ، وأجبرتهم على دفع الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وعادت جيوشه ظافرة إلى قرطبة محملة بالغنائم والسبى سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) (٢) ، واستأنف عبد الرحمن الجهاد سنة ٨٤٠ هـ (٢٢٥ هـ) ، بعد أن أخمد الثورات المحلية ، فأرسل جيوشه إلى الأطراف والقلاع ونواحى النصارى فى مملكة ليون وخرج بنفسه فى بعض هذه الحملات ، وتوغل فى بعض المرات حتى بنبلونة ، وأحدث الخراب والدمار فى تلك الجهات وسبى من أهلها الكثير وأجبر البشكنس وحلفائهم على الإذعان وعاد عبد الرحمن من آخر حملاته ظافراً سنة ٨٤٢ م (٢٢٨ هـ) ، بعد أن ألقى الرعب فى قلوب النصارى ومن والاهم (٣) .

وعلى عهد عبد الرحمن الأوسط هذا ، عرفت بلاد الأندلس لأول مرة خطر النورمان أو الفيكنج ، الذين انسابوا تجاه الجنوب دون أن تكبح جماحهم قوة بحرية ، إذ يبدو أن قضاء شارلمان على قوة الفريزيين Frisians البحرية ساعد على تسهيل مهمة الفيكنج أو النورمن فى غزو غرب أوربا

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥ ، ابن الأثير : نفسه ج ٦ ص ٤٤٤ ، ص ٤٢٥

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٣ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨١ — ٨٢

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ ، ص ٥١٦ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٨ — ٨٩

بطريق البحر دون أن يجدوا مقاومة بحرية تقف فى وجههم وتحد من غلوائهم (١) . وبدأت هجماتهم على سواحل أسبانيا الغربية والجنوبية ، طلبا للمغانم والسبي سنة ٨٤٣ م ، وتعرفهم الرواية الإسلامية « بالأردمانيين » أى النورمانديين أو « المجوس » لأنهم كانوا يشعلون النار فى كل مكان يحلون فيه ، بل كانوا يحرقون بها جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم ، فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزردشتية أو المجوس (٢) . أو قد ترجع هذه التسمية إلى أنهم كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة « مجوسا » أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد (٣) . ففى صيف سنة ٨٤٣ م أواخر سنة ٢٢٥ هـ نزلوا فى مياه أشبونة فى نحو ثمانين مركبا ، فدافعهم المسلمون ، فانحدروا جنوبا إلى قادس وشذونة ، ثم دخلوا فى نهر الوادى الكبير حتى إشبيلية (٤) . وكانت هذه الغزوة مفاجأة للمدن الإسلامية التى لم تكن لها أسوار تحميها ، ولم يكن الأسطول الإسلامى فى قوة تمكنه من الصمود أمام الغزاة، فضلا عن أن معظم سفن الأسطول الأندلسى ، كانت ترابط على الساحل الشرقى ، لهذا فقد اقتحم النورمان إشبيلية ، فأحدثوا فيها الخراب والدمار ، وعاثوا فيها فسادا وأمعنوا فى القتل والأسر والنهب والسلب (٥) ، وظلوا على ذلك نحو سبعة

(I) Davis : op. cit. p. 165

(٢) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٤٨ ،

El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 157 (N. I)

(٣) عنان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٢

(4) Camb. med. Hist. V. III, p. 416

Bernhard and Whishaw : Arapic Spain, Sid. light on her Hist. and Art, p. 70 (London 1912)

(5) Braeford Mediterranean Portrait of a sea, p. 325 (London 1971)

أيام ، ثم عسكروا بظاهر المدينة ، وحينما بلغت الأخبـــار عبد الرحمن بعث بقواته إلى إشبيلية وهرع الناس من كل مكان للجهاد ورد الغـزاة ، ووصلت بعض وحدات الأسطول الأندلسي إلى مكان المعركة (١)، ثم اشتبكت القوات الإسلامية بالنورمان الذين دعمتهم إمدادات جديدة ، بظاهر إشبيليـة ، ولعب أحد رجال عبد الرحمن ، ويدعي أبو الفتح ناصر ، وهو مسلم من أصل أسباني دورا بارزا ، في هذه الأحداث سنة ٨٤٤ (٢) ، وبعد قتال مرير انهزم النورمان وخر منهم نحو ألف قتيل وأسر المسلمون نحو أربعمائة رجل وجرى إحراق نحو ثلاثين سفينة من سفنهم ، فارتد النورمان إلى سفنهم ، وأمر القـائد المسلم بصلب الأسرى النورمان على جذوع النخل أمام عيون زملائهم ، ولهذا بادر النورمان بالتراجع نحو الجنوب ، والمسلمون في أثرهم ، فوصلوا إلى أشبونة من جديد ، ثم غادروا الأندلس في النهاية (٣) .

ولقد فتحت هذه الغزوة أعين عبد الرحمن على أهمية الأسطول والتحصينات البحرية وأسوار المدن المعرضة للغزو ، فأمر ببناء سور حول إشبيلية من الحجر وجرى إنشاء دار للصناعة كبيرة تصنع فيها السفن الكبيرة ، وحشد بها الجند المدربين من شواطىء الأندلس : « فقد تقدم عبد الرحمن فأصلاح ما خربوه من البلاد وأكثف حاميتها » (٤) ، وزودها بالآلات وقوارير النفط التي تقذف

---

(١) العذرى : ترصيع الأخبار ص ١٠٠

(2) Jackson ; op. cit. p 29

(٣) العذرى : نفسه ص ٩٨ — ١٠٠ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٧ — ٨٨

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٣ — ٦٤

ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٩

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٤

على سفن الأعداء ، فضلا عن المحارس والرباطات التى أقامها على طول الساحل المطل على المحيط الأطلسى يقيم فيها المرابطون والحراس الليليون ، وكانت هذه المراقب أو الربط مزودة بالمنائر أو المنارات. وكان لهذه السياسة الفضل فى حماية الأندلس من خطر النورمان ، فلم يستطيعوا تثبيت أقدامهم فيها ، كما حدث فى فرنسا وانجلترا، ويذكر للأمير عبدالرحمن الأوسط هذا جهوده فى هذا الميدان ، فقد كان بحق المؤسس الحقيقى للبحرية الأندلسية (١) ، وكانت أعماله فى إشبيلية ، وعلى طول الساحل ، واهتمامه باتخاذ تلك الإجراءات ، نواة للأسطول البحري الأندلسى (٢) .

وإذا كان الأمير عبد الرحمن الثانى قد تخطى عقبة النورمان وخلص من شرهم ، فانه تعرض لفتنة أشد وأنكى فى قرطبة ذاتها ، سببت له مشاكل جمة وهي المعروفة بفتنة المستعربين المتطرفين ، فقد كان هناك إلى جانب العرب والبربر والمولدين فئة من السكان ظلوا يحافظون على دياناتهم المسيحية ، على الرغم من اندماجهم فى المجتمع الجديد (٣) ، وتعلمهم العربية إلى جانب لغتهم الدارجة المشتقة من اللاتينية ، ولقد أقبل هؤلاء على دراسة علوم العرب وآدابهم وأشعارهم ، حتى فاقوا العرب أنفسهم في الشعر والنثر حتى عرفوا باسم المستعربة أو المستعربين ، أى الذين تعربوا لغة وثقافة (٤) ، وفي ظل تسامح الإسلام

---

(١) راجع العبادى : نفس المرجع السابق ص ١٠٠ — ١٠١ ،

Lévi - Provi : op. cit, 1, pp. 218 — 225

(2) El - Hajji : op. cit. p. 164

(3) Jackson ; op cit. p. 31

El - Hajji : op. cit. p. 56 ، (٤) العبادى : نفسه ص ١٠٥ ،

Jan Read : The Moors in Spain and Portugal, p. 58 (London 1974)

وتقريب بنى أمية فى الأندلس ، احتل بعضهم المناصب الكبيرة فى الحكومة والجيش والبلاط ، غير أن ذلك لم يرض فريقاً من القساوسة النصارى ورجال الدين المسيحى ، الذين ساءهم كثيرا إقبال الشباب المسيحى على الثقافة العربية والشعر العربى[١] ، فضلا عما كان يثير القساوسة والمتعصبين المسيحيين ما ينعم به المجتمع الإسلامى من رخاء ورغد ، وما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر المجد والسؤدد[٢] ، ولذلك راح أولئك المتعصبون يعيبون على الشباب المسيحى تركه للغته الأصلية ، والاتجاه نحو العربية ، إلا أن ذلك لم يجد ، واستمر الشباب فى إقباله على الفكر العربى والثقافة الإسلامية واللغة العربية [٣] . ولهذا فقد تحول المتعصبون المتطرفون إلى مهاجمة الإسلام نفسه لجهلهم البين بتعاليم الإسلام وضآلة معلوماتهم عن الإسلام من ناحية ، ولشدة تعصبهم وتطرفهم من ناحية أخرى ، فراحوا يدسون على الإسلام ونبيه ، ويختلقون الأقاويل المبنية على الخرافات والأباطيل كرها للاسلام وحقدا على أهله [٤] ، وانقاد بعض الرجال والنساء والرهبان لهؤلاء القساوسة المتعصبين وخرجوا على الناس حينئذ بما أسموه « الإستشهاد » أي الموت فى سبيل العقيدة ، واعتبروا أن أقصر طريق إلى الاستشهاد هو سب الإسلام والرسول علنا [٥] فى مكان عام كالمساجد والميادين حيث يقبض عليهم ويقادون إلى القاضى، ويكررون أمامه سبابهم، فيأمر القاضى عندئذ بإعدامهم على الرغم من التسامح الذى أظهره

---

(١) ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى الأندلس ص ٧٢ (ترجمة ذوقان قرقوط)

(٢) عنان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٠

(3) Lewis : The Arabs in History, p 123

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٦٦

(5) Jackson : op cit p. 31

المسلمون تجاه النصارى والأقليات الأخرى في كل عصر ، باعتراف المعاصرين الأسبان أنفسهم (١) .

ولقد بدأت هذه المسألة فردية في البداية ، ثم ما لبثت أن تطورت إلى حركة عامة غذاها وقواها أولئك المتعصبون من القساوسه ورجال الدين ، حتى تصبح فتنة طائفية كبيرة ، فعمت البلاد موجة صارخة من التعصب الديني مركزها العاصمة قرطبة ، وأخذ كل من يبغى الإستشهاد يسب الرسول والإسلام علنا حتى يعدم ويحتفل المتعصبون بدفنه في شكل تحد سافر للسلطة الحاكمة (٢) . ولم تكن هذه الحركة قاصرة على الرجال ، بل أسهمت فيها بعض النسوة الأمر الذى أنذر بشر مستطير . واتخذت الحركة قرب منتصف القرن التاسع وفى السنوات الأخيرة من حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط شكل فتنة طائفية متطرفة ، الأمر الذى جعل الأمير يفكر فى إنهائها بأي شكل وبأية وسيلة ، فأمر بعقد مجمع دينى فى قرطبة يضم جميع أساقفة الأندلس سنة ٨٥٢م (٢٣٧ هـ) للنظر في هذه المشكلة ، ومثل الحكومة فيه موظف مسيحى (٣) ، وغلبت على المجمع روح الاعتدال ، فأعلن الجميع باستثناء أسقف قرطبة استنكارهم لهذه الفتنة واعتبارها حركة خارجة عن تعاليم الكنيسة ، إلا أن موقف أسقف قرطبة ومعارضته لذلك (٤) ، دفعت الحكومة إلى إلقاء القبض عليه وسجنه مع مجموعة من الرهبان المتطرفين ، مما سبب خروج جماعة من

(1) Lane - poole : op. cit. p. 92
El - Hajji : op. cit. pp 56 — 7
(2) Lane - poole : op cit. p. 84
(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٣
(4) Jackson : op. cit. pp. 31 — 2

المتطرفين واقتحامهم لمسجد قرطبة وسب الإسلام ونبيه فيه ، فجرى القبض عليهم جميعاً وإعدامهم في نفس العام ، وبعدها بأيام توفى الأمير عبد الرحمن ، وهدأت الفتنة إلى حد كبير في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وأخذت الحركة تضعف تدريجياً حتى انتهت من تلقاء نفسها (١) .

وعلى عهد عبد الرحمن الثانى هذا جرى نوع من العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة ، حين التمس الإمبراطور ثيوفيل (ثيوفيلوس) المساعدة من الأمير الأندلسى ، ضد العباسيين الذين أنزلوا ببيزنطة ضربات قوية فى آسيا الصغرى ، تحت قيادة الخليفة المأمون والخليفة المعتصم بالله العباسى (٢) ، الذى خرب أنقرة وعمورية فى حملة كبيرة أذل فيها ثيوفيل فى مسقط رأسه — عمورية — رداً على إغارة قام بها ثيوفيل ضد زبطرة والثغور الإسلامية القريبة ، وطلب ثيوفيل كذلك مساعدة الأمير الأندلسى ضد الأغالبة فى صقلية والربضيين فى كريت (٣) . ولقد استقبل عبد الرحمن سفارة ثيوفيل بالترحاب ، وأرسل سفارة للقسطنطينية رداً عليها برئاسة شاعر يسمى يحيي الغزال ، فاستقبلها

---

(١) العبادى : المرجع السابق ص ١٥٨ ،
Lewis : op cit. p 124

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤١٧ (أحداث سنة ٢١٥ هـ)

فازيلييف : العرب والروم ص ١٠٤ ،
Bury : Eastern Rom. Emp. pp. 472 — 3

وانظر : محمد الشيخ : « سياسة الامبراطور البيزنطى ثيوفيل تجاه الخلافة العباسية » مقالة فى مجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض — العدد الثالث ص ١٦٨

(٣) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس (ترجمة د. سالم) ص ٩٧ — ٩٨ .

يونس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ١٦٥ ،
Bury : op. cit. p 273

ثيوفيل بحفاوة أيضاً وتسلم رسالة الأمير الأندلسي(١) ، وتشير الدلائل إلى أن عبد الرحمن لم يتعهد بشيء لبيزنطة على الرغم من أنه شاطر الإمبراطور سخطه على العباسيين وعلى الربضيين الذين وصفهم بأنهم مارقون خرجوا عن طاعته ، أما الأغالبه فقد اعتذر عبد الرحمن عن محاربتهم، لأنهم يجاهدون في سبيل نصرة الإسلام . وواضح أن عبد الرحمن لم يعد الإمبراطور بالقيام بأى عمل حربي ضد من سماهم الإمبراطور، وإنما أظهر فقط تعاطفه مع بيزنطة ضد العباسيين والربضيين(٢). وتذكر الروايات أن الإمبراطور ثيوفيل والإمبراطورة ثيودورا قد عاملا مبعوثى قرطبة معاملة رائعة في القسطنطينية ، وعاد أولئك المبعوثون بالهدايا للأمير الأسبانى (٣) . وأخيرا توفى الأمير عبد الرحمن، وهو في الثانية والستين من عمره ، وذلك في سبتمبر سنة ٨٥٢ م (٢٣٨ هـ) ، بعد أن حكم نحو إحدى وثلاثين سنة .

تولى الإمارة بعد الرحمن ولده محمد(٢٣٨ – ٢٧٣ هـ = ٨٥٢ – ٨٨٦م)،وكان قد تجاوز الثلاثين من عمره بقليل وقد أعده والده لخلافته في الإمارة وولاه ثغر سرقسطة فأحسن إدارته ، وصحب والده في حملاته ضد النصارى في الشمال ،

(1) Pascual de Gayangos : The Hist. of the Dynasties in Spain, I, p. 475

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨

(٢) انظر القسم الخاص بعصر عبد الرحمن الأوسط في كتاب المقتبس الذى نشره د. محمود مكى وانظر كذلك : ليفى بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس (ترجمة سالم) ص ١٠١ — ١٠٥

العبادى : المرجع السابق ص ١٥٣ ، مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٦٤ — ١٦٧

Scott : op. cit. I, pp. 478—9

(٣) ليفى بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ص ٧٤ (ترجمة قرقوط)

فأبلى بلاء حسنا، وكان ذكيا فطنا حريصا على استمرار ما كانت تحتله الإمارة من مجد ورقى [١] بالنسبة لممالك النصارى ومملكة الفرنجة، ويعد عصر محمد بداية أخطر مرحلة مرت بها الإمارة الأموية بالأندلس، إذ اتصلت خلال عصره الثورات والفتن، وقضى فترة حكمه التى امتدت نحـــو خمسة وثلاثين عاما فى كفاح مستمر [٢]؛ فقد بدت الدولة التى تركها والده عبد الرحمن قوية ثابتة الأركان مستقرة تنعم بالهدوء، بدت فوق بركان يوشك أن يثور من كل ناحية، ولم يكن ذلك الهدوء سوى هدوءا ظاهريا يخفى وراءه كثيرا من المحن والشدائد [٣].

فقد اندلعت الثورة فى طليطلة بعد تولى محمد مباشرة سنة ٢٣٨ هـ(٨٥٢م) [٤]، يغذيها ويذكى أوارها المولودون والنصارى الذين استعانوا بنصارى الشمال فى ليون وملك نافار، فكان ذلك سببا فى إذكاء الحماسة فى نفوس المسلمين، فانقضوا على جموع الثوار وحلفائهم ومزقوهم شر ممزق سنة ٨٥٤ م (٢٤٠ هـ) حتى قيل أن جملة القتلى النصارى بلغ عشرة آلاف، واستولى الأمير على عـدد وافر من الأسرى بينهم كثير من القساوسة، جرى إعدامهم على الفــور [٥]، ولم يكن ذلك نهاية المطاف فى طليطلة، لأنها عادت إلى الثورة فى غضون أعوام قلائل،

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٩

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨

(3) Lane Poole : op. cit. p. 94

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٧٤

(٥) انظر : ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥ ، ابن خلدون : العبر ص ١٣٠

EL - Hajji : And. Dip. Rel. p. 101

Lévi - Provençal : op. cit. 1, pp. 227 — 8

فحاصرها الأمير وقام بعمل من أعمال الحيلة للإيقاع بالثوار إذ هدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة ، مع تركها قائمة ، ثم انسحب الجنود ، فلما خرج أهل طليلة في أثرهم للقتال واحتشدوا على القنطرة سقطت بهم فى نهر التاجة ، وغرق منهم عدد كبير ، وأمر الأمير بتخريب حصون المدينة ودفاعاتها ، حتى طلب الثوار الأمان سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) [١] .

وتفجرت الثورة فى الثغر الشمالى أيضا فى ألبه والقلاع سنة ٨٥٣ م ، (٢٣٩ هـ) ، فسار إليها الأمير محمد بعد ذلك بعامين ، فعاث فيها وفتح كثيرا من حصون النصارى بتلك الجهات وأرسل سراياه إلى الجهات المجاورة ، فخربت برشلونة وضواحيها وأسرت بعض مبرزيها [٢]. وتعددت حملات الأمير إلى الثغر الأعلى وألبه والقلاع لإقرار الأوضاع هناك ، ومعاقبة نصارى الشمال كلما تجرأوا على حكومة قرطبة، وفى كل مرة كانت حملات الأمير تعود ظافرة بعد أن تقر الأوضاع وتؤدب النصارى قتلا وأسرا وتخريبا[٣] . وحينما أبدت نافار وليون العداء لحكومة قرطبة سنة ٨٦٠ م (٢٤٦ هـ) ، وأغارت على بعض الأراضى الإسلامية ، خرج الأمير محمد إلى نافار فغزا بنبلونة وخرب حصونها وعاثت القوات الأندلسية فى ضواحي نافار وقراها ، وعادت بكثير من الأسرى [٤] .

وأدلت قرطبة نفسها بدلوها فى هذه الثورات إذ لا زال المولدون

---

(1) Lane - Poole : op. cit. p. 94

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٩٥

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٢

(٤) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٩٧

والنصارى يتحـفزون للثـورة كلما سنحت الفـرصة ، وكانت ثـورات طليطلة ، عاملا هاما فى تشجيع متطرفى قرطبة على الثورة ، وبرز فى عهد هذا الأمير أيضا القساوسة الذين أشعلوا الفتنة فى عهد والده ، إلا أن هـذا الأمير أثبت أنه لا يقل عن والده همة ، إذ قبض على أبرز رءوسهم وأمر بإعـدامه على الفور ، وعندئذ أخلد النصارى إلى السكينة وعادوا إلى حدود الطاعـة من جديد [١] .. وانتفضت أيضا الجهات الجبلية فى شمال غرب الأندلس ضـــد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكانت ماردة فى مقدمة المعاقل التى فجرت الثورة بذكاء من المولدين والمتمردين ، واضطـر الأمير محمد إلى الخـروج إليها سنة ٨٦٨ م (٢٥٤ هـ) حيث قضى على الفتنة فيها وقتل من أهلها الـكثير ، ونقل وجوهها ومبرزيها إلى قرطبة بأموالهم وأولادهم اتقـاء لاندلاع الفتنة من جديد فى هذه الجهات [٢] . ولكن ماردة وبطليوس عادتا إلى الثورة من جديد بعد نحو ست سنوات وخرج الأمير إليهما مرة أخرى ومرة ثالثـة ، حتى قضى على الفتنة هناك واستنفذت هذه الثورات جانبا من جهود الأمير ونشاطه[٣] ومن الشمال إلى الجنوب تفجرت الثورة فى الجبال الجنوبيـــة فيما بين رندة ومالقة سنة ٨٨٠ م (٢٦٧ هـ) ، وثورة أخرى فى رية واستنفذت هـــذه الثورات قدرا كبيرا من جهود الإمارة الأموية ، واستطاع أن يقضى على هذه الثورة بشق الأنفس بعد أن أرسل الجملة تلو الأخرى [٤] .

(1) Lane - Poole : The Moors in Spain, p. 84
Lévi - Provençal : op. cit. 1, pp. 230 — 7

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٨٩

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٠ ،
El — Hajji : op cit. p. 104 — 6

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ — ٣٢٩

ومن حسن حظ الأمير أنه قضى على الفتنة الكبرى التى اندلعت فى قرطبة قبل أن يدهمه خطر النورمان، الذين عاودوا الكرة من جديد بإغارة على سواحل أسبانيا الغربية ٨٥٩ م (٢٤٥ هـ) ، فدهموا شـواطىء غاليسيا (جليقية) فى نحو ستين سفينة ، ولم تؤخذ الإمارة الأموية حينئذ على غرة ، كما حـدث فى المرة الأولى لأن قواتها كانت على استعداد لرد الغزاة ، إذ طاردتهم السفن الأندلسية ، فاتجهوا جنوبا ، ولكن السفن الإسلامية استطاعت أن تقضى على طلائعهم . وتأسر سفينتين محملتين بالغنائم والسبى [1]، غير أن النورمان واصلوا سيرهم إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم جنوبا إلى مياه الجزيرة الخضراء [2] ، وفى نفس الوقت تقدمت القوات البرية نحو الغـرب ، وتقـدم الأسطول الأندلسى المجهز بقوارير النفط وفرق الرماة ونشبت عدة معارك برية وبحريه ارتد على آثرها الغزاة عن إشبيلية ثم إشتبك المسلمون معهم تجـاه شاطىء شذونة ، وأسر المسلمون عدة سفن أخرى [3] ، ولكن النورمان استمروا فى هجماتهم وحطموا جناحا للأسطول الإسلامى واندفعوا نحـو الجزيرة الخضراء ، وشاطىء الأندلس الجنوبى حيث دخلوا عدة مدن وقـرى وعاثوا الفساد فيها وأمعنوا فى الأسر والقتل والنهب ، وعلى الرغم مما فقدوه من سفن ومحاربين ، إلا أنهم ظلوا أشهرا يعيثون الفساد فى شواطىء الأندلس ، ويصلون إلى أبعد من مصبات أنهارها [4] ، حتى ارتدوا فى النهاية نحو الشمال .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٩٠

(2) Davis : op. cit. p. 165

(3) El - Hajji : op. cit. pp. 157 — 8

(4) Bradford : Mediterranean Portrait of a Sea, p. 325

ولم يعودوا بعد ذلك إذ يبدو أنهم آمنوا أن الأندلس ليست فى ضعف البلاد الأخرى التى هاجموها فى فرنسا وانجلترا وغيرها من الأقطار [١].

وتوفى الأمير محمد بن عبد الرحمن أخيرا فى أغسطس سنة ٨٨٦ م (صفر سنة ٢٧٣ هـ).

وبعد وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٣ هـ ، وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، تولى الإمارة اثنين من أبناء محمد هما : المنذر بن محمد وعبد الله بن محمد ، ولم يطل العهد بأولهما سوى عامين بينما حكم الثانى نحو ربع قرن من الزمان حتى وفاته سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ، وتعد هذه المرحلة من أخطر المراحل فى عمر الإمارة الأموية بالأندلس ، وأكثرها اضطرابا [٢] ، وذلك لأن الثورات اتصلت خلالها واندلعت الحروب بين الأمويين وخصومهم من الثوار سواء من المولدين أو العرب أنفسهم أو البربر وران على البلاد ضعف واضمحلال ، إذ تطلع كل ثائر إلى الاستقلال بما فى يده ، وأنذر ذلك بشر مستطير [٣].

فلم يكن الأمير المنذر الذى خلف والده فى الإمارة يستطيع القضاء على الفتن التى أطلت برأسها فى كل مكان فى ذلك المدى القصير الذى تولى فيه الحكم . فعلى الرغم من من أنه كان رجلا ناضجا عند ولايته وكان قائدا

---

(١) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٨ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٩٦–٩٧ العذرى : ترصيع الأخبار ص ١١٨ — ١٠٩

(2) Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 329 — 30

(3) Dozy : Hist. Mus Esp. II, pp. 21 — 93
Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 330

موهوبا ورجلا حازما اعتمد عليه والده فى جلائل الأمور من قبل ، فضلا عن أنه كان وافر الشجاعة والبأس [١] ، إلا أن الظروف كانت أقوى منه والثورات الداخلية تؤرق أحلامه ، فقط اتسع خطر ابن حفصون فى الجنوب وبسط سلطانه على كورة رية بأسرها، وامتد نفوذه إلى شذونة ومالقة وجيان وإستجه وغيرها وهوى إليه الثوار والمارقون من كل جانب [٢]، ودعا للعباسيين وطلب عون الأغالبة ، وأصبحت ثورته أخطر ثورات المولدين على الإطلاق ولم يجد الأمير المنذر بدا من الخروج إليه بنفسه ، فاستولى على بعض معاقله وقبض على كثير من أتباعه ، لكنه لم يستطع القبض على ابن حفصون نفسه الذي لاذ بقلاعه في ببشتر [٣] ، فحاصره المنذر فيها نحو شهر ونصف ، إلا أنه مرض أثناء الحصار ، وبعث فى طلب أخيه عبد الله ، وبعد وصول هذا بقليل جاز المنذر إلى ربه فى صيف ٨٨٨ م (٢٧٥ هـ) [٤] ، فقفل عبد الله راجعا إلى قرطبة على رأس قواته تاركا ابن حفصون ينعم بالهدوء من جديد [٥] .

ولى عبد الله بن محمد الإمارة بعد أخيه المنذر سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) فى ظروف صعبة كثرت فيها الفتن والثورات واهتز عرش الإمارة بشدة ، وزاد فى خطورة الأحوال أن الثورة لم تعد قاصرة على المدلدين فى جهات متعددة ، وإنما امتدت إلى القبائل العربية ذاتها وإلى البربر أيضا ،

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٤٢٤
ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٩٠

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥

(3) El - Hajji : op, cit. p. 110

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠٢

(5) Lévi - Provençal : op cit. I, p. 338

ورأى كل فريق أن يستقل بما في يده ، واندلعت الفتن العنصرية بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم ، واشتعلت الفتن في كثير من المدن والقلاع والنواحي ، ولم يبق للأمير من نفوذسوى في العاصمة وما حولها[١] ، ففي العام التالي لولايته خرج الأمير عبدالله الي الجنوب للقضاء على ابن حفصون ، وأتبع هذه بمحاولة أخرى كبيرة في سنة ٨٩١ م (٢٧٨ هـ) ، ألحق خلالها هزيمة كبيرة بابن حفصون في بلاى ، وقتل ألوفا من أتباعه وأجبره علي التحصن من جديد في قاعدته ببشتر والمناطق الجبلية الجنوبية[٢] ، وتكرر هجوم الأمير على معاقل هذا الثائر وقلاعه دون نتيجة حاسمه[٣] ، الأمر الذى ضاعف من حقد ابن حفصون على حكومة قرطبة ، فأعلن في سنة ٨٩٩ م (٢٨٦ هـ) اعتناقه المسيحية هو وسائر أفراد أسرته ، واتخذ لنفسه اسما نصرانيا هو « صمويل » إلا أن هذه الخطوة تسببت في تفرق كثير من أنصاره وأتباعه وانصرافهم عنه[٤] ، فاتجه نحو نصارى الشمال وحاول التحالف مع ملك ليون[٥] ، وبعض المنشقين على حكومة قرطبة ، وتلاحقت حملات الأمير ضده ، ولكنها لم تفلح في القضاء عليه ، واستمرت الحروب مع هذا الثائر زهاء ثلاثين عاما لتؤكد أن ثورة المولدين في هذه الجهات

(1) Bernhard and Ellen M. Whishaw : Arabic Spain. pp. 78—9.
Lane - poole : op. cit. p. 102

(2) El - Hajji : op. cit. pp. 110 — 111

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ ،
Lévi - Provençal op. cit. 1, pp. 368 — 80

(٤) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٤١

(5) Bernhard and Whishaw : op. cit. p. 86
El - Hajji : op. cit. p. 101

لم يكن من السهل القضاء عليها (١) . واندلعت فتن أخرى للمولدين فى مدن شتى فى شذونة وجيان وباجة وبذل الأمير عبد الله جهوداً مضنية للقضاء على هذه الفتن ، ونجح فى إخماد بعضها واستمر البعض الآخر حتى عهد عبد الرحمن الناصر (٢) .

واشتعلت الثورة أيضا فى الشرق ، وجاءت هذه المرة من القبائل العربية ، ويبدو أن القبائل العربية وجدت الفرصة سانحة لإفراغ حصيلة هائلة من الكراهية لبنى أمية وسياستهم فى تقريب الموالى ، وإذلال العرب والاساءة إلى القبائل العربية ، وتركزت الثورة فى كورة البيرة ، وما حولها ابتداء من سنه ٢٧٥ هـ (٨٨٩ م) ، أى ابتداء من عهد الأمير عبد الله (٣) ، وتقلب على زعامة وقيادة ثورتهم عدد من وجهاء العرب ورؤساء القبائل ، واستفحل خطر العرب فى تلك الجهات ، وقضوا على كل أثر لسلطة قرطبة فى البيرة وما حولها ثم فى غرناطة التى صارت مركزا لزعيم العرب (٤) ، ونظرا لانشغال الأمير عبد الله بمحاولة القضاء على ثورة المولدين بالجنوب ، اضطر لمهادنة العرب ، وأقر أميرهم على ما بيده فى حدود تبعية شكلية ، وكلما قتل زعيم عربى فى البيرة أقر أمير قرطبة الزعيم الذى يخلفه حتى عهد عبد الرحمن الناصر الذى قضى على ثورة هذه النواحى وأسكن فتنة العرب فيها (٥) .

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥٤

Bernharp : op. cit. p, 86

(٢) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٩

(3) Lane - Poole : op. cit. pp. 98 — 101

(4) Bernhard and Whishow : op. cit. pp. 82 — 3

(٥) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٣٨ — ١٤١ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٨٠ — ٨٧

وفي إشبيلية أضرمت نيران فتنة من نوع جديد بين البيوت العربية بعضها والبعض الآخر ، والأسر الطامحة إلى السلطة ، وهي بيوت ثلاثة : بنو أبي عبدة ، وبنو حجاج وبنو خلدون [١] ، وكانت الرياسة في إشبيلية في بني أبي عبدة ، لكن بني خلدون رفعوا راية العصيان سنة ٨٨٩ م (٢٧٦ هـ) ، وتحالفوا مع المولدين والبربر [٢] ، بينما تحفز بنو حجاج في نفس الوقت للمشاركة في الفتنة أملا في السلطان والجاه واندلعت معارك ضارية بين العرب ، فأرسل الأمير عبد الله حملة إلى المدينة سنة ٨٩٥ م (٢٨٢ هـ) ، قاتلت بني الحجاج [٣] ، وقتلت منهم ومن بني خلدون عددا كبيرا ، حتى أذعنت المدينة ، واشترك بنو خلدون وبنو حجاج في إمارة المدينة إلى أن انفرد بها والي من بني حجاج ، وأقره الأمير عبد الله في إمارته ، فهدأت الفتنة في المدينة في نهاية الأمر [٤] .

وأثار البربر فتنة أخرى في طليطلة ، وشاركوا في الفتنة في بطليوس ، وكانت طليطلة قد سقطت في يد بني ذي النون من زعماء البربر منذ أيام الأمير المنذر ، وتقلبت الأحوال بالمدينة بين ثائر وآخر ، حتى انتهت إلى زعامة رجل من البربر المحليين يدعى ابن الطريشة — حلفاء بني ذي

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، ابن الأبار : نفسه ص ٩٦

(2) Lane - Poole : op. cit. p. 101 — 102

Bernhard and Whlshaw : op. cit. p. 83

(3) Bernhard and Whishaw : op. cit. p. 82, 85, pp. 90 — 7

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٨١ وما بعدها ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٢٩

النون (١) ، على حين حاز بنو ذى النون الجهات المجاورة لطليطلة إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد عبد الرحمن الناصر (٢) . وشارك البربر فى إثارة الفتنة فى بطليوس وماردة أيضا، وظلت هذه النواحى ترفع راية العصيان والبربر يعيثون فسادا فيها حتى أقر الأوضاع فيها عبد الرحمن الناصر (٣) .

وتطلب الثغر الأعلى وبلاد نصارى الشمال جانبا من جهود عبد الله ، الذى استعان بأمراء النواحي الشمالية فى محاربة نافار فى بنبلونة ، وبرشلونة ، ونصارى الشمال ، ووفق ولاة الأمير وحلفائه فى إنزال الهزائم بالنصارى في تلك المناطق واجتياح قلاعهم وحصونهم والعودة بكثير من الأسرى والمغانم (٤) ؛ وفى أواخر أيامه اضطر الأمير عبد الله إلى الخروج بنفسه إلى النواحى الشمالية ، فخرب للنصارى حصونا عدة وسبى كثيرا منهم وهكذا ، استمرت جهود الأمير عبد الله لإقرار الأوضاع في الجهات الشمالية ، وإعادة نصاري الشمال إلى الموادعة ، وإجبارهم على الإخلاد للسكينة ، ونجح في ذلك كثيراً بنفسه أحيانا وبحلفائه من ولاة الشمال أحيانا أخرى (٥) . وأخيراً توفى الأمير عبد الله فى سنة ٩١٢ م

---

(1) Lane - Poplo : op. cit. p. 101

Léve - Provençal : op. cit. 1, pp. 340 — 3

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب — ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٣) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ١٤٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٣ — ١٣٤ ،

Bernhard and Whishaw : op. cit p. 82

(٤) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ١٤٨ — ١٤٩

(٥) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٩١ — ٩٢

(٣٠٠ هـ) ، بعد حكم امتـد نحـو خمسة وعشرين عاما تقريبـا ، أضطربت خلالها أحوال الإمارة وثارت الفتن في كل جانب ، وقضى عهده في التصدى لكل هذه الخطوب[1] .

(1) Lane - Poole : op. cit. p. 107
Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 396

الفصل الرابع

عصر الخلافة الأموية فى أسبانيا ٩١٢ — ٩٧٦ م

٣٠٠ — ٣٦٦ هـ

آلت الولاية بعد الأمير عبد الله بن محمد إلى حفيده عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١ م = ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وكان عبد الرحمن الثالث حين ولى الحكم فى الثالثة والعشرين من عمره ، وحكم نحو خمسين سنة ، فكان من أطول الأمراء عهدا ، وعلى الرغم من أنه كان للأمير عبد الله أبناء كثيرون يصلحون للولاية ، الأمر الذى بدأ فى ظله اختيار الحفيد عبد الرحمن شيئا غريبا ، إلا أنه يبدو أن الولاية لم تعد تغرى أحدا من أبناء الأسرة أو تثير اهتمامه ، بعد أن ضربت البلاد فى أطناب الفوصى ، واتصلت الفتن والثورات ، وغدت الإمارة غرما لا غنما ، فلهذا عافها أعمام هذا الشاب [١] ، فضلا عن أن عبد الرحمن تربى في كنف جده عبد الله بعد وفاة والده وهو صغير ، ونال رعاية جده الخاصة ، وأظهر نجابة وهمة جعلت الجميع يقر له بالولاية متوسمين فيه كل ما يؤهله لإدارة دفة الحكم بنجاح فى تلك الفترة الحرجة فى تاريخ الإمارة الأمويه ، وهكذا تنازل أعمام هذا الشاب عن الولاية ، لابن أخيهم عبد الرحمن زاهدين فيها من ناحية وللمصلحة العليا من ناحية أخرى [٢].

ومن الغريب حقا أنه لم يكد عبد الرحمن الثالث يلى الولاية ، حتى عادت

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٧٣

الوحدة من جديد إلي ربوع البلاد ، وعادت الأندلس إلى سابق عهدها عزيزة متحدة في ظل بنى أمية ، فقد أثبت هذا الشاب أنه يتمتع بمزايا الحكام العظام فعلا ، الأمر الذى أرهص بانتشال الإمارة من الأوضاع السيئة التى تردت فيها [١] ، إذ بدأ عهده باصدار مرسوم عام ناشد فيه الثوار فى كل مكان طرح الخلاف والعودة إلى حدود الطاعة ، واعدا إياهم بالوعود الجميلة من سلطان وجاه ومال ، إن استجابوا لدعوته ، متوعدا المخالف بأشد أنواع التنكيل . استجاب الكثيرون لهذا النداء ، وسارعوا بالدخول فى الطاعة [٢] ، لما أحدثته الحروب الطويلة من ملل بين الناس من ناحية ، ولما ترتب عليها من كساد فى التجارة والزراعة والصناعة من ناحية أخرى ، ولم يكد يمضى من عهد عبد الرحمن سوى سنوات قليلة — حتى كانت الأندلس قد عادت إلى سابق وحدتها فى ظل بنى أمية [٣] .

ولم يخل الأمر أحيانا من قيام عبد الرحمن ببعض الحملات الداخلية لإقرار الأوضاع ، فشن فى السنوات الأولى حروبا ضارية على من لم يستجب لندائه من الثوار ، لاسيما زعماء البربر وابن حفصون — ثائر الجنوب الشهير — وزعماء المولدين ، فأنزل بكل هؤلاء هزائم متوالية ، واستولى على كثير من القلاع والحصون ، وبذل جهودا مضنية لإخضاع الثورات المتأججة [٤] ،

---

(1) Lévi - Provençal : op, cit, II, p. 5

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٠

(٣) انظر : العبادى : المرجع السابق ص ١٨٠ ،

Lewis : op. cit. p. 124

(4) Jackson : op. cit. p. 32

فأخضع إشبيلية وشذونة وقرمونة وبطليوس وباجة ، وساعدته الظروف بوفاة عمر بن حفصون سنة ٩١٨ م (٣٠٦ هـ) ، فترتب على ذلك هدوء الجنوب ، وجنى عبد الرحمن ثمرة كل ذلك (١) . كما نزل بالبلاد فى سنوات حكمه قحط شديد واحتباس للغيث وشدائد عظمى كما تحدثنا المصادر المعاصرة ، مثلما حدث سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، وسنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) وسنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وسنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتسببت هذه الشدائد والمحن فى ضيق الناس وحنقهم (٢) ، إلا أنه فى كل مرة كانت الشدة تزول ، وتنقشع الغمة ، وينزل الغيث فياضا فتعود الأمور إلى سابق عهدها ، ويزول الكرب وتنقشع سحب الفاقة (٣) .

وكان أهم حدث فى السنوات الأولى لعهد عبد الرحمن الناصر ، هو تحول الإمارة الأموية إلى خلافة أموية فى الأندلس ، حين تلقب عبد الرحمن بالخلافة ، وأمر أن يدعى له فى الخطبة بلقب الخليفة ، وأن يكون خروج الكتب وردودها عليه بلقب أمير المؤمنين ، كما أمر بإثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين » (٤) فى أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه ، واستمر لقب الخلافة فى ذرية عبد الرحمن حتى زوال الدولة الأموية قرب نهاية الربع الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ويشير مؤرخ محدث إلى ذلك بقوله أن عبد الرحمن كان مدفوعا بالحاجة الماسة لصبغ حكمه

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٨ — ١٤١

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٧ ، ص ١٩٩ ، ص ٢٢٦

(٣) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٢٢٦

(4) Lane - Poole : op. cit. p. 122

بالصبغة الأسبانية من أجـل استمالة واسترضاء رعاياه المسلمين (١) . إذ تذكر الروايات أن الأندلسيين هم الذين طلبوا من عبد الرحمن التلقب بلقب الخلافة وبايعوه على ذلك ، وخاطبوه باسم الخليفة حتى قبل أن يعلن هو ذلك رسميا ، وأصروا على أن يحمل الإسمين : « أمير المؤمنين » و « الناصر لدين الله » ، وإذا لم يكن أسلاف عبد الرحمن قد اتخذوا اللقب بل اكتفوا بتسمية أنفسهم أبناء الخلائف ، اعتقادا منهم بأن الخلافة تكون لمن بيده الحرمين الشريفين(٢)، فإن عبد الرحمن اعتقد أن ذلك كان حقا أضاعه بنو أمية ، وواجبـا تمادوا فى تركه : « إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا منتحل له ودخيل فيـه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه واسم ثابت أسقطناه ... » (٣)

وساعد عبد الرحمن على ذلك ما كان جاريا من ضعف الخلافة العبـاسية فى المشرق آنذاك ، وتحكم الأتراك فيها وعجزها فى نفس الوقت عن حماية العالم الإسلامى (٤) ، وكذلك بروز الخلافه الفاطمية الشيعية فى المغرب، التى تطلعت إلى امتلاك الأندلس باعتباره مكانا طبيعيا مناسبا لامتداد سلطانها . ويبـدو أن عبد الرحمن الناصر أراد بهذه الخطوة أن يرفع مكانة بنى أمية فى الأندلس(٥)،

---

(1) Jackson : op. cit, p 32

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٧٨ (بولاق) ، ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٩٩
ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٠

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٩٨ ، العبادى : المرجع السابق ص ١٨١

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٠

(5) Jackson : op, cit p. 41
Lévi – Provençal : op. cit, II, p. 5

بعد أن ضعف مركز الأمير الأموى فى الفترة السابقة ، واندلعت الثورات فى كل مكان ، وغدت الحاجة ماسة إلى إضفاء الأهمية على منصب الأمير من الناحيتين السياسية والدينية ، وإكساب الحكم الأموى شرعية دينية تمكنه من الصمود فى وجه المطامع الخارجية ، لاسيما من قبل الفاطميين الشيعة ، الذين عاصر قيام خلافتهم الشيعية فى المغرب بداية عصر الخلافة الأموية السنية فى الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر (١) .

ولقد شكلت العلاقة بين عبد الرحمن الناصر والفاطميين الخط البارز فى سياسة الأمويين الخارجية فى ذلك الوقت ، إذ أدى قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب على قربها من الأندلس إلى إرهاص بصدام الأمويين فى أسبانيا ، صراعا على مناطق النفوذ من جهة وصراعا مذهبيا بين السنة والشيعة من جهة أخرى (٢) ، لاسيما وأن الفاطميين لم يضيعوا الوقت بل بدأوا مبكرا بالتمهيد للغزو الأندلس ببث الدعاية الشيعية فيها ، وإرسال المخبرين والجواسيس لاستطلاع أحوالها ومعرفة مناطق الضعف فيها توطئة للاستيلاء عليها (٣) ، وكان نجاح الفاطميين فى تهيئة الأذهان فى الأندلس وجذب الأنصار محدودا للغاية ، ربما لقوة المذهب السنى فى البلاد من ناحية ولهدوء الأحوال فى الأندلس فى تلك الفترة من ناحية أخرى وعودة الوحدة إلى الأندلس فى ظل بنى أمية ، فلم يستطع الفاطميون جذب سوى ثائر الجنوب عمر بن حفصون الذى استقبل رسل الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى ودعاته وان لم يكن جادا فى انضمامه إلى الفاطميين ، بقدر ما كان يهدف إلى اتخاذهم وسيلة لارهاب

---

(1) Lewis : op. cit. p. 124

(2) Lévi - Provençal : op. cit II, p. 79

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٣١

خليفة قرطبة واغاظته (١) . وتذكر الروايات أنه أعاد دعاة الفواطم إلى خليفتهم في أواخر أيامه يحملون رداً لطيفاً وبعض الهدايا إشارة إلى أنه لم يكن مخلصاً في نواياه تجاههم . هذا فضلا عن اجتذاب بعض الأنصار من الأندلس الذين فروا للاحتماء بخلافة الفاطميين في المغرب مثل القائد على بن حمدون الجذامى المعروف بابن الأندلسى (٢) ، والشاعر محمد بن هانىء الأندلسى ، الذى التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى .

وعلى الرغم من هذا النجاح المحدود للفواطم فى الأندلس فإن خطرهم كان عظيما على الحكم الأموى هناك ، نظراً لامتلاكهم قوة بحرية هائلة على سواحل المغرب وفى صقلية ، آلت إليهم من الأغالبة ، الذين روعوا سواحل أوربا الجنوبية في القرن التاسع الميلاد (الثانى الهجرى) (٣) . ولم يكتف الفاطميون بذلك، بل زادوا في القوة البحرية وطوروها، وبنى الخليفة المهدى دار صناعة فى المهدية كانت آية فى القوة والعظمة ، ولهذا كان خطر الفاطميين عظيما على بنى أمية فى الأندلس (٤) . غير أن هؤلاء جدوا فى مقاومة أطماع الفواطم وعملوا من جانبهم على استطلاع الأخبار وإرسال المخبرين والجواسيس فى أنحاء المغرب يوافونهم بما يستجد هناك معتمدين على وجود جاليات أندلسية على طول ساحل المغرب من ناحية وعلى كراهية هؤلاء

(1) Lane - Poole : op. cit. p. 110
Bernhard and Whishaw : op. cit. p. 77

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٠٩ ، ص ٢٣٠

(3) Lévi – Provençal ; op. cit. II, p. 80 ,
Lewis : op. cit. p. 118

(٤) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٧٤ ، المقريزى: إتعاظ الحنفا ص ٩٣ — ٩٧

المذهب الشيعى وشدة تمسكهم بالمذهب السنى من ناحية أخرى[1]، كما جدوا أيضا فى تقوية الأسطول البحرى الأندلسى لمقاومة أطماع الفواطم، وبذل عبد الرحمن الناصر جهودا مضنية فى سبيل حراسة سواحل الأندلس، وحشد أعداداً كبيرة من السفن فى موانيه الهامة، وجهزها بالعتاد والجنود المدربين، وأعطى أهمية خاصة لمضيق جبل طارق لمنع نفاذ السفن الفاطمية إلى سواحل الأندلس لمساعدة الثائر ابن حفصون فى الجنوب[2]. وترجع عظمة عبد الرحمن الناصر فى ذلك أن جهوده هذه كانت فى السنوات الأولى لولايته، إذ أشرف بنفسه على تحصين سواحل بلاده وثغوره الجنوبية المواجهة للمغرب، فذهب إليها سنة ٩١٤ م (٣٠٢ هـ)، وأشرف بنفسه على تحصين طريف والجزيرة الخضراء[3]، بل إنه احتل بعض موانى المغرب المطلة على مضيق جبل طارق لأهميتها مثل مليلة سنة ٩٢٧ م (٣١٤ هـ)، ومدينة سبتة التى احتلها سنة ٩٣١م (٣١٩ هـ)[4]، وحشد فيها الرجال والعتاد، وبنى لها سورا قويا، كما احتل طنجة وأقام فيها تحصينات قوية[5]، وسيطر عبد الرحمن الناصر بذلك على الملاحة فى مضيق جبل طارق، وأعطى نفسه فرصة التدخل فى شئون

---

(١) ابن عذارى : نفسه ج ١ ص ٢١٢ ، ص ٢١٨

البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥ ، ص ٦٥ ، ص ٨٢

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٠٤ ،

Bernhard and Whishaw : op. cit. pp. 114 — 115

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٨

(٤) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٩١ ، ص ٢٠٤ ، البكرى : نفسه ص ٨٩ ، ص ١٠٤

(٥) السلاوى : الاستقصاء فى أخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥

Lévi - Provençal : op. cit, II, pp. 86 — 97

المغرب ، وإثارة قبائل البربر ضد دولة الفواطم هناك (١) ، ومحالفة الدويلات الصغيرة التى كانت قائمة فى بلاد المغرب مثل الأدارسة الذين انحصر نفوذهم كثيرا فى المناطق الجبلية بعد الغزو الفاطمى، ومثل إمارة نكور أو بنى صالح بمنطقة الريف كما حاول عبد الرحمن الناصر إثارة القبائل البربريه فى بلاد المغرب مثل قبيلة زناته التى عمل على تحريضها ودفعها لمحاربة صنهاجة حليفة الفاطميين (٢) ، وأيد ثائرا هاما ضد الفاطميين من قبيلة زناته هو أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الخارجى الذى قاد ثورة فى تونس والجزائر ضد الفاطميين ، وبذل الطاعة للخليفة عبد الرحمن الناصر ودعا له سنة ٩٤٤ م (٣٣٣ هـ) ، فأمده الخليفة بالتأييد والمساعدة المالية والعسكرية ، واستمرت هذه الثورة نحو أربع سنوات ضد الفاطميين ولكنها انتهت بالفشل وبمقتل قائدها سنة ٩٤٨ م (٣٣٦ هـ) (٣) ، وعول عبد الرحمن على إقامة اقتصاد متين فى بلاده ، وإنماء موارد دولته التى استمرت فى الازدهار فى هذا العصر ، على الرغم من عداء الفاطميين والمسيحيين ، ولم يحل هذا العداء دون احتلال الإمارة لمكانتها المرموقة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا (٤) ، إذا أخذنا فى الاعتبار حجم السفارات المتبادلة بين الدولة الأموية وغيرها من القوى المعاصرة ، وكذلك سمو المكانة التى احتلتها عملة قرطبة فى عالم الاقتصاد والتجارة فى ذلك الوقت (٥).

---

(1) Lane - Poole : op. cit. p 116

(٢) العبادى : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤١ — ١٤٦.

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢١٢

(4) Bernhard and Whishaw : op cit. p. 129

(5) Jackson : op. cit. p. 41

كما عمل عبد الرحمن الناصر على التحالف مع أعـــداء الدولة الفاطمية فى الشرق وفى الغرب على حد سواء فتحالف مع ملك إيطاليا هيج البروفانسى ، الحانق على الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوه الإيطالى والراغب فى الانتقام منهم لذلك ، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة قنسطنطين السابع المتطلع لاستعادة جزيرة صقلية من الفاطميين (١) ، واستقبل عبد الرحمن الناصر سفـارة بيزنطة بترحـــاب كبير سنة ٩٤٥ م (٣٣٨ هـ) ، وفى سنة ٩٤٩ م (٣٤٢ هـ) بعث الناصر سفارة أندلسية إلى القسطنطينية سنة ٩٤٦ م ، وتشير المصادر البيزنطية إلى أن السر فى تبادل هذه السفارات وتحمس بيزنطة لها ، إنمـا يرجع إلى أن قنسطنطين فكر وقتذاك فى إعداد حملة كبيرة ضد جزيرة كريت ، فأراد بهذه السفارة إما أن يحصل على مساعدة الخليفة الأموى أو على الأقـل يضمن حياده (٢) ، ومن ناحية الخليفة عبد الرحمن كان يحاول إقامة محور سياسى مع بيزنطة ضد الفاطميين . وتشير المصـادر الإسلامية المعـــاصرة إلى أن بلاط القسطنطينية هو الذى سعى إلى هذه الصداقة وإلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة (٣) . كما وطد عبد الرحمن الناصر علاقته بحكام مصر الإخشيديين وعمل على محاربة الدعاية الشيعية هناك وأرسل مبلغا من المال من أجل ذلك .

ولقد تطورت الأمور بين الفواطم وبنى أمية فى الأندلس إلى حد الحرب السافرة ، وبدأت هذه المرحلة حين أسرت سفـن الأندلس مركبا مرسلا من صقلية إلى المغرب كان فيه رسول من صقلية إلى الخليفة الفـاطمي المعز لدين

---

(1) Camb. Med. Hist. IV. p. 66

(2) Rambaud : Histoire de l'Empire Grec. p. 407
Camb. Med. Hist. V. IV, p. 66

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢ .

الله ، وكتبا إلى المعز واستولى الأندلسيون علي ما في ذلك المركب ، ورجح المؤرخون المحدثون أن هذا الرسول والكتب لها علاقة بإعداد مشروع مشترك للهجوم علي الأندلس (١) ، ولهذا لم يتزد الأندلسيون في الاستيلاء عليه لخطورة ما يحمله . وحين بلغ هذا النبأ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أعد أسطولا كبيرا وبعث به إلى الأندلس ، فهاجم ثغر المرية ، وأحرق جميع ما فيها من السفن وأخذ السفينة التي أسرت مركب الفاطميين وأهل صقلية (٢) ، واستولوا على ما فيه من متاع يخص الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأحدثوا الخراب والدمار في ثغر المرية ، وقتلوا ونهبوا ثم عادوا إلي قاعدتهم في شمال إفريقية (٣) ، ورد الخليفة الناصر علي ذلك بتجهيز أسطول للاغارة علي سواحل المغرب سنة ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) وإن لم يوفق أسطوله كل التوفيق في هذه الإغارة ، فإنه عاد في العام التالي في نحو سبعين سفينة فخرب ، وأضرم النار في قاعدة بحرية هامة للفواطم في الغرب هي مدينة الخرز Marsa L-Kharaz (٤) ، كما أحدث الخراب والدمار بمنطقة سوسة وطبرقة شرقي بنزرت ، وعاد سالما إلى قواعده في الأندلس ، واستمرت الاشتباكات العسكرية بين الجانبين في البحر دون توقف فيما تلا من سنين (٥) .

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٢١

(2) Barnhard and Whishaw : op. cit. p. 129

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١٩ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ وما بعدها

ابن خلدون : العبر ج ا ص ١٣٨ ، ١٤١

(4) Lévi - Provençal : op. cit. II, p. 108

(٥) البكري : نفسه ص ٥٥ ، ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

العبادي : المرجع السابق ص ٢٠٧

وكان الخطر الثانى الذى هدد عبد الرحمن الناصر هو خطر المسيحيين الأسبان فى الشمال لاسيما من قبل مملكة ليون فى المنطقة الشمالية الغربية ، التى كانت قد أقامت على حدودها الجنوبية والغربية المتاخمة للمسلمين سلسلة من القلاع والحصون Castellas لحماية تلك الحدود [١] ، فاتحدت فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، فى إمارة واحدة عرفت باسم Castilla ، الذى عربه المسلمون إلى قشتالة أى القلاع . هذا بالإضافة إلى خطر نافار (نبرة) وقاعدتها بنبلونة وهي التى تحكمت في المعابر الجبلية بين أسبانيا وأوربا وغدت هذه الممالك المسيحية خطرا يهدد المسلمين فى أسبانيا لا سيما وأن حدودها الشمالية كانت ملاصقه لأوربا [٢] ، وعلى اتصال بفرنسا والبابوية والعالم المسيحى فى الغرب ، الأمر الذى أمدها بقوى روحية ومادية هائلة فى صراعها مع المسلمين . ولقد تشكل حلف مسيحى من ملك نافار وملك ليون ، واستطاع أن يستغل انقسامات المسلمين على أنفسهم فى الفترة السابقة لعهد عبد الرحمن ، ليستولى المسيحيون على بعض المدن الإسلامية والأراضى المتاخمة ، ويمدون نفوذهم إلى السهول المجاورة سنة ٩١٦م (٣٠٥هـ) [٣] ، بل تجرأ هذان الملكان وهاجما قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين مدينة سرقسطة .

قرر عبد الرحمن عندئذ الخروج بنفسه على رأس جيوشه لخوض الحرب ، وفعلا اشتبك معهما فى معارك ضارية طويلة ، ونجح في إلحاق الهزائم بهما ، واستعاد كثيرا من المدن والأراضى منهما سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) وأعادهما إلى

---

(1) El - Hajji : op. cit. pp. 44 — 5

(2) Lévi - Provençal : op. cit. 1, p. 128

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٧١

حجمهما فى هذه الآونة (١) . غير أن مملكة ليون استمرت فى عنادها ، وظلت تتحين الفرص مع حليفتها مملكة نافار (نبرة) للهجوم على المسلمين ، واضطر عبد الرحمن إلى الخروج مرة ثانية إلى الشمال على رأس جيش كبير من العرب والبربر والصقالبة (٢) الذين كثر عددهم فى الجيش الأندلسى ، وحازوا مكانة خاصة لدى الخليفة الأموى — وسلم عبد الرحمن القيادة لمملوكه نجدة الصقلبي ، وحينما إشتبك الجيش الأموى مع الأسبان ، وقعت الهزيمة على المسلمين سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) فى وقعة الخندق (٣) ، ويرجح بعض المؤرخين أن السبب فى ذلك هو حقد العرب على أولئك الصقالبة الذين حازوا مكانة هامة لدى عبد الرحمن (٤) ، فصمم العرب على ترك الصقالبة وحدهم فى المعركة الأمر الذي أدى إلى هزيمة المسلمين ، ومقتل القائد الصقلبي وفرار عبد الرحمن نفسه فى عدد قليل من أصحابه (٥) ، ولم يحاول النصارى أن يطاردوا فلول

---

(1) Bozy : Hist. des Musulmans d'Espagne. 11, pp 144 — 5

ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ١٨٧ ، ص ١٩٥ — ٢٠١

(2) Lévi – Provençal : op. cit. 11. pp. 122 — 9

(٣) اقرأ تفصيلات عنها فى : ابن الأبار : الحلة السيراء ص ١٥٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٧٧ — ١٤٠

المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٧٨ (بولاق) ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٢

ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٦ — ٣٧

Dozy : Recherohes sur L'Hist. et la Littirature de L'Espagne, 1. pp. 156 — 70 (3. Ed.)

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ ، ص ٢٦٥

(5) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne. 11, 155 — 6

وانظر العبادى : المرجع السابق ص ٢١٠

الجيش الإسلامى خوفا من الكمائن ، ورغبة في الاستيلاء على المغانم والأسلاب الضخمة ، ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره (١) ، وصمم عبد الرحمن علي الفتك بكل من تسبب فى هذه الهزيمة ، ولم يكد يصل إلى قرطبة حتى أمر بصلب نحو ثلاثمائة من الفرسان (٢) ولم يكن لهذه الهزيمة أثر كبير فى موقف عبد الرحمن الذى سارع بجمع الشمل والعودة إلى الحرب ضد الاسبان ، فنجح في إنزال هزائم متوالية بهم وانتقم لما حدث له فى الخندق قبل ذلك، وفرض نفوذه على كل الجهات ، بل تدخل فى شئون الممالك المسيحية الأسبانية ذاتها . وأصبحت كلمته نافذة فيها (٣) .

وعلى عهد عبد الرحمن الناصر واجهت الأندلس من جديد الخطر النوماندى ، ولكنه فى هذه المرة جاء خطرا بحريا بريا فى آن واحد ، إذ هدد النورمان سواحل الأندلس بحملاتهم البحرية ، وفى نفس الوقت كانوا يعبرون جنوب فرنسا لمهاجمة الأندلس براء وذلك بعد أن نجحوا فى تأسيس دوقية نورمانديا فى شمال غرب فرنسا وجعلوها نقطة انطلاق لتهديد المناطق المجاورة (٤) ، وكان تأسيس هذه الدوقية فى نفس الوقت الذى تولى فيه عبد الرحمن الناصر الحكم فى الأندلس ، ويفهم مما أوردته بعض المصادر المعاصرة ، أن خطر النورمان تفاقم على الأندلس فى ذلك الوقت ، وأنهم

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٢

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١٥

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٧

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٧

(4) Haskins : op. cit p. 45

هاجموا ثغر سرقسطة ، أكثر من مرة على عهد عبد الرحمن الناصر [١] ، وإن كان خطرهم لم يتفاقم إلا بعد ذلك بكثير .

ولم تشغل هذه المهام الكبيرة عبد الرحمن عن الاهتمام بسياسته الداخلية أو الالتفات إلى أحوال البلاد داخليا ، فقد شيد العمائر ونظم الإمارة وصرف جانبا كبيرا من همته للقيام بمشروعات داخلية كبيرة ، فأنشأ الزهراء وأقام فيها وفي قرطبة القصور والجوامع والدور والمحلات ، ومصانع الأسلحة وغير ذلك ، وبلغت البلاد في عهده شأوا بعيدا في الرقي والعظمة والفخامة والرفاهية [٢] ، ونظم الأسطول والجيش واهتم بالشئون المالية والاقتصادية ، واستكثر من الرقيق الصقالبة والخدم والحشم ، وذكر بعض الرحالة أن الناصر كان أغنى ملوك عصره [٣] ، واستقبل سفراء الملوك والأباطرة وبالغ في إظهار الحفاوة بهم وإطلاعهم على عظمة الأندلس سياسيا وحضاريا وفكريا [٤] ، وأخيراً توفي عبد الرحمن الناصر بعد عصر حافل وعمر مديد ناهز الحادية والسبعين من عمره بعد حكم امتد قرابة خمسين عاما ، ودل عبد الرحمن على بعد نظر وحصافة ترتب عليها أن تجنبت الإمارة في عهده الثورات الداخلية

---

(١) العذري : ترصيع الأخبار ص ٧٢ — ٧٣

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٨ ، ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٢٣ — ٢٣٢

المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٤

ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٨

Leivi - Provençal ; op. cit. 11. p. 130

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٧

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٥

واندلاع الفتن والأحقاد ، كما اهتم بإكساب ابنه وولى عهده مهارة فى الشئون السياسية والإدارية كان لها فضل فى استمرار الحكم الأموى بأسبانيا رغم المصاعب الجمة وكوامن الانفصال [١] .

تولى الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله الخلافة الأموية بعد والده سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، وكان فى الثامنة والأربعين من عمره [٢] ، كما كان على دراية بشئون الحكم خبيرا بالسياسة ، نظراً لسابق اشتراكه مع والده فى تدبير شئون الدولة من قبل، فضلا عن أن والده كان قد عهد إليه بالإشراف على بناء الزهراء — ذائعة الصيت — فنجح فى هذه المهمة أيما نجاح، وفضلا عن ذلك كان الحكم الثانى مولعا بالقراءة منصرفا إلى تحصيل العلوم ، مغرما بكل ما هو جديد فى عالم الكتب ، معنيا بحيازة كل ما يؤلف فيها فى الشرق وفي الغرب على حد سواء [٣] ، حتى تكونت فى القصر الملكى بالزهراء مكتبة كبيرة ، حوت نحو أربعمائة ألف مجلد ، فى شتى الفنون والعلوم ، ورعى الحكم الثانى العلماء المبرزين فى كل فرع من العلوم وأغدق عليهم وبالغ فى إكرامهم ، وجذب الكثير منهم إلى بلاطه ، وأحاط نفسه بالعلماء والشعراء والأدباء ، وحرص على مجالستهم وتشجيعهم [٤] .

ولقد واجه الحكم الثانى نفس المشاكل والصعاب التى واجهت والده

(1) Jackson : op, cit, p. 42

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ س ٤٨٧ (القاهرة ١٩٠٦) ، ابن الأبار : نفسه ص ١٠٢

(3) Lewis : op. cit. p. 125

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٤١ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦١ — ٣٦٢
ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٦

عبد الرحمن الناصر وكانت سياسته الخارجية امتدادا لسياسة والده ، لاسيما تجاه الفواطم ومن والاهم فى المغرب ، وتجاه الممالك المسيحية الأسبانية فى الشمال (١) ، فعلى الرغم من أن الفاطميين جدوا فى ذلك الوقت فى فتح مصر للانتقال إليها ، وإخلاء الميدان فى المغرب أمام تحفز البربر وثوراتهم من ناحية ، وغارات الأمويين ودسائسهم من ناحية أخرى ، فضلا عن اقتناعهم باستحالة غزو الأندلس أو الخلاص من تدخل الأمويين فى المغرب (٢) ، إلا أن الحكم أولى سياسته تجاه الفواطم أهمية خاصة ، وحرص على تحصين ثغوره فى الجبهة الشرقية والجنوبية المواجهة للدولة الفاطمية والمعرضة لهجماتهم من إفريقية (٣)، فأشرف بنفسه على تحصينات المرية سنة ٩٦٤ م (٣٥٣ هـ) ، وتفقد بنفسه أحوال المجاهدين فى هذه الثغور ومدى استعداد المجاهدين فيها لصد أى هجوم من جهة الفاطميين . وكانت المرية قاعدة هامة للأسطول الأندلسى ، بل أعظم القواعد على الاطلاق ، وبلغ عدد السفن التى ترسو بها نحو ثلاثمائة سفينة وقطعة بحرية مجهزة للقتال (٤) .

وبانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر اعتبارا من سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) ، بعد فتحها ، خفت إلى حد ما حدة العداء بينهم وبين الأمويين فى الأندلس ، لأن الفاطميين تركوا الدولة الزيرية الصنهاجية تحاول جاهدة الحفاظ على نفوذها فى القسم الشرقى من المغرب فى ظل التبعية للفاطميين ، بينما سيطرت

---

(1) Bernhard and Whishaw : op. cit p. 155

(2) Lévi - Provençal ; op. cit. II, pp. 185 — 6

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٠٤ ، ابن الخطيب : الاحاطة ج ١ ص ٢٨٦ (١٩٥٦)

(٤) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٢٠٤ ،

ابن الخطيب : الاحاطة ج ١ ص ٤٨٦

القبيلة الأخرى المنافسة زناته على القسم الغربي حتى طنجة في ظل تحالف مع بنى أمية فى الأندلس (١) . وأخذ كل من الفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس يلعب دوره من وراء ستار ، ولكن هذه الأحداث أدت إلى نوع من توازن القوى بين الخلافتين ، وقل خطر الشيعة على المغرب الأقصى والأندلس وتنفست الخلافه الأموية حينئذ الصعداء (٢) .

ويبدو أن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر قد أدى إلى شعور زعماء زناتة فى المغرب الأقصى وبقايا الأدراسة هناك بنوع من الراحة ، فطمع هؤلاء فى الخلاص من سيطرة بنى أمية فى الأندلس وممارسة السلطة فى استقلال تام فى غيبة التهديد الفاطمى ، غير أن هذه السياسة لم تعجب الحكم المستنصر ، الذى كان ماضيا فى تأمين بلاده باحتلال المراكز الهامة المطلة على المضيق (٣) تحسبا لدرء أي خطر من جهة المغرب أو الفاطميين وكان معنيا بتأكيد وجوده في سبته وطنجة ومليلة ، ولما تجرأ الأدارسة ورفعوا راية العصيان ، وخلعوا طاعة بنى أمية تحت زعامة الحسن بن جنون (كنون) ، ومدوا نفوذهم إلى طنجة وبعض النواحي الأخرى،لم يتردد الحكم فى إرسال أساطيله وجيوشه عبر المضيق لإعادة الأوضاع إلى سابق عهدها ، ونزلت جيوش الأندلس سنة ٣٦١ هـ بسبته ثم ما لبثت أن هاجمت طنجة ، وأجبرت زعيم الأدارسة الحسن بن جنون على الفرار ، وتم لجيوش الحكم دخول المدينة فى صيف سنة ٩٧٢ م (٤) ، وإذا كان الأدارسة قد عادوا وجمعوا

(1) Chejne : Muslim Spain, its Hist. and Culture, p. 37 (Minneapolis 1973)

(2) Lévi - provençal ; op, cit II, p. 189

(3) Ibid, p. 188

(4) Ibid, p. 191

شملهم وهاجموا جيوش الأندلس على غرة قرب طنجة وأنزلوا بها الهزيمة فان ذلك قد أوغر صدر الحكم الذى صمم على الثأر منهم واستعادة سلطته كاملة فى المغرب ، فبعث بجيوش أخرى يقودها وزيره وقائده غالب بن عبد الرحمن(١) الذى عبر المضيق إلى طنجة ، واجتمعت معه أساطيل الأندلس للمعاونة وراح غالب يجتاح معاقل الأدارسة ، ثم حاصر الحصن الذى لاذ به الحسن بن جنون وشدد الحصار عليه حتى اضطر الحسن إلى الإستسلام ، وطلب الأمان فأجيب إلى طلبه ، دخل غالب ومن معه الحصن ، وذلك فى مارس ٩٧٣ م (٣٦٣ هـ)، ودعا فيه للخليفة الحكم المستنصر (٢) . وهكذا تابع الخليفة الحكم سياسته الرامية إلى السيطرة على مضيق جبل طارق ، ومنع أى ثائر من انتقاص سيادته فى هذا الجزء ، لأنه فيما يبدو كان لا يزال يعتقد فى وجود الخطر الفاطمى من هذه الجهات (٣) .

أما بالنسبة لسياسة الحكم تجاه الدول المسيحية الأسبانية ، فانها كانت أيضا امتدادا لسياسة والده عبد الرحمن ، فحينما نقضت ليون شروط الصلح المبرم بينها وبين عبد الرحمن الناصر ، واعتقد ملكها أن الخليفة الجديد رجل علم وفلسفة لا دراية له بالحرب ، ولا يهتم بها — تحالف مع مملكة نبرة (نافار) ، كما تحالف مع إمارة قشتالة التى كانت لا تزال حديثة عهد (٤) ،

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١٨

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ، السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٨٦ — ٨٨

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٦١

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤ — ١٢٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٧٥

فلم يكن أمام الحكم المستنصر إلا أن يعيد هذه الممالك إلى جادة الصواب ، ولهذا بادر بإرسال جيوشه إلى الشمال، حيث اجتاحت الممالك الثلاث، واستولت على بعض الحصون (١) ، ولا سيما الحصون التي كانت مثار تنازع منذ عهد عبد الرحمن . وهكذا أثبت الحكم المستنصر أن همته لا تقل عن همة والده تجاه هذه الممالك المسيحية (٢) .

وواجه الحكم الثاني أيضا خطر النورمان من فرنسا بعد أن استقروا في دوقيتهم الجديدة في شمال غرب فرنسا (نورمانديا) ، فإذا لم يكن خطرهم قد تفاقم على عهد والده عبد الرحمن الناصر ، فإنهم عادوا في هذه الآونة لتهديد الأندلس عبر سواحلها الغربية وحدودها الشمالية (٣) ، غير أن الحكم احتاط لذلك ببث الجواسيس والمخبرين في جهات شتى في الشمال والشمال الغربي يوافونه بتحركات المجوس (النورمان) ، ويحذرونه عند تقدمهم لتهديد سواحل الأندلس ، فكانت الأخبار تصله أولا بأول ، كما أمر الحكم بصنع مراكب على هيئة مراكب النورمان ، ووضعها في نهر الوادي الكبير استعدادا للقائهم بها على نفس طريقتهم ، وطبقاً لأسلوبهم في الحرب (٤) . كذلك اهتم كثيراً بإرسال الصوائف البحرية والبرية التي تجوب سواحل الأندلس في صيف كل عام ، وتتجول برا في الجهات المعرضة لهجومهم ووضع على رأس هذه الحملات خير قادته وجنده وأبرز مقاتليه . وجاءت أولى الهجمات النورمانية

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٣٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٤

(2) Lane - poole : op cit. pp. 152 — 5

(3) Haskins ; cp. cit p 45

(٤) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٣٩

على سواحل الأندلس الغربية سنة ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) ، على عهد الحكم الثانى حيث هاجموا سهول لشبونة وجنوب البرتغال الحالية ، ودارت معركة برية هامة فى سهول لشبونة ، استشهد فيها من المسلمين عدد كبير (١) ، وقتل مثلهم من النورمان وما لبثت السفن النورمانية أن انسحبت حاملة معها بعض الأسرى (٢) ، غير أن الأسطول الأندلسي ما لبث أن فاجأها وحطم الكثير منها ، واستخلص الأسرى منهم (٣) ، وتشير المصادر المعاصرة إلى أن هذه الغارة قامت بها ثمانية وعشرين سفينة نورمانية تحمل أكثر من ألفى محارب نورمانى قتل أكثرهم ولاذ القليل منهم بالفرار (٤) ، غير أن النورمان ما لبثوا أن عادوا لمهاجمة الأندلس مرتين بعد ذلك فى سنة ٩٧١ (٣٦٠ هـ) ، وفى السنة التالية لها ، غير أنهم فى المرتين لم يستطيعوا النزول على السواحل الأندلسية ليقظة الأسطول الأندلسى الذى تصدى لهم و بدد شملهم، وأجبرهم على الإرتداد (٥) .

غير أن الخليفة الحكم المستنصر ما لبث أن أصيب بالفالج فى أواخر أيامه، فاقعده المرض عن ممارسة السلطة، كما ينبغى فأستأثر بها الوزراء والحاشية والنساء ، واضطربت شئون الدولة إلى حد ما ، وما لبث الحكم أن جاز إلى

(1) Schmitz : Enc Isl art " Al - Hakam "
(2) El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 162
(٣) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٣٩
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٠
(٥) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٣٩ ،
El - Hajji : op. cit. pp. 162 — 3

ربه سنة ٩٧٦ م (٣٦٦ هـ) (١) ، بعد أن حكم نحو خمسة عشر عاما ، تاركا طفلا صغيرا دون العاشرة هو هشام المؤيد ، الأمر الذى تسبب فى فترة ضعف واضمحلال ، لتبدأ مرحلة جديدة فى عمر الخلافة الأموية فى أسبانيا (٢) .

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٢ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ص ١٠١
ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٥٦

(2) Schmitz : op. cit, " Al - Hakam "

الباب الثالث

الاشتباكات العسكرية بين الفرنجة والأمويين

الفصل الخامس : الاشتباكات بين الجانبين على المستوى الرسمى

الفصل السادس : الاشتباكات بينهما على المستوى الشعبى

الفصل الخامس

الاشتباكات بين الفرنجة والأمويين على المستوى الرسمي

كان لوقعة تور — بواتيه أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) ، بين الفرنجة بقيادة شارل مارتل والمسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، وما حدث من هزيمة المسلمين فيها ، أثر في ارتداد المسلمين إلى ما وراء البرنيه وضعف النفوذ الإسلامي إلى حد كبير والتواجد الإسلامي في جنوب فرنسا (١) . حقيقة عاد المسلمون مرات إلى الغزو في جنوب فرنسا ، واجتياح المناطق الواقعة على الناحية الأخرى من جبال البرنيه (البرتات) ، إلا أن هذه العودة كانت موقوتة ، وكان أثرها باهتا في إمكان تثبيت أقدام المسلمين في تلك الجهات ، ومتابعة نشاطهم فيها (٢) ، كما كان من نتائج هذه الواقعة أيضا أن تبنت دولة الفرنجة على عهد ببين القصير سياسة جديدة ترمي إلى تعضيد روح الثورة والفتنة في أسبانيا المسلمة ذاتها، توطئة للانقضاض عليها لطرد المسلمين منها ، بعد أن انهارت سيادتهم في جنوب فرنسا، وأصبح في الإمكان إحداث ذلك أيضا في أسبانيا (٣) .

وكان المسيحيون في سبتمانيا قد وثبوا تحت قيادة قوطي يسمي انسمندس Ancemundus وبمساعدة الجيش الفرنجي على العرب في سبتمانيا وطردوهم من أهم مدنها سنة ٧٥٢ م أي في السنوات القليلة قبل وصول عبد الرحمن الداخل

(1) Camb. Med Hist. V. II, pp. 129 — 130

(2) Scott : Hist. of Moorish Empire in Europe, 1. p. 309

(3) Oman : op. cit p. 295

إلى الأندلس ، واستعاد الفرنجة مدن نيم وآجد وبيزلى وماجلوت ، وفرضوا الحصار أيضا على أربونة ، وصمدت المدينة لحصاناتها ، ونجح المسلمون خلال الحصار فى قتل القائد القوطى ، وطال حصار المدينة نظرا لانشغال ببن القصير فى إخماد بعض الثورات فى بلاده (١) . وكان أول عمل قام به عبد الرحمن الداخل بعد استتباب الأمر له عام ٧٥٨ م (١٤٠ هـ) ، أن حاول فك حصار أربونة ، فأرسل فرقة من جيشه لذلك ، ولكنها فشلت فى إخراج المدينة من محنتها ، وقضى مسيحيوا جبال البرنية على هذه الفرقة ، وأعقب ذلك تآمر المسيحيين من أهل المدينة مع ببن القصير لتمكينه من دخول المدينة ، وتمت المؤامرة ودخل الفرنجة مدينة أربونة ، بعد أن أجهز المسيحيون على الحامية الإسلامية فيها سنة ٧٥٩م ، وفقد المسلمون هذه المدينة بعد أن خضعت للحكم الإسلامى نحو أربعين عاما ، وأنعش هذا الفتح مملكة الفرنجة على عهد ببن القصير ، واعتبرت جبال البرنية الحدود الطبيعية لبلادها (٢) .

ولقد تابع شارلمان ، الذى عاصر عهود ثلاثة من الأمراء الأمويين فى أسبانيا هم : عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم الربضى ، تابع سياسة والده ببن القصير من قبل الرامية إلى تأييد الثوار فى أسبانيا المسلمة وتعضيد روح الثورة والفتنة ضد حكامها وولاتها ، تحقيقا لنفس الهدف وهو محاولة طرد المسلمين منها ، وإعادتها إلى حظيرة المسيحية من جديد إن أمكن

(1) Deansely: A Hist. of Early Med. Europe, p. 294

وانظر أيضا : طرخان : المسلمون فى أوربا ص ١٦٧

(٢) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٠٩ ، طرخان : المرجع السابق ص ١٦٨ ،

Deanesly ; op. cit. p. 295

ذلك (١)، وعنى شارلمان بتنفيذ هذه السياسة عناية تامة على الرغم مما كان يشغله هناك فى القارة الأوربية من مشاريع سياسية وعسكرية وحروب طاحنة بينه وبين اللمبارديين فى إيطاليا والسكسون فى بعض جهات ألمانيا والبافاريين والآفار على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية(٢)، ولهذا كان يرقب الأحداث فى أسبانيا متحفزا متحينا الفرصة المواتية لإخراج هذه السياسة إلى حيز الوجود .

ولقد واتته الفرصة على عهد عبد الرحمن الداخل حين اندلعت ثورة فى شمال الأندلس ضد الأمير عبد الرحمن سنة ٧٧٤ م (١٥٧ هـ)، بقيادة سليمان ابن يقظان الكلبى أو الأعرابى والى برشلونة وجيرونة (جيرندة)، ومعه أبو ثور صاحب وشقة (٣)، الذى كان على خلاف مع عبد الرحمن لميل هذا إلى المضرية، ومعاداته لليمنية التى ينتمى إليها هذا الوالى الأعرابى، وكذلك الحسين بن يحيى الانصارى والى سرقسطة، الذين تحالفوا على قتال الأمير عبد الرحمن منتهزين فرصة انشغاله بمحاولة قمع الثورات التى اندلعت فى أنحاء مختلفة من الأندلس لاسيما فى الجنوب، ومعتمدين على طبيعة الجهات الشمالية ووعورتها وما يكتنفها من جبال فى الاستمرار فى الثورة لتحقيق أهدافهم، وانضم إليهم ثائر يدعى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى، الذى أرسله الخليفة العباسى المهدى إلى الأندلس لمحاولة استعادتها من

---

(1) Oman : op cit p. 352

(2) Mahrenholtz " The Empire of Charlemagne " in B. H. V. VII, p. 3482

(٣) ديفز : شارلمان ص ٢٩٦ (ترجمة العريني)، طرخان : المسلمون فى أوربا ص ١٧٣ .

عبد الرحمن. (١) . وعلى الرغم من انشغال عبد الرحمن حينئذ في محاربة بعض الثوار إلا أنه جهز جيشا وأرسله إلى الشمال لمقاتلة الثوار هناك ، تحت قيادة أحد كبار أعوانه ويدعى ثعلبة بن عبيد الجذامى(٢) ، إلا أن سليمان بن يقظان نجح فى إلحاق الهزيمة بهذا الجيش بل أسر قائده وبدد شمل قواته سنة ٧٧٥م (١٥٨ هـ) ، وزاد هذا النصر فى حماسة الثوار فى الشمال وأذكي روح العناد فى نفوسهم وأطمعهم فى الاستمرار في مناوأة حكومة قرطبة (٣) .

ويبدو أن سليمان بن يقظان وحليفه الحسين بن يحيي والى سرقسطة ، لم يركنا إلى هذا النصر الموقت لما يعلمانه من عزم الأمير عبد الرحمن وقوة بأسه، وروح الانتقام لديه ، لهذا فكرا فى الاعتماد على قوة خارجية تسند الثورة فى الشمال ، وتساعد على تحقيق أهدافها فطلبا العون من عاهل الفرنجة شارلمان(٤). وتسير الروايات إلى أن سليمان بن يقظان خرج بنفسه ومعه نفر من أعوانه وأصحابه للقاء شارلمان أو كما تقول الرواية العربية كارل الأكبر فى ربيع سنة ٧٧٧ م (١٦٠ هـ)، وكان شارلمان حينئذ فى ساكس فى مدينة بادربورن. فى شمال غرب ألمانيا بعد أن أنزل بالسكسون أشد أنواع التنكيل وأجبرهم على اعتناق المسيحية (٥) ، وفى زهوة الانتصار تقدم سليمان إلى شارلمان. عارضا عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن الداخل مقترحا عليه غزو المناطق.

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٤

(2) El - Hajji : op. cit. p. 141

(3) Ibid, p. 141

(4) Oman : op. cit. p. 352

(5) Scott : op. cit. 1, p. 304

Heyck : " Rise of the Frankish dominion " B. H. VII, p. 3480

الشمالية فى الأندلس ، متعهدا بمعانته هو وحلفـائه ، وتسليمه ما فى حوزتهم من مدن لاسيما سرقسطة ، وتسليمه كذلك أسيره ثعلبة بن عبيد (١) ، ليكون ورقة رابحة يمكن مساومة عبد الرحمن عليها .

جاءت الدعوة إذن لشارلمان ، كما تؤكد الروايات العربية واللاتينيةالفرنجية من قبل سليمان بن يقظان الكلبي وحلفـائه ، ولم تكن من قبـل أمير ليون (جليقية) النصرانى كما ذهبت بعض الروايات الأسبانية النصرانية ، التى لاقت رواجا وتأييدا من بعض المؤرخين المحدثين (٢) ، وإن لم يكن ذلك مستبعدا فى ظل تحفز النصارى الأسبان لاسترداد أسبانيا من المسلمين ، ودأبهم على مضايقة إمارة قرطبة كلما سنحت الظروف (٣) ، إذ تصرح المصادر الإسلامية المعاصرة بأن الدعوة جاءت من قبل سليمان ، الذى استدعى قارلة (كارل أي شارلمان) ملك الفرنجة ، واعدا إياه بتسليمه برشلونة وسرقسطة (٤) ، وتؤيدها الرواية اللاتينية التى اهتمت بذكر خضوع سليمان وأعوانه للملك الفرنجة وانضوائهم تحت حمايته (٥) .

غير أن موافقة شارلمان على هذه المقترحات لم يكن اقتناعا منه بقضيةالثوار فى شمال أسبانيا ، ورغبة فى معاونتهم لتحقيق أهدافهم هنـاك ، وإنمـا كانت لتنفيذ سياسته فى أسبانيا وتأمين حدوده الجنوبيـة (٦) ، وتحقيق مشروعه فى

(1) El - Hajji : op. cit. p. 141

(2) Lane – poole : op. cit. p. 33

(3) Oman : op. cit. p. 352

(٤) انظر ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥ ، ص ٢١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤

(5) Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, p. 94

وانظر كذلك عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ١٢٠

(6) Mahrenholtz : op. cit. p. 3485

إحياء الإمبراطورية الرومانية الذي طالما سعى إلى تحقيقه ، فضلا عن أن ذلك كان عنصرا هاما في مؤامرة دولية كبيرة واسعة النطاق دبرت للقضاء على عبد عبد الرحمن شاركت فيها الخلافة العباسية على عهد المهدى الذى تابع سياسة المنصور لاسترداد الأندلس من عبد الرحمن ، ولقد كان تقارب الخلافة العباسية من الدولة الكارولنجية الفرنجية ، واشتراكهما في هذه المؤامرة معا ، يرجع إلى عدائهما المشترك للدولة الأموية في أسبانيا من ناحية ، وضد الدولة البيزنطية المتاخمة للعباسيين من ناحية أخري (١) . وتذكر الرواية الفرنجية أن الملك بيبن القصير كان قد سعى من قبل إلي توطيد علاقته بالخلافة العباسية ، وأرسل في سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد في هذا الشأن ، استقبلت بحفاوة بالغة ، ورد الخليفة المنصور علي ذلك بإرسال سفارة إلى ملك الفرنجة بعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام (٢) ، فاستقبلت في البلاط الفرنجى في مدينة متز ، بحفاوة أيضا ، وتابع شارلمان سياسة والده بعد ذلك ، فكان بينه وبين الرشيدمكاتبات وسفارات ورسل وهدايا (٣) .

لم تكن موافقة شارلمان على حملته في شمال أسبانيا استجابة لدعوة سليمان

---

(١) العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٦

(٢) Deanesly : op cit, p. 294 , Pirenne : op. cit. p. 160

ديفز : شارلمان ص ٢٩٥ (ترجمة العريني) ، طرخان : المسلمون في أوربا ص ١٧٠

(3) Reinaud ; op. cit. p. 89, 92

Lyon, Rowen, Hamerow : A Hist. of the western world. p 113

واقرأ تفصيلات أكثر من العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان في :

Lot et Ganehof : L'Hist du Moyen Ages d. Glotz, I, p. 483

Lévi - Provençal : op. cit, 1, p. 121 — n. 1

فحسب ، بل دخلت فى هذه المسألة عناصر ومصالح دولية ، وسياسات عليا لدولة الفرنجة ، واستغل شارلمان الروح المسيحية المتوثبة وحرصه على أن يحارب فى سبيل المسيح (١) ، سواء أكان ذلك فيما وراء الراين والدانوب ضد قبائل السكسون (٢) ، وقبائل الآفار (٣) ، أو ضد الدولة الإسلامية فى أسبانيا ، وغذت الكنيسة هذا الاتجاه ، وأذكت روح القتال ضد من أسمتهم الكفرة فى الجنوب ، فإذا كان الفرنجة قد نجحوا فى طرد المسلمين من جنوب فرنسا إلى ما وراء البرنيه ، فلا مانع من تتبعهم فيما وراء البرنيه للقضاء على ريحهم ، وإعادة الصليب إلى ربوع أسبانيا أو على الأقل جزئها الشمالى حماية للدولة المسيحية فى فرنسا من ناحية ، ومحاولة بعث الإمبراطورية الرومانية القديمة من ناحية أخرى (٤) . وإذا أفسحنا صدرنا لرواية أخرى فان شارلمان ساءه ما بولغ فى تصويره من شكاوى النصارى الأسبان الذين قيل أنهم يعانون ضغطا وإرهاقا من المسلمين ، على الرغم من اعتراف مختلف الروايات بتسامح الإسلام والمسلمين هناك (٥) . ويبدوا أن سليمان وحلفاءه اعتقدوا أنهم فى ظل حماية الفرنجة يمكن أن يدعموا انفصالهم بالمناطق الشمالية ويكرسوا استقلالهم غير واعين لعناصر هذه المؤامرة الكبيرة ، ولهذا فقد بادر سليمان

(١) انظر نص خطاب أرسله شارلمان إلى هما با بهذا الصدد ترجمه إلى الإنجليزية:

R. H. C. Davis : from Duumler, Epistolae karolini Aevi (M. G. H.) 11. no. 93 — in Davis : cit. p. 146

(2) Einhard : Life of Charlemagne, Chapter 7, — In The Med. world, by Cantor, p. 141 — 2

(3) Oman : op. cit. p, 356

(4) Scott : op. cit 1, p 405

Lévi - proençal : op cit p. 120

(5) Jackson : op cit p. 12, p. 30

بتسليم أسيره ثعلبة بن عبيد — قائد عبد الرحمن — إلى شارلمان عنوانا للثقة والتحالف ، وتنفيذا لما سبق الاتفاق عليه ، فسارع شارلمان فسجن ثعلبة في إحدى القلاع الفرنسية قبل تحركه تجاه الجنوب ، وهذا هو الأرجح في رأى مؤرخ محدث (١) .

وجرى الاتفاق بين الثوار وشارلمان على أن ينحدر شارلمان بجيوشه إلى شمال أسبانيا عابرا جبال البرنيه ، متجها إلى مدينة سرقسطه فيسلمها له سليمان بن يقظان الأعرابي لتكون قاعدة لانطلاق الجيوش الفرنجية لتدمير عبد الرحمن (٢) ، وفى نفس الوقت ينزل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى من المغرب فى أسطول بحرى ، وجيش كبير من البربر على الساحل الشرقى للأندلس فى مدينة تدمير (مرسية) حيث يبدأ هجومه فى هذه الجهات ، وبذا يجرى تطويق عبد الرحمن للقضاء عليه ، ثم يجرى إعلان تبعية الأندلس لصاحبها الشرعى الخليفة العباسى (٣) . ويبدو أن عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى كان أكثر المتآمرين تحرقا للقضاء على عبد الرحمن ، فقد سارع بتنفيذ الشق الخاص به فى المؤامرة ، فبادر بالنزول بجيشه وأسطوله على ساحل تدمير (مرسية) وذلك قبل وصول شارلمان ، وحينئذ وجد الأمير عبد الرحمن الفرصة مواتية للقضاء على أحد عناصر المؤامرة قبل أن تستكمل حلقاتها ، ويهوى إليه حلفاؤه ، ويجتمع الأعداء على حربه ، وكانت هذه إحدى مزايا عبد الرحمن الداخل ، فى أنه يعاجل أعداءه فرادى قبل أن يجتمع شملهم وينازلهم فرادى

---

(1) El - Hajji : op. cit. p. 144 (N 1)

(2) Mahrenholtz : op. cit. p 3483

(3) Scott : op. cit. I, p. 403

واحداً واحداً ، قبل أن يجمعوا على حربه ، ومن هنا كان النصر حليفه دائماً (١) .

بادر عبد الرحمن بالمسير إلى ابن حبيب الفهرى ، قبل أن ينحاز إليه حلفاؤه ، ولم يجد ابن حبيب بدا من الاستغاثة بوالى سرقسطة سليمان بن يقظان ابن الأعرابى ، غير أن هذا لم ينهض لنجدته ، متذرعا بأنه لا يستطيع أن يترك ولايته قبل وصول شارلمان كما تقضى الخطة ، وهو فى حقيقة الأمر كان يخشى بأس عبد الرحمن ، ويعلم قوة شكيمته ومبلغ عزمه ، ويخشى عاقبة لقائه (٢) ، وكان يريد الاحتماء بقوات شارلمان ويحارب فى ظل جيشه ، فلما أتته الدعوة من ابن حبيب أصم أذنيه ، ولم ينهض لنجدته ، ووجدها عبدالرحمن فرصة لإنزال الضربة بخصمه ابن حبيب ، فقد سحق جيشه وقتله ، وأشعل النيران فى أسطوله قرب ساحل تدمير ، ليقضى على عنصر هام من عناصر المؤامرة ، ثم بدأ يلتفت لسليمان (٣) .

وكان شارلمان قد انتظر حتى انقضى فصل الشتاء ، ثم سار فى قواته إلى جنوب فرنسا ، وقضى أعياد الفصح فى أكوتين بقرب بوردو ، وفى أوائل الربيع سنة ٧٧٨ (١٦١ هـ) ، تقدم على رأس قواته المؤلفة من جنود نستريا ، وفرق بريتانيا وأكوتين وبعض اللمباردين والجرمان ، وانحدر فى ولاية أكوتين ، حتى وصل إلى نهر الجارون ، وهناك قسم جيشه إلى قسمين (٤) .

---

(1) Lane - poole : op cit. p. 33

(٢) ابن عذارى : البيان ص ٥٦

(3) Lane - poole ; op. cit p. 33

(4) Oman : op. cit pp. 352 — 3

Hoyt and Chodorow : op. cit, pp. 152 — 4

قسم يقــوده بنفسه ، وتقرر أن يعبر جبــال البرنيه (البرتات) من جهتهــا الغربية ، عبر الطريق الرومانى القـــديم ، فوق آكام « جان دى لابور » الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة (١)، والقسم الثانى تحت قيادة أحد كبار أعوانه ، وتقرر أن يعبر البرنيه من جهتها الشرقية (٢)، وتقرر أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الايبرو ، أمام مدينة سرقسطة حيث يتم اللقاء مع حلفاء شارلمان من المسلمين . وفى هذه الأثناء بلغه نبــأ مصرع ابن حبيب الفهرى والقضاء على جيشه ، بعــد خلافه مع سليمــان بن الأعــرابى ، وساء شارلمان ذلك كثيرا ، إلا أنه تقدم على رأس قواته تجاه جبال البرنيه (٣) .

ولم يجد القسم الشرقى من جيش شارلمان صعوبة فى تقدمه نحو شمال أسبانيا إذ أنه كان يتقدم فى منطقة من مناطق نفــوذ الفرنجة منــذ أيام بيبن القصير ، حين تقلص نفوذ المسلمين عنها ، ولهذا سار هذا القسم فى بلاد صديقــة رحب به أهلها آملين فى عون الفرنجة وحمايتهم (٤) ، لكن مسير القسم الآخر من جيش شارلمان جهة الغرب ، تحت قيادة شارلمان نفسه أرهص بأن عاهل الفرنجة، كان عازما على تصفية القوى فى تلك المناطق لضم هـــذه الجهــات لدولة الفرنجة ، أو على الأقل إخضاعها تحت سلطان الفرنجة (٥) ، ذلك أن الجهــة الشمالية الغربية والمناطق الغربية الملاصقة لجبال البرنيــة (البرتات) ، كانت فى

(1) Lévi - Provençal : op. cit. I. pp 12
Mahrenholtz : op. cit p. 3481

(2) Oman : op cit. p. 352

(٣) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربة ص ١٦٥

(4) Oman . cit p. 352

(5) Lévi - Provençal : op. cit. p 124

حوزة البشكنس أو الشعبة المعروفة منهم بالنافاريين أصحاب بنبلونة (١) — أو نافار الحديثة — وكان هؤلاء البشكنس يحاولون دائما الحفاظ على استقلالهم منذ عهد القوط الغربيين ، وكثيراً ما رفعوا راية العصيان فى سبيل ذلك ، وساعدتهم طبيعة بلادهم الوعرة وجبالهم الشاهقة ، وكثيراً ما أنفوا الدخول تحت طاعة أية قوة حتى ولو كانت قوة مسيحية (٢) .

وإذ تقدم شارلمان تجاه بنبلونة وبلاد النافاريين من البشكنس أو الغسقونيين وهم من المسيحيين ، فقد أعطى فرصة لأولئك المنادين بأن شارلمان لم يكن خارجا فى حملته على أسبانيا من أجل الدين ونصرة المسيحية ، وإنما كان يتخذ ذلك ستارا لتحقيق أهدافه السياسية وإخضاع أسبانيا وحماية فرنسا ، وإحياء مشروعه القديم فى بعث الإمبراطورية الرومانية (٣) . حقيقة أكدت الروايات أن شارلمان عرض مشروع حملته الأسبانية على البابا قبل خروجه ، وأيده البابا فى ذلك ، إلا أن ذلك لا ينفى أن شارلمان كان يهدف إلى تحقيق مصالح سياسية عليا أكثر مما كان خارجا من أجل المسيح ونصرة الدين ، كما يهلل لذلك كثير من المؤرخين . فقد تقدم شارلمان نحو بنبلونة ، وألقى الحصار عليها ، ثم ما لبث أن استولى عليها ، ثم سار تجاه سرقسطة (٤) ، فخرج إليه وإليها المتآمر سليمان بن يقظان بن الأعرابى للقائه ، خارج المدينة وسلم إليه بعض الرهائن ، كما خرج لاستقبال شارلمان أيضا حاكم وشقة ،

---

(1) Ibid : p. 128

(٢) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ١٠٧ (بيروت ١٩٦٦)

(3) Lévi - Provençal ; op. cit. 1 p. 120
Hoyt and Chodorow ; op cit. p. 151

(4) El - Hajji : op. cit. p. 145

وقدم إليه أخاه وولده كرهاًن ، فسار شارلمان إلى سرقسطة وفى صحبته حلفائه من المسلمين ، وعلى رأسهم سليمان (١) .

وفى نفس الوقت تقدم القسم الآخر من جيش شارلمان ناحية جيرندة (جيرونا) وبرشلونة واتجه غربا إلى سرقسطة للقاء شارلمان وبقية القوات، واكتمل جيش شارلمان على مشارف المدينة ، التى أمل شارلمان اتخاذها قاعدة لعملياته فى أسبانيا ، معتقداً أن حلفاءه المسلمين سيسلمونها إليه ، ويتعاونون معه لتحقيق بقية أهدافه (٢) ، ولكنه فى حقيقة الأمر كان قد أسرف فى التفاؤل ، ذلك لأن أهل المدينة ساءهم أن تسلم مدينتهم لملك نصرانى ، وأنفوا من الدخول تحت حماية الفرنجة المسيحيين ، ومعاونتهم ضد إخوانهم المسلمين، فى أسبانيا ، وفى نفس الوقت دب الخلاف بين الثوار أنفسهم أو قادة الثورة فى الشمال ، فقد تغيرت الأمور فى تلك الآونة ، وحدث شقاق بين الحسين بن يحيى الأنصارى وبين حليفه سليمان بن الأعرابى ، ويبدو أن الحسين بن يحيى هذا خشى عاقبة التورط فى حلف مع الفرنجة (٣) ، بما يسببه ذلك من إيذاء المشاعر الإسلامية فى المدينة ، وما يمكن أن يترتب على هذا التورط عند انسحاب الفرنجة فآثر تعديل موقفه فى اللحظات الأخيرة حين أيقن بمسير الفرنجة نحو المدينة ، وربما نقم الحسين بن يحيى على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى اتخذه سليمان من الفرنجة (٤) ، فبيت النية على التخلى عنه معتمدا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٤

(2) Scott : op. cit. I, pp. 406 — 7, Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 128 — 9

Mahrenholtz : op. cit pp. 3483 — 4

(3) El - Hajji : op. cit. p. 145

(٤) عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٤

على ما سوف يلقاه من تعضيد المسلمين فى سرقسطة ، وتأييدهم ، وتحصن الحسين بن يحيي الأنصارى فى سرقسطة وأغلق أبوابها ، ورفض استقبال شارلمان وحليفه سليمان (١) .

ولما وصل شارلمان إلى سرقسطة وجد المدينة متحفزة للدفاع والمقاومة ، ماضية فى محاولة صده وإجباره على الارتداد ، ولهذا فقد بادر بعبور نهر الايبرو إلى الضفة الأخرى ، وأخذ يهاجم المدينة من مواضع مختلفة ، ولكن المدينة صمدت وردت كل هجماته(٢) ، ولم يستطع حليفه سليمان أن يفعل شيئا أو يقدم أية مساعدة أو يقنع الحسين بن يحيي بفتح أبواب المدينة ، ولهذا أخذ شارلمان يرتاب فى نية سليمان ، وخشى أن يكون ضالعا فى مؤامرة ضده ، فبادر بالقبض عليه وسجنه (٣) ، وأخذ يتفقد الجهات المجاورة فألفاها وهادا وهضابا ، ومناطق وعرة ولهذا لم يشأ أن يغامر بالدخول فى معارك فى تلك الجهات ، وظل محاصرا المدينة فترة ثم بدأ يرتد عنها منسحبا نحو الشمال الشرقى ، وذلك فى شهر يوليو سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٦١ هـ) (٤). والواقع أنه لم تجر بين الفريقين مواقع ذات أهمية أو اشتباكات ذات شأن ، ولعل ذلك هو الذى أدى إلى تضارب الروايات وتعددها ، فهل قرر شارلمان الارتداد من تلقاء نفسه أو لظروف طارئة ، أم أن تلك الاشتباكات على على قلتها أقنعته بعدم جدوى الحصار ، وأرغمته مضطراً إلى فك حصاره

(1) Deanesly : ep. cit. p. 352

(2) Oman ; op cit. p 353

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ س ٦٤ ،

Lévi - Provençal : op. cit. I, 127

(4) Mahrenholtz : op, cit. p. 3484

والعودة من حيث أتى ؟ أم أنه وجد مصاعب فى تموين جيشه لكبره من ناحية و بعد المسافة بينه و بين بلاده من ناحية أخرى، مع تحفز البشكنس ضده، وعداء المسلمين من حوله ؟ أكان ذلك سبب عودته المفاجئة أم أسهمت هذه العوامل كلها فى إرغامه على الارتداد ؟

الواقع أنه يمكن اعتبار هذه كلها أسبابا لعودة شارلمان وارتداده عن المدينة بجانب سبب هام ركزت عليه الروايات اللاتينية بصفة خاصة (١) ، هو أنه بلغه فى تلك الآونة أنباء هامة من بلاده مفادها أن قبائل السكسون ، قد عادت إلى مشاغباتها وثورتها ، وارتدت عن المسيحية ، وبدأت من جديد تعيث الفساد فيما حولها (٢)، تحت قيادة زعيم يدعى وتكند Wittekind ، الذى تقدم على رأس قواته حتى وصل إلى كولون Cologne (٣)، ويضيف بعض المؤرخين المحدثين أن شارلمان قرر العودة بعد يأسه من معونة العباسيين (٤) ، ولكن يبدو أن عودة السكسون إلى مشاغباتهم وطرحهم الطاعة ، كان له ضلع فى عودة شارلمان ، بعد أن علم بأنهم تحت قيادة زعيم جديد استولوا على مدينة Deutz (دتز) ، المقابلة لمدينة كولونيا على نهر الراين (٥) . وعندئذ قرر شارلمان العودة إلى بلاده لمعالجة هذه المسألة ، ودرأ هذا الخطر قبل أن يستفحل ، فارتد شارلمان عائدا ، مصطحبا سليمان بن يقظان بن الأعرابى .

---

(1) Einhard : op. cit p. 143

(2) Ibid : p. 141

(3) Lane - Poole : op cit. p. 34

(4) Deanesly : op. cit. p. 352
Lévi - Provenç.l ; op. cit. 1, p. 129

(5) Dozy : Hist. des Musulmans D'Espagne, 1, p. 379 (Leiden 1932)

كأسير حرب ، ملقيا عليه التبعة في فشل حملته ، كما اصطحب معه عدداً آخر من الرهائن . ويذكر المؤرخون المحدثون أن هذا هو السبب الحقيقي لارتداد شارلمان ، لأنه كان يولي أمر إخضاع السكسون أهمية خاصة (١) ، ويحاول إدخال هذه القبائل في حظيرة المسيحية ، والقضاء على مشاغباتها هناك على ضفاف نهر الراين ، ولهذا لم يتردد في قطع مشروعه والعودة مسرعا إلى بلاده للقضاء على ذلك الخطر (٢) .

قرر شارلمان العودة من نفس الطريق الذي سلكه في المجيء مارا ببنبلونة ، على الرغم من أن النافاريين البشكنس كانوا في تحفز منذ هزيمتهم على يد شارلمان ، ولهذا فقد عادوا إلى جمع فلولهم وعزموا على الدفاع عن مدينتهم واستقلالهم ، خاصة بعد أن شجعهم صمود مدينة سرقسطة وواليها الحسين بن يحيي في وجه شارلمان ، وإرغامه على الارتداد (٣) ، على حين كان شارلمان قد قرر إخضاع هذه المدينة تماما ، والقضاء على مقاومة البشكنس ، وتمهيد الطريق أمام جيوشه ، لو فكر في إعادة الكرة على أسبانيا في وقت آخر ، ولعل هذا هو السبب الذي دفعه إلى العودة إلى محاربة البشكنس ، وإخضاع بنبلونة حاضرتهم (٤) ، غير أن النافاريين في هذه المرة ، كانوا أكثر شراسة في حربهم ضد شارلمان ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء النواحي المجاورة للتعاون معا في دفع الخطر المشترك ، وعلى رأسهم أبناء سليمان بن الأعرابي أسير شارلمان ، الذين جدوا في محاولة فك أسر والدهم ، ويحتمل أن

(1) Hoyt and Chodorow : op cit. pp. 15? — 4

(2) El - Hajji ; op. cit. p 145

Mahrenholtz: op cit. op. 3482

(3) Oman : op. cit. p. 353

(4) Scott : op. cit I. p. 406

الأمير عبد الرحمن الداخل هو الذى أمدهم بفرقة من جيشه وساعدهم بالمال والسلاح ، محفزا إياهم على الانتقام لأبيهم [١] . ولكن على الرغم من ذلك ورغم بسالة النافاريين ومن انضم إليهم من المسلمين ، إلا أن شارلمان هاجم بنبلونة بشدة وأجبر البشكنس على إخلائها والتفرق في مختلف النواحي ، ودخل شارلمان بنبلونة للمرة الثانية ، وأمر بهدم حصونها وأسوارها [٢] ، حتى لا تعود إلى المقاومة إذا فكر في العودة إليها ، ثم غادر شارلمان بنبلونة متجها إلى جبال البرنيه (البرتات) عن طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى أو ما يعرف بممر شيزر أو رونسفال Roncesvalles [٣] .

ويصف الجغرافيون المسلمون القدامى جبال البرنية (أو البرت أو البرتات) ، وصفا لا يختلف كثيرا عما تقدمه الجغرافية الحديثة فى ذلك ، إذ يصف الشريف الإدريسى هذه الجبال والأبواب الرومانية فيها بقوله : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جدا ، صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب بها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لها مسافات ، وهي منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى في ناحية برشلونة ويسمى : برت جاقة ، والباب الثانى الذي يليه يسمى : برت أشيرة ، والباب الثالث منها يسمى برت شيزرىا (Roncesvalles) وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا ، والباب الرابع منها يسمى : برت بيونة ، ويتصل بكل برت (باب) منها مدن فى الجهتين ، فما يلي برت

---

(١) طرخان : المسلمون فى أوربا ص ١٧٨

(2) Deanesly : op, cit, p. 351
Oman : op. cit, p, 353

(3) Mahrenholtz ; op cit. p. 3484

شيزروا مدينة بنبلونة ... » (١) . ولقد اتجه شارلمان إلى أحد هـذه الأبواب الهامة وهو ممر شيزر أو شيزروا أو الرونسفال لعبوره لأنه أقرب الممرات إلى مدينة بنبلونة ، إذ يقع على بعد نحو ثلاثين كيلومترا إلى الشرق منها (٢) ، وهو أحد الممرات التي تستعمل لاختراق جبال البرنيه من الشمال إلى الجنـــوب ، واستخدمها العرب للعبور إلى غاليسيا منـذ وطئت أقـــدامهم هذه الجهات ، وكانت هذه الجبال الشاهقة الوعرة حاجزا هاما على مر القرون ، يفصل شبه الجزيرة الأسبانية عن غاليسيا (٣) .

أما ما حدث عند عبور شارلمان على رأس جيشه ممر رونسفـال ، فتجمع الروايات العربية واللاتينية على أنها كانت كارثة لجيش شارلمـان ، إذ تذكر الرواية العربية أنه بمجرد أن خرج شارلمان من بلاد المسلمين وبدأ العبـور ، انقضت عليه قوة عربية على رأسها إبنا سليمان بن الأعرابى: مطروح وعيشون بغرض فك أسر والدهما، ونجحت هذه القوة فى استنقاذ سليمان والعودة به تجاه سرقسطة (٤) ، بعد أن فصلوا مؤخرة الجيش الفرنجى ، وأعملوا فيها القتل ، وغنموا منها كثيرا من المغانم . ويبـدو أن أبنى سليمان قد جمعا قوات سليمان بعد سجنه ، وحصلوا أيضا على معاونة والى سرقسطة — الحسين بن يحيي — وتأييد أمير قرطبة — عبد الرحمن الداخل — الذى مدهما بالمال والسلاح فسارا

---

(١) الشريف الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (ط روما)
وراجع عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٧
وانظر : شكيب أرسلان : الحلل السندسية ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠

(2) El - Hajji : op. cit. p. 146

(3) Lévi - Provençal : op. cit. 1. p. 12

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٢ ، العذرى : ترصيع الأخبار ص ٢٥

فى أثر شارلمان حتى حانت الفرصة فانقضا على مؤخرة الجيش وأباداها إبادة شبه تامة ، ونجحا فى استنقاذ سليمان ، والعودة به تجاه سرقسطة ، على الرغم من أن الحسين بن يحيى عاد بعد ذلك فقتل سليمان حتى لا ينازعه الولاية فى المدينة (١) .

وتشير الرواية اللاتينية والمصادر الفرنسية ، إلى أن البشكنس هم الذين هاجموا مؤخرة جيش شارلمان عند عبوره ممر رونسفال ، واستطاعوا فى شراسة القضاء عليها انتقاما لما أنزله الفرنجة ببلادهم من الخراب والدمار (٢) ، وقد اختاروا وقتا مناسبا ووضعا ملائما حينما كان الجيش يعبر أضيق بقعة فى الممر فأحدثوا الاضطراب فيه ، وقضوا على مؤخرته تماما وقتل رولان Roland ، الذى كان أحد أعوان شارلمان المقربين (٣) . وعلى الرغم من أن البشكنس كانوا الجانب الأضعف من ناحية السلاح والعدة والعتاد ، إلا أن ثقل العدة والسلاح التى يحملها الفرنجة (٤) ، وعدم ملائمة المكان لعمل المناورة المطلوبة أعطت للبشكنس على حد قول هذه الرواية (اللاتينية) ميزة تامة فكان النصر حليفها ، وتم لها ما أرادت بالقضاء على مؤخرة جيش الفرنجة ، وقتل خيرة قادته وعدد من المبرزين فيه لاسيما رولان ، ولم يستطع شارلمان عمل شىء لإنقاذ مؤخرة جيشه ، ولم يتمكن من الاستدارة لنجدة المؤخرة (٥) ،

(١) العبادى : المرجع السابق ص ٢٥

(2) Einhard : op cit. p. 143

(3) Einhard : op. cit. p. 243

Pirenne ; A Hist. of Euope, p 81

Mahrenholtz ; op cit p. 3484

(4) Lane - Poole : op. cit. p. 34

(5) Einhard ; op. cit, p. 143

Dozy ; op. cit V I 243

أو هو لم يبلغ بالكارثة فى حينها ، فتمت الهزيمة على المؤخرة ، وأعملت سيوف البشكنس فى أفرادها قتلا وأسرا ، وكان مقتل رولان فى هذه الكارثة سببا فى ظهور ملحمة فرنسية شهيرة بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون ، واشتهرت هذه الملحمة بأنشودة رولان Chanson de Rorland (١) ، وأذاعت هذه الأنشودة أحداث ممر رونسفال على الرغم من أنها ترجع إلى القرن الثانى عشر ، إذ تشيد ببطولة رولاند الضابط الفرنسى وتفانيه فى خدمة قائده (٢) ، حتى أنه رفض أن ينفخ فى البوق حتى لا يسمع شارلمان ، ويحاول العودة لإنقاذه فيتعرض لمأساة أخرى وكمين آخر من قبل المهاجمين ، وتشير الملحمة إلى أن خطيبة هذا الضابط الفرنسى التى كانت تنتظر عودته إلى فرنسا ، قد ماتت كمدا عند سماعها نبأ مصرعه ، واشتهرت هذه الأنشودة كثيرا فى العصور الوسطى وعدت بداية الأدب الفرنسى ، رغم خروجها عن الواقع التاريخى واتسامها بطابع أسطورى إلى حد بعيد (٣) .

وإذا استعرضنا كلتا الروايتين : العربية واللاتينية ، وجدنا أن كلا منهما ينسب هذا النصر لجانب معين ، فالرواية الإسلامية تقرر أن المسلمين دبروا هذا الهجوم على مؤخرة جيش شارلمان ، وأنهم هم الذين استنقذوا الرهائن ،

---

(1) " La Chanson de Roland " The French text, together with a fine translation by René Hague, is printed - in " The Song of Roland " (London 1934)

وانظر أيضا :

R. H. C. Davis ; op. cit. p. 143

(2) Hollister : Med. Europe, p. 88 (N. Y. 1974)

Oman : op. cit. p. 353

(3) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3483 —4

وفازوا بكثير من المغانم والأسلاب (١) ، والرواية اللاتينية تقرر أن البشكنس هم وحدهم الذين فاجأوا الجيش الفرنجي وأنزلوا بمؤخرته تلك الهزيمة المنكرة في ممر رونسفال ، ربما اعتمادا على معرفة البشكنس التامة بهذه الدروب والشعاب ، وحذقهم الهجوم في هذه المناطق الوعرة لسابق خبرتهم وتمرسهم (٢). ويبدو — كما ذهب بعض المؤرخين المحدثين — أن كلا من المسلمين والبشكنس قد اشتركوا وتعاونوا معا في إلحاق هذه الهزيمة بجيش شارلمان (٣). فقد كان شارلمان عدوا مشتركا لكليهما ، وإذا كان إبنا سليمان قد جدا في محاولة إنقاذ والدهما والرهائن والإنتقام لما جرى لوالدهما ، فإن حنق البشكنس على شارلمان وجيشه كان أكبر ، بعد أن أحدث الخراب والدمار ببلادهم ، وخرب عاصمتهم بنبلونة ، وأنزل بهم أشد أنواع التنكيل ، بل أنهم كانوا أكثر حماسة لهزيمة شارلمان وتلقينه درسا قاسيا حتى لا يعاود الكرة عليهم من جديد (٤) . التقى الطرفان إذن عند الرغبة الجامحة في الانتقام من شارلمان وجيشه ، ولهذا فقد تعاونا معا للقضاء على مؤخرة جيشه . وتؤكد الأحداث أن كل طرف كان بحاجة إلى الطرف الآخر ، فقد احتاج المسلمون إلى معرفة البشكنس الدقيقة بتلك الشعاب والممرات الوعرة لسابق خبرتهم بها ، وكان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٤

(٢) راجع رواية اينهارت :

Einhard ; op. cit. p. 143

(3) Dozy ; op cit. 1, p. 380

Scott : op. cit. 1, p. 407

El - Hajji : op. cit. p. 154

وانظر العبادى : المرجع السابق ص ١٠٨ ، عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٨

(4) Oman : op. cit. p. 353

البشكنس بحاجة إلي مقدرة المسلمين في التنظيم العسكرى ، ودقتهم في رسم الخطط والهجوم ، ولهذا التقيا معا وتعاونا في إنزال تلك الهزيمة الساحقة بجيش شارلمان وإحداث تلك « الفاجعة » علي حد قول الحوليات الملكية المعاصرة في دولة الفرنجة (١) .

ولعل أحسن وصف لما حدث في ممر رونسفال ، أن الكمين الذى أعده المسلمون والبشكنس معا ، قد حدث في الأماكن الصاعدة بين الطريق الرومانى المعبد ، وأن مؤخرة جيش شارلمان كانت تتكون علي الأرجح من ألف فارس من خيرة فرسان الفرنجة ، فضلا عن المشاة ، ومعهم الدواب والأثقال والعتاد ، فقد فوجىء الفرنجة بهذا الكمين الذى لم يكن متوقعا فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم (٢) ، في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة ، ولم يحسنوا التصرف في تلك المناطق الوعرة ، ولا سمحت لهم أثقالهم وعتادهم بخفة الحركة والمناورة (٣) ، وسرعان ما فصلت المؤخرة عن بقية جيش شارلمان وجرى تمزيقها والفتك بفرسانها ، والاستيلاء علي الرهائن ، والأسلاب والمغانم ، وفي مقدمتها الخزانة الملكية بكل ما فيها من نفائس (٤) . ويبدو أن المفاجأة قد شلت تفكير الفرنجة ومنعتهم من القيام بأى عمل للنجاة من هذه المأساة ، فقتل عدد كبير من سادة الجيش الفرنجى ، وأبرز فرسانه ، وتمت الهزيمة علي جيش شارلمان (٥) ، وكان ذلك علي الأرجح في النصف الثانى من

(1) Deanesly : op. cit. p. 352

(٢) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٣٠٥ (ترجمة جاويد ومراجعة العريني)

(3) Lane-Poole : op. cit. p. 34

(4) Oman : op. cit. p. 353

(5) Jackson : op cit. p. 16

شهر أغسطس سنة ٧٧٨ م (ذي القعدة سنة ١٦١ هـ) ، وأحدثت هـذه النكبة صدى واسعا فى مختلف الأوساط الأوربية والمسيحية (١) .

وباستقراء رواية اينهارت المؤرخ الفرنسى ذائـع الصيت ، وكاتب سيرة شارلمان وزوج ابنته ، ومرافقه فى حملاته العسكرية ، نجد وصفا يكاد يكون دقيقا وناطقا ، ومعبرا عن هذه النكبة على الرغم من أنه جعـل البشكنس (أو الغسقونيين) هم المسؤلين وحدهم عن هذا الهجوم . إذ يصف اينهارت هـذا الهجوم بقوله (٢) :

« وفى طريق عودته (شارلمان) على رأس جيشه سالما غانمـا ، وحينما كان يعبر أضيق مكان فى ممر جبال البرنيه Pyrenean n ountains عائدا ، تعرض لغدر الغسقونيين Gascons ومكيدتهم ، فقد كان الجيش يجتاز الممر فى طابور متحرك ، يمتد إلى مسافـة طويلة بقـدر ما سمح الممـر الضيق بذلك ، وإذا بالغسقونيين — الذين كانوا قـد وضعوا كمائن على الحواف الشاهقة للجبال ، ووضعوا قطعا كثيرة من الخشب الغليظ عبر الممر ليجعلوا المكان أكثر ملائمة لتدبير هذا الـكمين — إذا بهم يندفعون هابطين من مكامنهم المناسبة إلى أرض الوادى إلى أسفل ، حيث ألقوا بأنفسهم فى عناد على مؤخرة الجيش بما فيها من متاع وعتاد ، وعلى من يقوم بحراسة هذا المتاع ، وهاجم الغسقونيون فرسان الفرنجة رجـلا لرجـل ويدا بيد ، حتى قتلوهم عن آخرهم إلى آخر رجل ، واستولوا على المتاع والعتاد بعد أن دمروا جانبا منه ، ولاذوا بالفرار

---

(1) EL - Hajji : op. cit. p 146
Mahrenholtz : op. c't. p. 3484

(2) Einhard : op. cit. p 143

فى كل الاتجاهات مستترين بالظلام الذى ما لبث أن حل بعد قليل من هذه المذبحة (١) . ولقد تفوق الغسقونيون فى هذا العمل البطولى بخفة أسلحتهم وطبيعة الأرض والمكان ، الذى جرى فيه الهجوم ، بينما كان الفرنجة ينوءون تحت ثقل أسلحتهم ، وعدم ملائمة المكان نفسه الذى لم يعطهم أية ميزة ، وقتل فى هذا الهجوم : إيجهارد أحد كبار خدم شارلمان وأنسلم ورولان كونت بريتانى وكثير غيرهم . ولم يكن بوسع شارلمان أن ينتقم لهذه الهزيمة فى ذلك الوقت لأن العدو سرعان ما تشتت فى كل مكان غير تارك أثرا يمكن أن يدل عليه أو يمكن أن يتتبع من خلاله . » (٢)

هذه هي رواية اينهارت بكل ما فيها من روعة التصوير ودقة الوصف ، وواضح أن الكمين الذى أعده المسلمون والبشكنس قد اختير له أنسب مكان فى ذلك الممر لإحداث المفاجأة والاندفاع تجاه مؤخرة الجيش الفرنجى ، كما كان وضعهم للأخشاب الغليظة بعرض الممر يهدف إلى فصل المؤخرة عن بقية الجيش وحصرها فى مكان ضيق لا تستطيع الفرار منه ، ومنع أى مساعدة يمكن أن تقدم لرجالها ، ثم كانت الميزة الكبيرة التى ركزت عليها هذه الرواية وهي خفة حركة المهاجمين بالنسبة لثقل الفرنجة وثقل عتادهم ، وعدم إمكانية الإستدارة أو إجراء المناورة وعدم سماح المكان بالدفاع عن أنفسهم فتعرضت المؤخرة كلها للفناء ، هذا ولم تذكر هذه الرواية أن المهاجمين قد تكبدوا أية خسائر ، بل كانت واضحة فى القول بأن فرسان الفرنجة جميعا فى المؤخرة قد

---

(١) انظر نص الرواية فى :

Einhard : op. cit. p. 143 (chapter 9) — in Med. world, by Cantor

(2) Einhard : op. cit. p, I43

أبيدوا عن آخرهم دون أن يستطيع شارلمان عمل شيء أو الانتقام لهـــذه الـكارثة .

ويبدو أن شارلمان لم يكن راغبا فى إضاعة الوقت لمحاولة الانتقام لهـــذه الكارثة لعدم جدوى المحاولة من ناحية ، ولرغبته فى العودة سريعا إلى بلاده من ناحية أخرى ، بعد ما بلغه من أنباء سيئة من قبل السكسون واندلاع ثورتهم من جديد (١) ، لهذا تابع سيره على الرغم مما كان يشعر به فى غصة من جراء هذه النكبة التى حلت بجيشه ، ولصقت به وأسبلت سحابة قاتمة على أمجاده العسكرية ردحا من الزمن (٢) . وبعد أن نجح المسلمون فى استنقاذ سليمان والرهائن ، لم يبق عنده سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن الذى ظل أسيرا لديه فترة حتى جرت مفاوضات بشأنه مع المسلمين ، وأطلق سراحه بعد دفع فدية كبيرة، وتقاصت حملة شارلمان على أسبانيا إلى عمل من أعمال سبرغور هذه البلاد ، وعجم عود أميرها عبد الرحمن (٣) ، كما أنها بددت حلم شارلمان فى فى إزالة السيادة الإسلاميـــة عن أسبانيا وتكوين إمبراطـــورية على النسق الرومانى ، تعيد ذكرى تلك الإمبراطورية العتيدة (٤) ، ولابد أن شارلمـــان اقتنع بأنه كان عودا متينا ، وأن أغواره كانت عميقة ومذاقه مرا ، ولهذا لم يحاول إعادة الكرة وإن ظلت السياسة الفرنجية بعد ذلك تسير فى نفس الاتجاه وتتحين الفرصة لمعاودة التدخل فى شئون أسبانيا المسلمة (٥) .

---

(1) Oman : op cit. p. 353
Davis : op. cit. p 144
(2 Heyck : op. cit. p: 3480

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠

(٤) طرخان : المسلمون فى أوربا ص ١٧٩ — ١٨٠

(5) El - Hajji : op, cit. p. 146

وبعد عودة شارلمان من حملته الفاشلة أبحر عبد الرحمن الداخل إلى سرقسطة فاستولى عليها سنة ١٦٤ هـ، وحاول إنهاء الفتنة في الشمال، حتى يفوت على الفرنجة فرصة الدخل، فان ضبط الامور واستتباب الأمن فيها، إنما يقلل من فرص الفرنجة في محاولة العودة إلى أسبانيا (١). وتوقف شارلمان في طريق عودته أيضا في أكوتين (٢)، وسعى إلى تنظيمها خوفا من أن تسبب أخبار الكارثة التي لحقت به، في إحداث ثورات وحركات عصيان هناك، فعين كونتات فرنجة في هذه الولاية، وجعل لكل منهم الإشراف على كونتية أو اثنتين أو ثلاثة وحرص على وضع رجال يثق بهم في الأسقفيات الشاغرة (٣). إلا أن ذلك كله لم يكن كافيا لقمع روح الثورة في هذا الجانب من إمبراطورية شارلمان، ولهذا جعل شارلمان ابنه لويس ملكا على أكوتين بعد ذلك بسنوات (٤)، فأرضى في أهل هذه المقاطعة جبهم للحكم الذاتي من ناحية وجنب نفسه التعرض لثوراتهم من ناحية أخرى في وقت كان يمكن أن يتخذ فيه فشله في أسبانيا أداة لتشجيع روح الثورة والعصيان في تلك المناطق القريبة من الحدود الأسبانية (٥).

وعلى الرغم من كل ذلك فقد ترتب على الكارثة التي نزلت بجيش شارلمان أن ارتفعت روح المسلمين المعنوية وانتعشت قوتهم، فقاموا بغارة سريعة على أكوتين بعد ذلك بسنوات قليلة ولم تجد كثيرا التنظيمات التي حرص شارلمان

---

(1) Lane - Poole : op. cit. p. 33

(2) O nan ; op. cit. p 353

(3) Hoyt and chedorow ; op. cit. p. 152

(4) Dozy : op. cit. p, I, pp: 380 — 1
Deanesly : op. cii: cit. p, 352

(5) Lévi – Provençal ; op. cit. I, pp. 127 — 8

على القيام بها فى هذه المقاطعة واهتم عبد الرحمن بإحلال السكينة فى سرقسطة محل الفرقة والخلاف ، بعد مقتل سليمان بن الأعرابى على يد غريمه الحسين بن يحيي الإنصارى ، إذ بادر الحسين باعلان خضوعه لعبد الرحمن ، وإن عاد فخرج عليه وطرح طاعته بعد ذلك ، فانتهى الأمر بمقتله (١) .

وعلي الرغم من أن شارلمان قد اقتنع بعدم جدوى الحرب فى أسبانيا ، وأنه ليس بوسعه أن يحقق نصرا فيها فضلا عن أن العلاقات بينه وبين عبدالرحمن تحسنت كثيرا أثر فشل شارلمان في حملته الأسبانية ، حتى أن بعض الروايات ذهبت إلى حلول مودة بين الرجلين وعروض مصاهرة (٢) ، — كما سوف نفصل — إلا أن السياسة الفرنجية ظلت كما هي لم تتغير فى الفترة الباقية عهد عبد الرحمن الداخل ، وعلي عهد ابنه هشام وحفيده الحكم ، وهي محاولة شارلمان التدخل فى شئون أسبانيا المسلمة ، وتشجيع نصارى الشمال من البشكنس والجلالقة على مواصلة التحرش بحكومة قرطبة ، وشجع الفرنجة على الاستمرار في هذه السياسة ما كان جاريا من منازعات داخلية فى أسبانيا وثوارت مشتعلة لاسيما فى المناطق الشمالية المتاخمة للحدود الفرنجية (٣) ، فيذكر أنه فى السنوات الأخيرة من عهد عبد الرحمن قام الفرنجة بالاستيلاء على جيرونا سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان ، حرصا منهم على مراقبة الأوضاع في أسبانيا تحفزا للتدخل فى شئونها ، وكان حكام هذه الجهات فى الشمال الشرقي لأسبانيا قد

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٥٦ ،

Dozy : op. cit. I, p. 381.

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٨٨ .

طرحوا الطاعة لحكومة قرطبه [١] ، منذ غزو شارلمان لأسبانيـا ، واستقـلوا بما فى أيديهم من المدن وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم الشماليين، والتمسوا حمايتهم وبعث أحدهم وهو حاكم مدينة وشقة رسله إلى أكويتين يطلب محالفة ملكها لويس بن شارلمان ، وذلك سنة ٧٩٠ م (١٧٤ هـ) [٢] .

وتوفى عبد الرحمن سنة ٧٨٨ م (١٧٢ هـ) ، وخلفه ابنه هشام الرضا ، فانتهز الفرنجة فرصة نشوب الحرب بين هشام وإخوته ، فقاموا بالإستيلاء على المنطقة الساحلية فى جنوب سبتمانيا وعلى أرجل Urgel ، سنة ٧٨٩ [٣] إلا أن هشاما أثبت همة ونشاطا فى محاربة الفرنجة وعدم السماح لهم بالتدخـل فى شئون إمارته ، فسير جيشـا كثيفا إلى الشـمال فى سنة ٧٩٢ م (١٧٦ هـ) بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لمحاربة الفرنجة واسترجاع ما استولوا عليه منتهزا فرصة انشغال شارلمان حينئذ بمحاربة الآفار ، وعـدم استطاعته إرسال نجدات إلى الحدود الأسبانية [٤] ، ولقد سارع عبد الملك بن مغيث بعبور البرنيه فاسترد جيرونة (جيرندة) الحصينة ، واستولى كذلك على عـدد آخر من المعاقل والحصون ، ثم نفذ إلى سبتمانيـا وزحف إلى أربونة قاعـدة الثغر الإسلامى القديم ، وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن عبد الملك قد افتتحهـا فى هذه الغزوة [٥] ، لكن يبدو أن عبد الملك اكتفى بإحراق ضواحيهـا ثم ذهب

---

(١) ابن عذارى : البيان : ج ٢ ص ٦٣

(2) Lévi – Provençal : op. cit. 1, p. 192
Deanesly : op. cit. p. 353

(3) Jackson : op. cit. p. I8

(4) Oman : op cit. p. 356

(٥) ابن عذارى : البيـان ج ٢ ص ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤٠
المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ — ٢١٧

إلى قرقشونة ، وإذ كان شارلمان مشغولا حينئذ بمحاربة أعدائه السكسون والآفار ، فقد نهض ابنه لويس ملك أكوتين بصد المسلمين وأرسل جيشا لمحاربتهم تحت قيادة وليام كونت تولوز [١] ، فالتقى الفريقان على ضفاف نهر أنبيو Orbieu بين أربونة وقرقشونه ، وجرت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون ومنى الفرنجة فيها بخسائر فادحة ، وأبدى وليام دوق تولوز شجاعة فائقة [٢] ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، وعددا وافرا من السبي ، ولا شك أن كفة المسلمين كانت الأرجح في هذه الاشتباكات ، لأن عبد الملك أرغم أسرها من الفرنج على جر أحمال من الأحجـــار ومواد البناء من سور أربونة حتى قرطبة ، ومكن ذلك الأمير هشـام من بناء عدة مساجـد على شاطىء الوادى الكبير وتوسيع نطاق مسجد قرطبـة ، الذى أسسه والده عبد الرحمن ، فبنى فيه جناحا جديدا ، تخليدا لذكرى هذا الانتصار ، وأضاف إلى المسجد المئذنة والميضأة وبعض السقائف [٣] . ويبدو أن جيش هشام اكتفى بذلك وعاد إلى قرطبة دون أن يحتفظ بالمواقع التى تم فتحها ، لأن الفرنجة عادوا فى عام ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) واحتلوا كاردونا وفيشى وكاستر على التخوم فى البرنيه ، وكرروا الهجوم فى السنوات التالية ، أى فى أواخر عهد هشام ، دون ظفـر حاسم أو

---

(1) Lévi - provençal ; op. cit. 1, p. 145

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٦ س ٤٨ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٦٤
المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٧ ، ابن القوطيـة : تاريـخ افتتـاح الأندلس ص ١٦٥

Scott : op. cit, 1, p. 429

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٠٩
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥ ،

Deanesly ; op cit. p. 353

الحصول على نصر كامل فى هذه الجهات (١) ، وأخيرا توفى هشام الرضا فى إبريل سنة ٧٩٦ م (صفر ١٨٠ هـ) وخلفه ابنه الحكم .

ولقد دلت الحوادث بعد ذلك أن شارلمان كان ما يزال يحلم بالتدخل فى شئون أسبانيا المسلمة تحقيقا لحلمه القديم فى إقامة إمبراطورية واسعة تعيد ذكرى الإمبراطورية الرومانية القديمة (٢)، لأنه بعد وفاة هشام وولاية الحكم سنة ٧٩٦ ، استغل فرصة اندلاع الثورة ضد الحكم من قبل أعمامه سليمان وعبد الله ، ونشوب الفتنة فى مدن الثغر الأعلى لاسيما فى سرقسطة ووشقة فسار عبد الله إلى الثغر الأعلى وراح يذكى نار الفتنه هناك ، ويجمع الأنصار والأعوان لمحاربة ابن أخيه الحكم ، ثم ما لبث أن اقتنع أنه بحاجة إلى عون خارجى ، فقرر عبور جبال البرنية إلى الفرنجة للاستعانة بهم ، وذهب إلى شارلمان فى إكس لاشابل لالتماس عونه (٣) ، فاستقبله هذا بحفاوة بالغة ، على الرغم من أن شارلمان لم يكن يثق كثيرا في وعود الناقمين على الحكم الأموي فى أسبانيا ، خاصة وقد كثرت عروضهم ، فقد أعلن حاكم وشقة وضع مدينته تحت حماية شارلمان وزاد عدد الناقمين على الحكم (٤) ، ولكن شارلمان مع ذلك استجاب لدعوة عبد الله وسير معه جيشا عبر به البرنيه إلى أسبانيا ، حيث استولى بمعاونة الفرنجة على جيرونة (جيرندة) ثم تقدم نحو مدن الثغر الأعلى ، وفى نفس الوقت تقدم الفرنجة تحت قيادة شارل ولويس

---

(1) Deanesly · op. cit. p. 353

(2) Scott : op. cit. p. 405

Lévi - Provençal : op. cit, I, pp. 118 — 20

(3) Deanesly ; op. cit. p. 353

(4) Ibid, p. 353

إبنا شارلمان ، فاستولوا على البلاد الواقعة في شمال البرنية [1] ، وأحدثوا بها الخراب والدمار والقتل على حين استمر عبد الله في تقدمه في مدن الثغر الأعلى وفي هذه الظروف العصيبة أظهر الحكم نشاطا وحزما ، فقد سارع بالمسير نحو الشمال لرد هذا الخطر ، وليس من الواضح بعد ذلك هل جرت اشتباكات بين الفريقين أم لا ، وإنما من الثابت أن الفرنجة أرغموا على الإرتداد نحو الشمال ، بعد أن فشلوا في اقتحام مدينة وشقة بعد حصارها فترة ٧٩٧ م (١٨١ هـ) [2] ، ويبدوا أنهم فضلوا الارتداد خشية تكرار ما حدث في المأساة السابقة في ممر رونسفال ، ونكث حلفائهم العهد وتحول مواقفهم في هذا الجزء المضطرب من شمال أسبانيا ، ولما ألفي الثوار في الشمال أنفسهم دون حماية ، واقترب منهم جيش الحكم آثروا العودة إلى حدود الطاعة فاسترد الحكم بذلك سلطانه في سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها من المدن الثائرة في الشمال [3] ، ثم تحول إلى أعمامه سليمان وعبد الله ، حيث هزمهما وقبض على سليمان قرب قرطبة ، وأمر بإعدامه ، بينما استسلم في النهاية عمه الآخر عبدالله فعفى عنه الحكم كما سبقت الإشارة [4] .

ومع مطلع القرن التاسع الميلادى ، بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين الفرنجة ومسلمى أسبانيا على عهد الحكم وزاد العداء من جديد ، وتطلع

---

(1) El - Hajji : op. cit. p. 149

(٢) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٩

(3) El - Hajji : op. cit. pp. 149 — 50

وشكيب أرسلان : نفس المرجع ص ١٦٩

(٤) انظر ما سبق

شارلمان إلى تحقيق حلمه فى أسبانيا واستمرار تدخله في شئونها (١) ، ودخلت في العلاقات بين الجانبين عناصر هامة جديدة سوف نشير إليها بالتفصيل ولكن يبدو أن عبور المسلمين جبال البرنيه علي عهد هشام الرضا ، وغزو سبتمانيا قد جدد مخاوف الفرنجة وشارلمان من أن يعاود المسلمون الكرة لغزو فرنسا ، وبدأ الشك والقلق ينتابهم بالنسبة لحدودهم الجنوبية في ظل تحفز إمارة قرطبة ورغبتها فى استئناف الجهاد فى تلك البلاد (٢) .

وأهم العناصر الجديدة التى ساعدت علي اشتداد الصراع فى المرحلة الجديدة بين الفرنجة والمسلمين فى أسبانيا ما حدث من استئناف السفارات والرسائل وتبادل الهدايا بين الخلافة العباسية على عهد الرشيد وبين عاهل الفرنجة شارلمان (٣) . وكان بيبن القصير قد أقام علاقات ودية مع الخلافة العباسية ، وتبادل معها السفارات والرسائل ، وقدمت بعثة فرنجية من قبل بيبن القصير إلي بغداد عام ٧٦٥ م / ١٤٨ هـ ، حيث بقي أعضاؤها نحو ثلاث سنين ، عادوا محملين بالهدايا ، ومعهم رسل الخليفة العباسى المنصور ، وعادت البعثة عن طريق مرسيليا إلي متز باللورين فبالغ بيبن فى الحفاوة بالسفراء المسلمين ، وأنزلهم بقصر سل Sel ، علي ضفاف اللوار ، ثم عادوا بعد ذلك عن طريق مرسيليا

---

(1) Lévi - Provençal : op. cit. 1, p. 178 — 80
Deanesly : op. cit. p. 354
Lane - poole : op. cit. p. 74

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٥ ، ص ١٨٢

(3) Deansely : op. cit p. 352
Pirenne : Moh. and Charlemagne, pp. 160 — 7

طرخان : المرجع السابق ص ١٩٢ — ١٩٥ ، أرسلان : نفسه ص ١٧١

أيضا (١)، واستأنف شارلمان السفارات والرسائل مع الخلافة العباسية استمرارا لهذه العلاقات الدبلوماسية، وأرسل هارون الرشيد لشارلمان هدايا ثمينة من بينها فيل أصبح مدللا فى البلاط الفرنجى (٢).

حقيقة صمتت المصادر الاسلامية عن ذكر شىء من هذه السفارات، وعن تبادل المبعوثين والرسائل والهدايا، إلا أن رواية اينهارت مؤرخ شارلمان وكاتب سيرته والأثير لديه، لم تترك لنا فرصة استبعاد قيام هذه الصلات، ذلك أن اينهارت صرح فى غير مواربة بقيام هذه الصلات اذ قال :

« وتعاظمت شهرة مملكته (شارلمان) بمعاهدات الصداقة التى عقدها مع مختلف الملوك والأمم ... فكان هارون، ملك الفارسيين (يقصد الشرق) يحكم كل بلاد الشرق تقريبا باستثناء الهند، قد ربطته بالملك (شارلمان) مثل هذه الصداقة القلبية (٣). بحيث أنه وضع منزلة شارل فوق كل منازل الملوك والأمراء فى العالم، وأيقن أنه فقط الذى يستحق أن يبجل وأن يكون خليقا باحترامه وإكرامه، وحين أتى الضباط الذين أرسلهم الملك (شارلمان) يحملون عروضا تخص القبر المقدس العظيم، ومكان البعث لسيدنا الأعظم ومنقذنا السيد المسيح (كنيسة القيامة) إلى هارون، وأعلنوا رغبة سيدهم، فانه لم يعطهم فقط تصريحا ليفعلوا ما يريدون، ولكنه وافق على أن تعتبر تلك البقعة المقدسة المبجلة، كما لو كانت من أملاك الملك شارل، وحين رحل

(1) Deanesly ; op. cit. I, p. 294 , Pirenne : op cit. p 160
ديفز : شارلمان ص ٢٩٥ (ترجمة العرينى) ، طرخان : نفسه ص ١٧١

(2) Davis : A Hist. of Med, Europe, p. 178 (n. 1)

(3) See : Einhard : op. cit. p. 144

السفراء عائدين أرسل معهم مبعوثيه الخصوصيين ، الذين نقلوا إلى الملك هدايا غريبة ومثيرة مع أثواب وتوابل [١] ، وغيرها من منتجات الشرق الثمينة ، مثلما كان قد أرسل إليه قبل ذلك بسنوات قليلة ، وحسب طلبه الفيل الوحيد الذي كان يملكه ... » [٢] .

وإذا علمنا أن اينهارت هو زوج ابنة شارلمان والأثير لديه ، وكاتب سيرته ، تأكدنا أن هذه العلاقات بين الرشيد وشارلمان كانت حقيقية وصحيحة ويؤيد ذلك ما درج عليه العباسيون منذ عهد المنصور من محاولة إقامة علاقات ود وصداقة مع الفرنجة ، لمناوأة إمارة قرطبة الأموية ، التي ساء العباسيون قيامها في هذا الجزء من العالم الاسلامي ، ونجاحها في الحفاظ على استقلالها وسيادتها ، ودحر كل محاولة عباسية أرسلت للقضاء عليها [٣] ، والتقت رغبة الرشيد مع رغبات شارلمان الذي كان يحاول إضعاف الإسلام في أسبانيا ، والقضاء على سيادة إمارة قرطبة ، وحماية حدوده الجنوبية [٤] ، وضم الأجزاء الشمالية من أسبانيا إن أمكن إلى دولته إحياء لمشروعاته القديمة ، ولابد وأن تبادل الرسائل والمبعوثين والسفراء في هذا الوقت بالذات أي في السنوات الأولى للقرن التاسع الميلادي (بين سنتي ١٨١ هـ و ١٨٥ هـ) ، له علاقة

---

(١) انظر نص رواية اينهارت :

Chapter 16, p 144

(2) Einhard : op. cit. p. 145

(3) Deanesly : op. cit, p. 294

Pirenne : op. cit. p. 160

دينز : شارلمان ص ١٩٥ (ترجمة العريني)

(4) Lane - Poole : op. cit. p. 33

باستئناف العداء الشديد بين الفرنجة والأمويين فى أسبانيا ، ومحاولة شارلمان التدخل من جديد في أسبانيا فى هذه الحقبة ، إرضاء لحليفه الجديد الخليفة العباسى من ناحية وتحقيقا لمطامعه فى أسبانيا من ناحية أخرى (١) .

هذا هو أحد العناصر الجديدة فى الأحداث وفى الصراع بين الفرنجة والمسلمين فى أسبانيا ، وهناك عنصر آخر لابد وأن له علاقة أيضا باشتداد الصراع فى هذه المرحلة ، وأعنى به التقارب بين شارلمان والبشكنس لاسيما أن أمير جيليقية ألفونسو الثانى الذى ولى فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن ، والذي عمل شارلمان على التحالف معه ضمانا لمعاونة البشكنس فى المشروعات الجديدة من ناحية ، وعدم التعرض لمكائد البشكنس أثناء هذه المشروعات الحربية من ناحية أخرى (٢) ، وتشير الدلائل إلى أن ألفونسو والبشكنس لم يكن يمنعهم شيء من التحالف مع الفرنجة في هذه المرحلة خاصة بعد أن مرحت جيوش المسلمين فى بلادهم على عهد عبد الرحمن ، وابنه هشام وحفيده الحكم ، وبعد أن فشلوا أكثر من مرة فى مناوأة المسلمين وتعرضوا لأشد أنواع التنكيل من قبل حكام قرطبة المسلمين(٣) . ولعل ذلك كله كان من الأسباب التى شجعت شارلمان على المضى في إعداد جيوشه ، والتمهيد لمشروعاته فى أسبانيا فى هذه المرحلة الجديدة .

وإذ كانت دولة الفرنجة مهتمة كثيرا بحماية جنوب فرنسا وتأمينها من

---

(١) دنفز : شارلمان ص ٣٠١ — ٣٠٤ ، أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٣٢ — ١٣٣ ،

Pirenne : op. cit. p. 160 — 7

(2) Dianesly : [illegible] . 354

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٣ ، ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٧

خطر الغزو الإسلامى ، فقد جــدت — قبل ذلك — فى إنشاء ولاية فــرنجية تكون حاجزا بين المسلمين ومملكة الفرنجة ، وضمت هذه الولاية أو الثغر مدن: جيرونة (جيرندة) ، وأوزونة وسولسونة وما حولها مما استطاع الفـرنجة اقتطاعه من أراضى أسبانيا الإسلامية (١) ، غير أنه فى المرحــلة الجديدة من الصراع ، طمع شارلمان فى الاستيلاء على ثغر برشلونة الحصين ليحمى أملاك الفرنجة جنوبى البرنيه ، ويكون حلقة اتصال بحرى بين هذه الولاية من جهة ومملكة الفرنجة من جهة أخرى ، ولقد أمدت الثورات المندلعة فى شمال أسبانيا وما ماجت به المنطقة من فتن وثورات شارلمان بفرصة جـديدة لمد نفــوذه وتوسيع نطاق أملاكه فى الشمال الشرقى لأسبانيا ، كما قرن ذلك بمحاولة التعاون والتحالف مع البشكنس ، وأميرهم ألفونسو الثانى ، رغبة فى كفــالة كافة الضمانات لنجاح مشروعه الجديد فى أسبانيا (٢) .

وفى مطلع القرن التاسع الميلادى أى سنة ٨٠١ (١٨٥ هـ) ، بدأ شارلمــان مشروعه الكبير فى أسبانيا بأن بعث بجيش كبير للاستــيلاء على برشلونة تحت قيادة ابنه لويس أمير أكويتين ، وانقسم هــذا الجيش إلى قسمين : قسم تحت قيادة حاكم جيرونه (٣) وكانت مهمته أن يتقدم لمحاصرة برشلونة ذاتها، والقسم الثانى تحت قيادة جيوم كونت تولوز ، وكانت مهمته أن يرابط جنوب غرب برشلونة بين لاردة وطركونة لمنع وصول أى مــــدد إلى برشلونة أثناء حصارها (٤) ، ولقد شدد الفرنجة الحصار على برشلونة وجدوا فى إسقاطها (٥) ،

---

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٨ ،

Jackson : op cit. p. 18

(2) Deanesly : op. cit. p. 351

(3) Lévi - Provençal ; op. cit. I, p. 179

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٦٩

(5) Lyon, Rowen, Hamerow op. cit. pp. 114 — 15

ووجد واليها ـ سعدون الرعينى ـ نفسه فى مأزق كبير لا يستطيع أن يؤمل فى نجدة أو مدد من ولاة الثغور المجاورة وأكثرهم خارج على حكومة قرطبة أو يضمر الخروج عليها ، ولا من الإمارة ذاتها نظرا لانشغال الحاكم نفسه فى قمع الثورات ، لاسيما ثورة عمه عبد الله من ناحية ، ولمرابطة جيش فرنجى فى الطريق إلى برشلونة لمنع أى مدد عنها من ناحية أخرى [١] . وعلى الرغم من هذه الظروف الحرجة فقد صمد والى برشلونة وصمم على الدفاع عن مدينته وصد هجمات الفرنجة ، وعانت المدينة كثيرا من نقص الأقوات وقلة الزاد ، وزاد فى سوء أحوالها وصول جيش فرنجى جديد تحت قيادة الملك لويس بن شارلمان ليشدد الحصار على المدينة ويغلق كل المنافذ إليها ، ويجد فى فتح الثغرات فى سورها [٢] ، ولم يجد والى المدينة بدا من الخروج بنفسه لمحاولة الوصول إلى قرطبة والتماس عون أميرها الحكم ، وشاء سوء حظ هذا الوالى أن يقع فى أيدى الفرنجة ، ويجرى أسره بمعسكرهم [٣] ، وكانت هذه الحادثة بداية النهاية فى صمود المدينة ، فقد هلك آلاف من أهلها من الجوع والحرب وساءت أحوالها كثيرا ، ولم تعد قادرة على الصمود ، ونجح الفرنجة فى فتح ثغرات عديدة فى أسوارها ، فاضطرت المدينة الباسلة إلى التسليم بعد حصار امتد نحو سبعة أشهر [٤] ، ودخلها الفرنجة وغنموا منها غنائم كثيرة ، لاسيما من الأسلحة من الدروع والخيول المسرجة بأفخر السروج والخوذ ، وأرسل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٨

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٠ — ١٧١

(3) Lévi - Provençal ; op. cit. 1, pp. 180 — 1

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٩

لويس جزءا من هذه الغنائم إلى والده شارلمان (١)، ودخلت برشاونة فى حوزة الفرنجة بعد أن بقيت فى أيدى المسلمين نحو تسعين سنة (٢) ، وعد ذلك أمرا خطيرا لأن السيادة الفرنجية امتدت كثيرا إلى جنوبى البرنيه ، ولأن الفرنجة بادروا بجعل هذه المدينة قاعدة لثغرهم الجديد لتتخذ مكان جيرندة وتلعب دورها فى المنطقة الشمالية الشرقية لأسبانيا المسلمة (٣) . ولجأ الفرنجة إلى تثبيت أقدامهم فى هذه الجهات ، وجعلوا أساقفة هذا الإقليم تابعين لرئاسة أسقفية ناربون ، وربطوا النظـام الديري فى ذلك الإقليم بالتنظيمات الديرية الفرنسية (٤) ، لكنهم رأوا ضمانا لاستمرار تواجدهم أن يختاروا الحاكم على برشلونة من أصل قوطى أو فرنجى ، فشعر حكام هذا الإقليم بنوع من الاستقلال ، وقدر من الحرية فى ولايتهم ، وحينما واتتهم الفرصة أعلنوا استقلالهم التـام (٥) ، عن سلطة الفرنجة ، اعتمادا على بعد الشقة وعلى ما كان يجرى فى فرنسا من أحداث، وتحول الثغر الفرنجى بمرور الوقت إلى إمارة نصرانية عرفت فيما بعد بإمارة قطالونيا ، والتى اندمجت بعد ذلك فى مملكة أراجون القوية (٦) ، ولكن ترتب على فقد المسلمين لثغر برشلونة ، أن تقهقرت حدودهم إلى مدن الثغر الأعلى ،

---

(1) Lévi — Provençal : op. cit, I, pp. 178 — 80
Lane - Poole : op. cit. p. 74
Deanesly : op cit. p. 354

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧
ابن الاثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٩

(3) Jackson : op, cit, p. 18

(4) Ibid, p. 18

(٥) ارسلان : الحلل السندسية ج ٤ ص ٢١٦ — ٢١٧

(6) Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 181
Deanesly : op. cit, p. 354

وفقدوا أهم نقط ارتكازهم فى هذه الجهات ، وقواعد انطلاقهم إلى ما وراء البرنيه .

ويبدو أن نجاح شارلمان فى الاستيلاء على برشلونة قد شجعه على محاولة التوغل جنوبا ومد نفوذه إلى أبعد منها لاسيما على الساحل لتدعيم الإقليم الفرنجى الجديد فى شمال شرق أسبانيا وتوسيع رقعته(١)، لأنه عاد بعد سنوات أى فى سنة ٨٠٨ م (١٩٢ هـ) ، فأرسل جيشا بقيادة ابنه لويس لمهاجمة الثغر الأعلى فى أسبانيا ، ومحاصرة مدينة طرطوشة على الساحل جنوبى برشلونة ، غير أن الحكم — أمير قرطبة — جد فى هذه المرة فى الدفاع عن البلاد ، وأرسل جيشا كثيفا إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن، نجح فى إرغام الفرنج على الارتداد إلى أراضيهم والتخلى عن مشروعاتهم فى الاستيلاء على طرطوشة فى ذلك العام (٢) ، وإن لم يمنع ذلك الفرنجة من محاولة إعادة الكرة فى العام التالى (٨٠٩ م) ، إذ عادوا إلى محاصرة طرطوشة بقيادة لويس أيضا لكن الحكم بعث بابنه عبد الرحمن فى هذه المرة أيضا لقتالهم فانحاز إلى عبد الرحمن عمال الثغور الشمالية، لاسيما الثغر الأوسط والثغر الأعلى فى قواتهما ونشبت بين المسلمين والفرنجة عدة معارك ، انتهت بهزيمة الفرنجة هزيمة ساحقة، وفك الحصار عن طرطوشة سنة ١٩٣ هـ (٣) ، وعاد الأمير الحكم بعد نحو عامين يحاول فى

(I) Jackson : op, cit p. 18

(١) ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس لوحة ٩

عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢ ، أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٨

El - Hajfi : op cit p. 150

(٣) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٧٢ — ٧٣ ، ابن حيان : المقتبس لوحة ٩٠

أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٨

الشمال ضد الفرنجة ، فبعث جيشا بقيادة عمه عبد الله ، فغزا قطالونيا ، وهاجم مدينة برشلونة قاعدة الثغر الفرنجي ، وأنزل بالفرنجة بعض الهزائم ، لكنه فيما يبدو لم يحرز فتوحا ثابتة أو يستولى على قواعد فى هذه الجهات (١) ، وأحس الجانبان بعقم هذه الحروب وكرها آثارها المدمرة ، فمالا إلى المهادنة والصلح ، ولعل الأمير الحكم آثر ذلك بسبب مشاغله العديدة وقيامه بإخضاع الثورات المتأججة فى كل مكان ، واستفحال أمر إدريس بن إدريس في المغرب ، وتوجس الحكم من عواقب هذه الحركة بالنسبة لحكمه فى الأندلس (٢) ، ولهذا عجلت هذه الأحداث بعقد صلح ومهادنة بين الأمير الحكم أمير قرطبة وبين شارلمان عاهل الفرنجة ، واستمر هذا الصلح ساريا فى السنوات التالية حتى وفاة شارلمان فى سنة ٨١٤ م (١٩٩ هـ) (٣) .

وعلى عهد لويس التقى (٨١٤ — ٨٤٠ م) ، الذى عاصر عهده شطرا كبيرا من عهد الأمير عبد الرحمن الثانى أو الأوسط (٨٢٢ — ٨٥٢ م) ، تابع الفرنجة سياستهم العدائية ضد الإمارة الأموية بالأندلس ، وحاولوا التدخل فى شئونها أيضا امتداداً لسياسة شارلمان من قبل ، وعول لويس فى ذلك على إخضاع البشكنس أولا ليؤمن طرق العبور إلى شمال أسبانيا تماما ، ثم التحول لمهاجمة المسلمين هناك (٤) ، فقد أرسل لويس التقى في سنة ٨٢٤ م (٢٠٩ هـ) جيشا تحت قيادة اثنين من الكونتات هما أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس .

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٢ ،

El - Hajji : op. cit. p 129

(٢) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ — ٧٢

(3) Lévi - Provençl : op. cit 1. p. 134

(4) Deanesly : op. cit. p. 354

وإخضاعهم ، إلا أن هؤلاء ما لبثوا أن استغاثوا بجيرانهم المسلمين لدفع الخطر المشترك ، ويبدو أن الذين نهضوا لمساعدتهم من المسلمين هم بنو موسى أو بنو قسى أصحاب تطيلة بموافقة حكومة قرطبة وبتأييدها ، وتعاون البشكنس والمسلمون فى قتال الفرنجة ، ونجح الحلفاء فى إنزال هزيمة ثقيلة بجيش الفرنجة وتبديد شمله (١) ، وجرى أسر قائدى الفرنجة فأطلقوا سراح الأول وأرسل الثانى إلى قرطبة حيث جرى اعتقاله لفتره . وتشير الروايات إلى أن هزيمة الفرنجة فى هذه الموقعة لا تقل أهمية عن هزيمتهم فى باب الشيزروا ، على عهد شارلمان قبل ذلك بنحو ستة وأربعين عاما ، وأن فشل الفرنجة فى إخضاع البشكنس والتحول إلى المسلمين إنما أوقف مشروعات لويس التقى فى شمال أسبانيا ، وأقنعه بضرورة التزام الحذر فى علاقاته مع سكان هذه البلاد (٢) ، بل كان رد الفعل عنيفا فى الثغر الفرنجي فى شمال شرق أسبانيا ، فقد أصر حكام هذا الثغر على الانفصال عن دوقية تولوز ، وأجيبو إلى طلبهم بمقتضى براءة سنة ٨١٧ م ، فانفصلت بذلك الأراضى الواقعة فى جنوب البرنيه وألفت مع سبتمانيا ولاية خاصة أو ثغورا متميزة (٣) ، وان لم يؤد ذلك إلى توقف هجمات فرنج الثغر القوطى فى أقصى الشمال الشرقى لأسبانيا ، وأميرهم فى ذلك الوقت من الفرنجة ويدعى برنهارت ولدجيوم دوق تولوز ، وكان أميرا على برشلونة قاعدة الثغر الفرنجى أو القوطى ، فقد أغار فرنجة ذلك الثغر على أطراف الثغر الأعلى الأسبانى تحت قيادة صاحب برشلونة بعد تلك الأحداث بنحو ثلاث سنوات ٨٢٨ م (٢١٢ هـ) (٤) ، غير أن الأمير عبد الرحمن الأوسط بعث إلى

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٢

(2) Levi - Provençal : op. cit. I pp. 198 — 9

(٣) أرسلان : الحلل السندسية ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧

(4) El - Hajji : op. cit. p 150

ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٣

الشمال بجيش كبير بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسي ، فاجتاح ولاية قطالونيا ، وأنزل بالفرنج هناك عدة هزائم ، وتقدم حتى بلغ جيرونا ، ولكنه فيما يبدو لم يحرز فتوحات ثابتة وإن اكتفى بتلقين فرنج ذلك الثغر درسا وارتد إلى الجنوب ظافرا (١) . وعلى أثر هذه الهزائم بادرت السلطات الفرنجية بعزل هيو دوق تور وطرده من منصبه سنة ٨٢٨ م لأنه تخلى عن نصرة الإمبراطور ، ولم يبادر بالذهاب إلى برشلونة والثغر الفرنجى لمحاربة المسلمين ، وفى نفس العام قام المسلمون بغزو سواحل فرنسا ، فانحدر إليهم لوثر ابن الامبراطور لويس لمقاتلتهم لكنهم كانوا قد انسحبوا (٢) . ولقد تابع لويس التقى سياسته فى أسبانيا وتحين الفرص لإثارة القلاقل فى وجه أمير قرطبة ، فحينما اندلعت ثورة البربر فى طليطلة وماردة ، وجد لويس التقى فرصته للدس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى قادة الثورة فى ماردة يشجعهم ويعدهم المدد والمؤازرة (٣) ، غير أن هذه الثورة انتهت بالفشل وبمقتل زعيمها واستسلام كثير من أعوانه للأمير عبد الرحمن (٤) .

وأظهر لويس التقى عداءه لمسلمى أسبانيا فى ميدان آخر ، حين بسط حمايته على الجزر القريبة من سواحل الأندلس ، مثل جزر البليار وسردينيا وقورسيقا ، وقبل حكام هذه الجزر الحماية الفرنجية ، وساروا فى ركاب

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٣ ، أرسلان : غزوات العرب ص ١٩٣

(2) Daniel : The Arabs and Med, Europe, p. 60

(3) Scott : Moorish Empire in Europe, I, p. 482

وانظر عنان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٧ ، أرسلان : نفسه ص ١٩٢ — ١٩٣

(٤) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٤ : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٧

الكارولنجيين (١) . غير أن الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وجد أن هذا الميدان يمكن أن يكون للمسلمين التفوق فيه نظرا لعدم عناية الفرنجة بالبحر والأساطيل منذ عهد شارلمان (٢) ، وضعف قواتهم البحرية بالنسبة لقوات المسلمين ، لأنهم اعتمدوا فى حروبهم أساسا على الجيوش البرية . وعلى الرغم من أن القوات البحرية الأندلسية لم تكن قد استكملت تمام قوتها على عهد هذا الأمير ، إلا أنها إذا قورنت بقوات الفرنجة تأتى فى مرتبة أقوى منها بكثير ، ولهذا حينما ظهر الأسطول الفرنجى فى مياه سردينيا دمره الأسطول الإسلامى فى الأندلس ، وحاول لوثر ابن لويس التقى القيام بحملة على قورسيقا ، ولكنه فشل فى ذلك لترقب وتحفز الأسطول الأندلسى بالقرب من سواحل هذه الجزر (٣) . ولقد بادر الأمير عبد الرحمن بحشد قواته البحرية على طول السواحل الأندلسية الشرقية ، خاصة فيما بين طرطوشة وبلنسية ، وأتبع ذلك بشن هجمات مستمرة على الشواطىء الفرنجية فى جنوب فرنسا فيما بين سنتى ٨٣٩ م و ٨٥٠ م حتى نجح فى القضاء على قواعد المقاومة فى تلك المناطق مثل مرسيليا وآرل والمناطق المجاورة (٤) ، واستاق المسلمون جميع الرجال فى تلك النواحى وأسروا الرهبان ، ويقال أن الراهبات فى دير مرسيليا خشين من الغزاة على أعراضهن فشوهن خلقة أنفسهن بجدع الأنوف حتى يمكن فى

---

(1) Deanesly : op. cit. p, 354

وأرسلان : نفسه ص ١٨١ — ١٨٢

(2) Pirenne : op. cit. p, 159

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٩ ، أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩١

(4) Hoyt and chodorow : op, cit: p, 194

حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ١٢٩

مأمن من تجاوز الغزاة (١) . وتحول الأسطول الأندلسي إلى الهجوم على الجزر الخاضعة لحماية الفرنجة لاسيما جزر البليار ، التى دأبت فى تلك الفترة على مهاجمة السفن الإسلامية المتجهة إلى سواحل الأندلس والخارجة منها ، وحينما زادت وطأة الأسطول الأندلسى على هذه الجزر ، اقتنع حكام هذه الجزر بعدم جدوى الحماية الفرنجية ، فقبلوا سيادة الأمويين وتعهدوا بعدم التعرض للسفن الإسلامية (٢).

وبعد وفاة لويس التقى انقسمت الإمبراطورية الفرنجية إلى ثلاثة أقسام ، بمقتضى معاهدة فردن سنة ٨٤٣ م ، وحكم الجزء الشرقي منها لويس الجرمانى ، والقسم الأوسط لوثر ، والقسم الغربى شارل الأصلع ، وسارت الأمور فى الإمبراطورية الكارولنجية بحيث لا تؤدى إلى خطورة على حكام قرطبة الأمويين نظرا لما اندلع من الفتن فى الممالك الثلاث ، ونشوب الحروب الأهلية فى دولة الفرنجة ، ومع هذا ظلت العلاقات الفرنجية الأسبانية تتسم بالعداء (٣)، وأتيح لحكام قرطبة أحيانا التدخل فى شئون الفرنجة وتشجيع الثورات ضد أبناء لويس التقى ، ولقد عاصر أبناء لويس التقى السنوات العشر الأخيرة من حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط، وتشير بعض النصوص إلى أنه فى سنة ٨٤٧ م (٢٣٣ هـ) اندلعت ثورة ضد الفرنجة فى الثغر الفرنجي فى شمال شرق أسبانيا

---

(1) Hoyt and chodorow . op cit, p. 192

أرسلان : نفس المرجع ص ١٧٥

(٢) ابن حيان : القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط (نشر محمود مكى) ، والعبادى : المرجع السابق ص ١٤٧

ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٩

(3) El - Hajji : op. cit. pp. 151 — 2

أرسلان : نفسه ص ١٩٥

يقودها ثائر يدعى جان دى تولوز ، الذى طرح طاعة شارل الأصلع ملك الفرنجة ، وأعلن الخروج عليه وكان قد وفد فى العام السابق على بلاط قرطبة يلتمس من الأمير عبد الرحمن العون والتأييد(١) ، ووجد الأمير عبد الرحمن الفرصة مواتية لمضايقة الفرنجة والانتقام منهم ، فاستقبل هذا الثائر بترحاب كبير وأمده بالمساعدة ، وبعث به إلى الثغر الأعلى وأوصى والى طرطوشة ووالى سرقسطة بإمداده وتأييده ضد ملك الفرنج ، فأخذ هذا الثائر يعيث الفساد فى الثغر الفرنجى ، وحاصر برشلونة وضرب حصونها (٢). غير أن هذه الثورة لم تؤد إلى نتائج حاسمة فى العلاقات بين الجانبين ، لأن شارل الأصلع ما لبث أن دخل فى مفاوضات مع أمير قرطبة عبد الرحمن ، وعقد معه صلحاً ، ليحل السلام بينهما بدلا من الحرب والقتال ، ولكنه كان بمثابة هدنة بين الطرفين لم يمنع من استمرار الروح العدائية بين الجانبين (٣) .

ولقد دخلت الإمبراطورية الكارولنجية فى فترة اضطرابات وانقسامات داخلية وران عليها ضعف واضمحلال ، بعد وفاة أبناء لويس التقى الثلاثة ، واقتسم أحفاد لويس التقى أركان الإمبراطورية ، وتكاثرت المحن عليها ، واندلعت الحروب الأهلية بين ربوعها وزاد تجزأ الإمبراطورية وانقسامها (٤) ، وانتقل التاج فى فرنسا من شارل البسيط إلى أودو كونت باريس ، وعند وفاته عاد شارل البسيط إلى عرش فرنسا من جديد سنة ٨٩٨ م وظل يحكم هذا

(1) Reinaud : Mus. col. pp. 119 — 20

(2) Lévi - Provençal : op. cit. 1. pp. 211— 12

(٣) أرسلان : الحلل السندسية ج ٢ ص ١٢٢

Reinaud : Mus. Col p. 120

El - Hajji : op. cit. p. 150

(4) Camb. Med Hist. V. III, p. 34

الجزء من الإمبراطورية الكارولنجية حتى وفاته سنة ٩٢٩ م ، ولقد منح شارل البسيط خلال هذه الفترة دوقية نورماندیا لزعيم النورمان رولو سنة ٩١٢ م ، فبـدأت مرحلة جديدة فى تاريخ فرنسا وتاريخ النورمان بغرب أوربا (١)

وهذه الفترة الطويلة تعاصر فى أسبانيا عهد كل من الأمير محمد بن عبد الرحمن ٨٥٢-٨٨٦ م وابنه المنذر وابنه الثانى عبد الله ٨٨٦-٩١٢ م ، وتمثل هذه الفترة الثلثين الأخيرين من القرن الثالث الهجري تقريبا (٢٣٨ — ٣٠٠ هـ) ، وباستثناء بعض الاشتباكات القليلة بين الفرنجة ومسلمى أسبانيا فى هذه الفترة لا نجد مشروعات حربية هامة بين الجانبين (٢) ، بل إن معظم ما جرى من اشتباكات بينهما فى هذه الفترة جاء على غير المستوى الرسمى ، فحين لجأ مناهضو شارل الأصلع إلى المسلمين لطلب المعونة سنة ٨٧٧ م أمدهم المسلمون بالجند وقدموا لهم المساعدة التى أجبرت شارل الأصلع على طلب الصلح ، على حين لم يكف المسلمون عن قرع أبواب فرنسا ، فنزلوا فى بروفانس سنة ٨٦٩ م (٢٨٣ هـ) ، وحاولوا الاستقرار فى هذا الإقليم (٣) . وساعدت أحوال الإمبراطورية الكارولنجية على استقرار المسلمين فى جنوب فرنسا ، فقد استقل بوزو Boso دوق بروفانس بأكويتين ، وأعلن نفسه ملكا بمساعدة رجال الدين والنبلاء المحليين ، وذلك بعد وفاة شارل الأصلع بسنتين فى أكتوبر سنة ٨٧٩ م ،

---

(١) محمد الشيخ : الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى ص ٢٨٦ ،
Haskins : op. cit. pp 26 — 7

(2) Lévi – Provençal ; op. cit. I, pp. 225 — 239

(٣) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ٢٩ إ — ١٣٠ ، طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٢٠١

وضمت مملكة بوزو حوض نهر الرون من آرل حتى ليون (١) ، وتعددت الثورات التى تزعمها مقدموا الأديرة والنبلاء ، وكل ذلك أغرى المسلمين بالاستقرار فى الجنوب. ثم ساد السلام بين الجانبين وتبودلت السفارات والرسائل الدبلوماسية بينهما ، ولهذا لا نستطيع القول أن العداء بين الفرنجة والمسلمين قد بلغ فى هذه الفترة ما بلغه فى السنوات السابقة ، وإن تحول العداء بين الجانبين إلى عداء بين النورمان ومسلمى الأندلس ، على أساس أن نورمانديا أصبحت جزءا من فرنسا اعتبارا من وقت معاهدة سان كلير سنة ٩١٢ م التى أبرمت بين شارل البسيط ورولو زعيم النورمان كما أسلفنا (٢) .

وعلى عهد شارل البسيط فى فرنسا والأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن فى أسبانيا جرى فتح جزر البليار على أيدى المسلمين ، وتبعيتها لحكومة قرطبة. وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط قد غزا هذه الجزر الشرقية سنة ٨٤٨ م (٢٣٤ هـ) (٣) ، ونكل بأهل ميورقة بالذات لتعرضهم لسفن المسلمين القادمة إلى سواحل الأندلس والخارجة منها ، وأجبرهم على دفع الجزية ، وتقديم الولاء لحكومة قرطبة (٤) ، واضطر حكام هذه الجزر إلى قبول الحماية الإسلامية بعد أن تأكدوا من عدم جدوى الحماية الفرنجية ، لانشغال دولة الفرنجة بمنازعاتها الداخلية من ناحية ، وضعف أساطيلها البحرية بالمقارنة

---

(1) Deanesly ; op. cit. p 461

(2) Oaskins : op. cit. p. 45

Hallan : op. cit. p. 16

Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 192

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٩

(4) Lévi - Provençal : op. cit, I, p. 200 , p. 260

بأساطيل المسلمين من ناحية أخرى (١) . وفى أواخر عهد الأمير عبد الله أى. فى سنة ٩٠٣ (٢٩٠ هـ) ، جرى فتح جزيرة ميورقة حين سير الأمير عبد الله القائد عصام الخولانى إليها فى قوة بحرية من المجاهدين ، فشدد الحصار على الجزيرة ، وتابع ضرباته فى جهاتها حتى استسلمت ودخلها المسلمون ، وجاءتهم الإمدادات من سواحل الأندلس ، وتولى حكمها الوالى عصام الخولانى ، وأقره الأمير على ولايتها . وهكذا دخلت جزر البليار أو الجزر الشرقية فى حظيرة الدولة الإسلامية والتبعية لحكومة قرطبة (٢) . ويذكر أن عصام الخولانى هذا كان قد جنحت به سفينة من قبل إلى سواحل ميورقة بينما كان فى طريقه إلى الشرق لأداء فريضة الحج ، فاختبر الجزيرة ورأى مبلغ ضعفها وبقية الجزر الشرقية وإمكانية فتحها بسهولة فعرض مشروعه على الأمير عبدالله الذى وافقه وأرسله على رأس تلك القوة التى تمكنت من فتحها (٣) .

ولعل الأهم من ذلك كله ما جرى فى تلك الفترة من غزوات النورمان وهجماتهم على أسبانيا بعد أن أصبحت نورمانديا جزءا من فرنسا واعتنق النورمان المسيحية ، واندمجوا فى الحياة الاجتماعية والمجتمع الفرنسى ، وبدأوا دورهم باعتبارهم أهل دوقية فرنسية ، أقيمت فى جزء من فرنسا ، فى بدايات القرن العاشر الميلادى . وما لبثت هذه الدوقية أن شكلت خطرا كبيرا على أسبانيا عن طريق الحملات والاغارات البحرية التى كانت تهاجم السواحل الغربية الأندلسية (٤) ، وكذلك عن طريق الحملات البرية التى كانت تعبر جنوب

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٩

(2) Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 395

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦٤

(4) Dozy : Les Normands en Espagne, dans Reck, II. p, 250—371

Lèvi - Provençal : op. cit. I, p. 218

فرنسا ثم تغير على الثغور الأندلسية الشمالية . حقيقة اشتدت الحملات البرية على شمال الأندلس التى قام بها النورمان فى الفترة التالية ، وبلغت ذروتها فى القرن الخامس الهجرى على عهد ملوك الطوائف (القرن الحادى عشر الميلادى) حينما استولى النورمان على قلعة بربشتر Barbastro شمال سرقسطة سنة ١٠٦٤ م (٤٥٦ هـ) ، إلا أن بعض المصادر الإسلامية لاسيما العذرى ، أكدت أن هذه الإغارات النورمانية البرية ، على مناطق الثغر الأعلى وسرقسطة، ترجع إلى ما قبل ذلك ، إلى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، بل ربما قبل ذلك على عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وتركزت على عهد الأمير عبد الرحمن الناصر كما يقرر العذرى [١] .

وبعد وفاة شارل البسيط سنة ٩٢٩ م وحتى آخر الفترة الكارولنجية ، عادت فرنسا إلى عهد الاضطراب والانقسام والتفتت واندلاع الحروب الأهلية ، وتقلب على عرشها فى أجزاء مختلفة أكثر من ملك منهم رؤول (٩٢٣ — ٩٣٦) ولويس الرابع بن شارل البسيط (٩٣٦ — ٩٥٤ م) الذى نازعه هيو الكبير على السلطة ، ولكنه ترك العرش لابنه لوثر (٩٥٤ — ٩٨٦ م) الذى نازعه هيو كابيه بن هيو الكبير وانتهى الأمر بقيام أسرة كابية فى العرش سنة ٩٨٧ م [٢] وتعاصر هذه المرحلة حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١٢ م — ٩٦١ م) وابنه الحكم الثانى (٩٦١—٩٧٦م) . وحرص حكام الإمبراطور الفرنسية فى قسمها الشرقى وقسمها الغربى على إقامة علاقات الود والصداقة مع حكومة قرطبة ، فضلا عن البابوية فى روما على عهد البابا

(١) العذرى : ترصيع الأخبار ص ٧٢ — ٧٣ ، وانظر العبادى : المرجع السابق ص ٢١٥ — ٢١٦

(2) Camb. Med. Hist. V; III; p. 80

مارينوس الثانى (٩٤٢ — ٩٤٦ م = ٣٣١ — ٣٣٥ هـ) والبابا اجابيتوس الثانى (٩٤٦ — ٩٥٥ م = ٣٣٥ — ٣٤٤ هـ) (١) ، وخطب الحكام والملوك ود الخليفة عبد الرحمن الناصر ، نظرا لما احتلته قرطبة من مكانة بين عواصم الدنيا فى ذلك الوقت،ووفدت السفارات إلى قصر الخلافة متتابعة(٢)-كاسيلى- وأرسل الخليفة الناصر سفارة إلى روما طلبا لبعض الأعمدة ومخلفات الآثار ، والأطلال الرومانية ، ليزين بها مدينة الزهراء ، التى حرص على تجميلها ، فأجيب الخليفة إلى طلبه ، بعد أن وفدت سفارة من روما بهذا الخصوص(٣).

ومع ذلك لم يخل الأمر أحيانا من اشتباكات عسكرية بين المسلمين فى الأندلس والمغامرين النورمان من فرنسا ، فقد تعاظم خطر النورمان بحملاتهم البرية والبحرية على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر،وأشارت المصادر المعاصرة إلى قيام النورمان ببعض هذه الحملات على مدن الثغر الأعلى (٤) من ذلك ما يرويه العذرى : « وسجل أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ليحيى بن عبد الملك على بربشتر والقصر فى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) ، فكان بها إلى أن أسره المجوس(النورمان) الذين خرجوا إلى ثغر لاردة وسرقسطة فى يوم السبت لثمان مضين من شوال من العام المؤرخ ٣٣٠ هـ ، ففداه رجل من التجار بألف مثقال .. وقدم يحيى إلى سيده أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمر للذى فداه بتضعيف ما أداه فيه ، وصرفه إلى بربشتر فدخلها سنة ٣٣١ هـ » (٥) . وتفاقم خطر

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦

Reinand : Mus. Col. p 1-1

(٢) Lane-Poole : op. cit. p 129

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦٥

El-Hajji : op. cit. p. 287

(4) Lévi-Provençal ; op. cit. I, pp. 218 — 19

(٥) العذرى : ترصيع الأخبار ص ٧٢ — ٧٣

النورمان أيضا من جهة البحر ، على عهد الحكم الثانى بن عبد الرحمن الناصر ، فقد هاجموا سواحل الأندلس الغربية سنة ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) ، لاسيما منطقة سهول لشبونة وجنوب البرتغال الحالية ، ودارت معركة هامة أحرز فيها النورمان بعض التفوق ، ثم انسحبوا حاملين معهم بعض الأسرى ، إلا أن الأسطول الأندلسى عاد فقطع عليهم خط الرجعة وفاجأهم ، وحطم كثيرا من سفنهم وإستخلص الأسرى منهم [1] ، وهاجم النورمان سواحل الأندلس مرة أخرى فى سنتى ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) ، والسنة التالية لها وصـــدهم الأسطول الأندلسى ومنعهم من النزول على سواحل الأندلس ، وأجبرهم على الارتداد [2]

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٣٩

(٢) ابن عذارى : نفسه ج ٢ ص ٢٤١

الفصل السادس

الاشتباكات بين الجانبين على المستوى الشعبي

كانت تلك هي الاشتباكات العسكرية الرسمية بين الفرنجة ومسلمي الأندلس الأمويين ، لكن هناك جانبا من الاشتباكات والحروب والغزوات غير الرسمية بحريا وبريا ، قام بها المسلمون ضد شواطئ فرنسا الجنوبية وما يجاورها ، شكلت جانبا هاما في العلاقات بين الدولتين ، وصبغت هذه العلاقات بالعداء الشديد (١) . حقيقة ليس هناك ذكر لهذه الإغارات الإسلامية على فرنسا وسهول ليجوريا وهضاب سويسرا الحالية في المصادر الإسلامية ، بل إننا لا نعرف أحداً من قادة هذه الغزوات أو شيئاً عن الحكم الإسلامي الذي استمر في جنوب أوربا فترة تقرب من خمس وثمانين سنة لأننا نعتمد في حقيقة الأمر على المصادر اللاتينية وغيرها من المصادر الأوربية (٢) . وربما يرجع ذلك إلى أن هذه الغزوات كانت تدخل ضمن المشاريع الحربية والمغامرات العسكرية غير الرسمية ، يقوم بها جماعات خاصة من المجاهدين لا يربطهم في كثير من الأحيان بحكومة قرطبة صلات رسمية ، وإن تمتعوا بعطف الإمارة وتأييدها ، نظراً لروح الجهاد البادية في مغامراتهم ضد مسيحي غرب أوربا في ذلك الوقت (٣) .

---

(1) Scott : op, cit. I, pp. 35 — 6
Deanesly : op. cit: p. 450

(2) El - Hajji ; op. cit. p. 240

(٣) عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٦

اتخذت هذه الإغارات شكلا متعاظما ابتداء من أوائل القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ، أى على عهد عاهل الفرنجة الكبير شارلمان، وكان معظمها حملات بحرية يقوم بها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين، وأحيانا بعض الهاربين من الأندلس أو غير الراضين عن الإمارة الأموية هنالك، وجعلت هذه الجماعات سواحل فرنسا الجنوبية والجزر القريبة هدفا لحملاتها وإغاراتها منتهزين فرصة ضعف البحرية الإفرنجية، وعدم اهتمام الفرنجة بالبحر فى ذلك الوقت(١). ففى سنة ٨٠٦ م (١٩٠ هـ) هاجمت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة قورسيقا ، وأنزلت بالأسطول الفرنجى الذى بعث به بيبن بن شارلمان — ملك ايطاليا حينئذ — لقتالهم هزيمة كبيرة ، وعادت بكثير من المغانم والسبى(٢) ، وتابعت جماعات المجاهدين غزوهم لجزر قورسيقا وسردينيا وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط(٣) ، واتجهت جماعات أخرى من هذه الفرق المجاهدة بحرا إلى سواحل فرنسا الجنوبية ، فأحدثوا بها الخراب والدمار(٤)، وانحدر اليهم لوثر ابن الإمبراطور للقائهم لكنهم كانوا قد انسحبوا ، وكان ذلك سنة ٨٢٨ م(٥) . ووصفت الروايات الفرنجية والكنسية المعاصرة هذه الإغارات والغزوات الإسلامية بأنها كانت غارات خراب ودمار ، وأنها كانت تحدث الرعب بين السكان النصارى ، وتترك المناطق الجنوبية فى فرنسا خرابا ودمارا(٦) ، وأن أولئك المجاهدين المسلمين كانوا فى غاية الجـــرأة(٧) ،

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 159

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٨٢

(3) Lyon; Rowen, Hamerow : op. cit. p. 117

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit p. 192

(5) Daniel : The Arabs and Med. Europe, p. 60

(6) Ibid : p. 55

(7) Brooke : A Hist. of Europe p. 35

بحيث أنهم كانوا يتجولون فى مياه المحيط الأطلنطي دون خوف أو رعب ، وأنهم كثيرا ما هاجموا السواحل الغربية لفرنسا أيضا ، وأنهم تجرأوا أحيانا ودخلوا إلي قلب البلاد عن طريق مصبات الأنهار ، لاسيما نهر اللوار والأنهار التى تصب فى سواحل فرنسا الغربية ، أى أنهم توغلوا إلى أبعد من مصبات هذه الأنهار .

فى سنة ٨٠٨ م (١٩٢ هـ) ، نزل المسلمون بسردينيا، ولما وجدوا مصاعب فى غزوها تحولوا إلى قورسيقا ، غير أن القائد بورشار Burchard أوقع بهم واستولي على نحو ثلاثة عشر مركبا وهزمهم وأجبرهم على الانسحاب [١]. ولكن جماعات المسلمين عادت فى العام التالى ونزلت بسردينيا وقورسيقا، ولم يتمكن الفرنسيون من طردهم إلا بشق الأنفس ، وكانت جماعات المسلمين فى هذه المرة قادمة من شمال افريقيا [٢] ، وكرر المسلمون إغاراتهم سنة ٨١٣ م (١٩٧ هـ) فاجتاحوا قورسيقا وأسروا وغنموا وإن فقدوا فى هذه الغارة نحو ثمانية مراكب بما بها من أسرى ، ورد المسلمون على ذلك باجتياح سواحل نيس وبروفانس وضواحي روما [٣] . وفى سنة ٨٢٠ م وصلت سفن المسلمين إلي سردينيا وتصدى لهم أسطول مسيحى ، إلا أن المسلمين تغلبوا عليه وحطموا ثمانى سفن وأحرقوا عدد آخر منها [٤] .

---

(١) أرسلان : نفسه ص ١٨٢ — ١٨٣ ،

Daniel : op. cit. p 60

(2) Lyon, Rowen, Hamerow; op cit, p 117

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٨٣ ،

Bradford : Mediterranean Portrait of a Sea; p. 330

(٤) أرسلان : نفس المرجع ص ١٩٠ — ١٩١ ،

Dinuel: T he Arabs and Med. Europe, p 51

ولقد اتخذت بعض جماعات المجاهدين من الجزر الشرقية (جزر البليار) قواعد الانطلاق والهجوم على سواحل فرنسا لاسيما إقليم بروفانس الغنى ، فلقد سارت سفنهم فى سنة ٨٣٨ م (٢٢٤ هـ) على عهد لويس التقى بن شارلمان من الجزر الشرقية ومن طركونة وهاجموا ثغر مرسيليا وما جاوره من الأراضى (١) وأمعنوا فى الأسر وحمل المغانم والأسلاب ، ولم يستطع لويس التقى الذى كان يعانى من خروج أبنائه والحروب الأهلية فى بلاده ، لم يستطع التصدى لهذه الجماعات من المجاهدين أو مقاتلتهم (٢) ، وأطلقت أيدى هـذه الجماعات فى سواحل فرنسا الجنوبية تأسر وتقتل وتسبي وتحمل المغـانم والأسلاب ، ثم عاد المجاهدون إلى مهاجمة سواحل إقليم بروفانس مرة أخرى ونفذوا إلى مصب نهر الرون واقتحموا مدينة آرل ، وخربوا كنائسها ، وأنزلوا بها الخراب والدمار ، وتتابعت هجماتهم على تلك النواحى فى السنوات التالية (٣) .

وعلى عهد شارل الأصلع بن لويس التقى ، وفي أواخر عهـد الأمير عبد الرحمن بن الحكم عبر موسى بن موسى والى سرقسطة وزعيم الثغر الأعلى سنة ٨٥٠ م (٢٣٦ هـ) جبال البرنيه وغزا سبتمانيا في جنوب فرنسا وأثخن في نواحيها ، واضطر شارل الأصلع الذى كان غارقا فى الفـتن الداخلية والتصدى لمؤامرات إخوته وهجمات النورمان على سواحل بلاده إلى مهادنة

---

(1) Davis : op. cit. p 168

(٢) أرسلان : نفس المرجع ص ١٩٤ — ١٩٥

(3) Bradford : op cit. p. 3·0 ,

أرسلان : نفسه ص ١٩٤ — ١٩٥

موسى ، وعقد الصلح معه واسترضائه بالهدايا والتحف الجميلة (١) . ويبدو أن هذه الإغارة لم يكن لها طابع رسمى ولم تشر بها حكومة قرطبة ، وإنما تدخل فى نطاق الجهاد الإسلامي والإغارات غير الرسمية ، لأن بنى قسى تمتعوا فى ذلك الوقت بنوع من الاستقلال الذاتى فى ظل ولاء شكلى لحكومة قرطبة(٢). ولقد عادت جماعات المسلمين المجاهدين فى سنة ٨٦٩ م على عهد شارل الأصلع أيضا إلى مهاجمة إقليم بروفانس مرة أخرى بحرا واستولوا على بعض القلاع والحصون على مصب نهر الرون ، وهاجموا المناطق المجاورة وأسروا أسقف مدينة آرل ، ثم عادوا مثقلين بالمغانم والأسلاب ، وبكثير من الأسرى والسبي (٣) .

ولقد وجد المجاهدون المسلمون الفرصة مواتية ليس الإغارة والعودة محملين بالمغانم والأسرى فحسب ، وإنما للاستقرار والاحتلال فى جهات مختلفة من جنوب فرنسا ، منتهزين فرصة الاضطراب الذي ساد الإمبراطورية الكارولنجية في النصف الثانى من القرن التاسع (٤) ، بصفة خاصة ، وقرب أواخر ذلك القرن حين اندلع الصراع على السلطة بين أودو كونت باريس وشارل البسيط سليل الأسرة الكارولنجية ، ومنتهزين فرصة قيام نزعات انفصالية فى جنوب فرنسا وثورات خارجة على حكومة باريس (٥) . فقد أعلن ثائر في الجنوب الخروج على السلطة الفرنجية ، وأعلن استقلاله ويدعى

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٢

(٢) عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٧

(٣) أرسلان : نفسه ص ٢٠٥

(4) Deanesly : op. cit. p. 461

(5) Davis : op. cit. p. 168

بوزو B. so ، الذى غلب على ولايتى دوفينة ـ بروفانس ، ولقب نفسه بملك آرل، وتصدى له بعض الطامعين فى السلطة فى غاليسيا، واندلعت بينهم حروب أهلية فى مستهل العقد الأخير من القرن التاسع الميلادى (٨٩٠م) [١]، ووجدها المجاهدون المسلمون فرصة للغزو والاحتلال ، إذ رست سفينة صغيرة تقل عدداً قليلا من المجاهدين المسلمين على خليج سان تروبيه فى تلك الآونة ، ثم لجأوا إلى غابة قريبة تظللها الجبال ، وما لبثوا أن هاجموا الضياع القريبة وأحدثوا بها الخراب والدمار، ثم عادوا إلى ملجئهم الحصين، وكرروا إغاراتهم وفى كل مرة كانوا يلوذون بذلك الملجأ الحصين [٢]، وحين تأكدوا من منعة ذلك المكان وحصانته من جهة البر والبحر أيضا، عولوا على الاستقرار فيه وأرسلوا فى طلب المجاهدين من كافة الأنحاء والثغور الإسلامية القريبة ، والتمسوا التأييد والعون من حكومة قرطبة ومن المغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين ومجاهدى الإسلام [٣] ، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى كانت هذه البقعة تضم عدة قلاع وحصون منيعة أمنعها وأحصنها قلعة أو حصن تسميه الرواية الفرنجية فراكسنتم Fraxinetum [٤]، أقام هذه القلعة المجاهدون المسلمون ولاذوا بها كلما تعرضوا للخطر ، وفرضوا سلطانهم على الجهات القريبة وعلى أمراء النواحى ، وقاموا بإغارات متعددة جعلت منهم أسياد تلك البقاع والتمس معونتهم بعض الأمراء المتصارعين والمتنافسين ضد بعضهم البعض، فوجد المجاهدون فى ذلك فرصة لفرض نفوذهم وتوسعوا فيما حولهم وروعوا

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 460—1

(2) Davis : op. cit. p. 168

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٨

وانظر كذلك — عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٨

(4) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 193

المناطق المجاورة ، وبثوا بها الذعـر ، وفي كل جنوب بروفانس ، حتى شاع بين الناس هناك أن كل واحد منهم بوسعه أن يهزم ألف رجل من فرط ما أحدثوه في نفوس الناس من الخوف [١] .

ولقد اختلف المؤرخون حول موقع فراكسنتم ، فوضعـه المؤرخـون الفرنسيون في خليج سان تروبيه Saint Troppez ، بين فرنسا وإيطـاليا ، ووضعه المؤرخون الإيطاليون في بروفانس بقرب مدينة آرل أو خلف جبال الألب [٢] . وليس المهم هو تحديد الموقع الذى يبدو أنه كان في بروفانس على خليج سان تروبيه فعلا ، وموضعه الحـالي هو المكان المعـروف باسم لاجارد فرينى La - Garde Frainet ، ويقع بين هيير Hyeres وفريجوس Fréjus [٣] ، وإنما المهم هو ملاءمة المكان لمشروعات أولئك المجـاهدين ، فقد كان حـول الخليج أجمة متشابكة لا يجرؤ أحد على دخولها ، وإلى شمـال الخليج كانت سلسلة جبال تشرف على جزء كـبير من بروفانس وعلى البحر ، فكان البحـر يمثل بابا هاما لتلقى الإمدادات والغابة المتشابكة تصلح لهم معقلا يلجأون اليه عند الضرورة ، ويمثل البر لهم منفذا إلى النـواحى التى يرومون الإغارة عليها (٤) ويبدو أن العرب لم يشيدوا حصنا واحدا في هذه الجهات على حد قول المؤرخ بوش صاحب تاريخ بروفانس بل أطلقوا إسم فراكسنتم على حصون

---

(1) Reinaud ; op. cit. p 161

(٢) أرسلان : نفس المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ (حاشية ١)

(3) Daniel : op. cit. p. 52

Pirenne : op, cit. pp. 156 , p. 249

مؤنس : المسلمون في حوض البحر الابيض ص ١٣٠ — طرخان : المسلمون في أوربا ص ٢٠٣

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٨

كثيرة شادوها فى دوفينى وسافوى وبيمونت (١) .

ولقد أمدت أحوال غاليسيا المضطربة المسلمين بفرصة أخرى مواتية ، وذلك حين خلف ملك آرل المتوفى (بوزو) ابنه لويس الذى زج بنفسه فى حروب فى إيطاليا إلى جانب حلفائه ، فهزم هناك وأسر وترك مملكته فى آرل دون دفاع ، فاضطربت شئونها وسادت الفوضى كل غاليسيا ، وكانت هذه هى فرصة المسلمين لاستمرار التوسع فى جنوب فرنسا واستعمار المنطقة كلها فى خاتمة القرن التاسع (٢) ، إذ اخترق المجاهدون دوفينة ، وعبروا أهم ممرات الألب الفرنسية واستولوا فى سنة ٩٠٦ م (٢٩٤ هـ) على دير نوفاليس الشهير الواقع فى وادى سيس ، وفر رهبانه إلى مختلف الأنحاء ، وما لبث المسلمون أن أغاروا على القرى والضياع المجاورة ونهبوها وقتلوا عدداً من أهلها (٣) ، وبلغ من شدة بأس هؤلاء المغامرين أن بعضهم قد أسر أثناء هذه الأحداث ، وحملوا إلى تورينو فى إيطاليا حيث سجنوا فى أحد أديرتها ، ولكنهم استطاعوا تحطيم أغلالهم وفروا عائدين إلى زملائهم بعد أن أشعلوا النيران فى الدير ، وفى المدينة بأسرها ، واحتل المجاهدون معظم ممرات جبال الألب فسيطروا على طرق الاتصال بين فرنسا وإيطاليا (٤) ، ولازالت السرايا

---

(1) Lévi - Provençal ; op. cit. 11, pp 154 — 5
وأرسلان : نفسه ص ٢١٤ — ٢٢٥

(2) Davis : op. cit q. 168

(3) Hoyt and Chodorow : op. cit. pp, 192

(4) Pirenne : op. cit, p. 158
Lewis : The Arabs in Hist. p. 117
Davis : op. cit. p 183
Keen : A Hist. of Med. Europe, p. 23

الإسلامية من المجاهدين تنزل على سواحل فرنسا الجنوبية لاسيما فى بروفانس ، حيث مرحت وأغارت ونهبت . فى عام ٩٠٨ م (٢٩٦ هـ) رست سفن المسلمين على شاطىء بروفانس ، تقل عددا من البحـــارة المجاهدين على مقربة من « إيج مورت » وقامت بنهب دير بالمودي (الترتيل)، الذى كان قد هدم على عهد شارل مارتل ثم أعيد بناؤه (١) ، ويلاحظ أن الأديرة كانت هدفا لتلك الإغارات لما كانت تغص به من الذخائر والأموال والنفـــائس ، وانساب المسلمون فى مختلف النـواحى المجاورة ، فاجتاحوا البقاع القريبة وهاجموا مرسيليا ذاتها ، وهدموا كنيستها وغزو إيكس وكثرت سباياهم وأسيراتهم، حيث أغراهم ذلك بالزواج منهن ، ليكثر نسلهم ويتعـــاظم عددهم وتزداد قوتهم (٢) .

وبلغ من شدة إغارات المجاهدين المسلمين فى هذه الجهـات أن قطعت الصلة بين فرنسا وإيطاليا، واحتل المسلمون جميع ممرات جبال الألب، ولم يسمحوا لأحد بالمرور إلا بإذن سابق ، وبعد دفع رسم معين (٣) ، وأحـدثت غزوات المسلمين فى بروفانس ودوفينى وبلاد الألب الخراب والدمار ، وفشلت محاولات المسيحيين فى مقاومتهم ولم تنج مرسيليا فى هذه الآونة من هجماتهم ، وإن بالغت الروايات المسيحية لا سيما التى كتبها القسس ورجال الدين وحوليات الأديرة والكنائس فى وصف تلك الهجمات وما نجم عنهـا من تنكيل بالأهالى والسكان (٤) .

---

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢١٦

(2) Hoyt and Chedorow : op. cit. p. 192

(٣) أرسلان : نفسه ص ٢١٦ ،

Brooke : A Hist. of Europe, p. 35

(4) Daniel : op. cit. p. 52, pp. 55 — 6

Davis : op. cit. p. 169

ويحسن هنا أن نشير إلى تطور أصاب تواجد المسلمين فى جنوب فرنسا، وأخرج الحركة عن مسارها بعض الشيء، ولعل ذلك كان له ضلع فيما جرى بعد ذلك من أحداث أدت إلى طرد المسلمين من هذه الجهات، والقضاء على نفوذهم فى تلك البقاع (١)، ذلك أنهم فيما يبدو تباعدوا إلى حد ما عما خرجوا من أجله وكرسوا له حروبهم فى البداية، وهو الجهاد فى سبيل الله، والعمل على الفوز بمرضاة الله، وأخذوا يقتربون إلى حد كبير من الأهداف الدنيوية والعمل على الفوز بالمغانم والأسلاب، وجعلها هدفا أساسيا، بل سمحوا لأنفسهم بالزواج من أسيراتهم الفرنسيات والإيطاليات(٢)، وتجاوزوا الحد حين سمحوا أيضا لبعض النصارى المغامرين من أهل النواحى القريبة بالانضمام إليهم، وكذلك بعض الخارجين على القانون وغيرهم ممن أغرتهم الدنيا بالعمل من أجل المغانم والأسلاب، ولعل ذلك هو السبب فيما أطلق على المجاهدين فى هذه الحقبة بالذات بقراصنة المسلمين Saracen pirates (٣)، بعد أن كان الجميع يعلم تماما مقاصد هذه الجماعات وأهدافها السامية، إذ كثر استعمال كلمة القرصنة للإشارة إلى أولئك المغامرين المسلمين، ودمغهم بهذه الصفة، ومما يدل على ذلك أنهم لجأوا إلى إغلاق طرق الألب إلى إيطاليا، ولم يسمحوا للحجاج الذاهبين لأداء الحج إلى المزارات الإيطالية بالمرور إلا بعد دفع ضرائب فادحة (٤). وهكذا تباعد المجاهدون إلى حد كبير عن أهدافهم العليا واقتربوا كثيرا من الأهداف الدنيوية، واستحق الكثير منهم فى هذه الآونة بالذات أن يوصف

---

(١) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٠٢

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٩٠٢

(3) Davis ; op cit. p. 168

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٠

بصفة القرصنة ، وإن ظل فريق منهم يواصل العمل والجهاد في سبيل الله ، ولم يخرج عن الأهداف السامية التي خرج من أجلها (١) .

وبعد وفاة شارل البسيط ، وتنازع رؤول ولويس الرابع بن شارل البسيط على السلطة في فرنسا ، زاد الضعف والانقسام في البلاد ، وواصلت الجماعات الإسلاميه غزوها لجنوب فرنسا والاستقرار هناك ، ففي سنة ٩٣٠ م (٣١٨هـ) غزا المسلمون فريجوس ، وكانت في ذلك الوقت أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية (٢) . كما غزوا أيضا ثغر طولون وأجبروا السكان على الفرار إلى الجبال ، وعاثوا في الجهات المجاورة ، وأنزلوا الخراب والدمار بالمدن والحصون ، وأضرموا النيران في الأديرة والكنائس ، وحملوا معهم المغانم والأسلاب (٣) ، غير أن هذه الإغارات وما تبعها من تدمير وتخريب أثارت حنق السلطات الفرنسية والإيطالية ، وخاصة هوج البروفانسي - ملك بروفانس - الذى أزمع بتأييد من سادة الجنوب سحق هذا العدوان وإنهاء هجمات المسلمين في تلك الجهات . ويذكر المؤرخ الشهير دوزى Dozy أن هوج البروفانسي ملك إيطاليا قد أقام حلفا مع الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأندلس في تلك الفترة أى حوالى سنة ٩٣٥ م (٣٢٣ هـ) أو بعدها بقليل (٤) ، دون أن يقدم أية

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 450
Scott : op. cit. p. 35
حوس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ١١٣ — ١١٩

(2) Daniel : op. cit. p. 52
Pirenne : op. cit. p. 156, p. 249

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٣

(4) Dozy : Spanish Islam, (Eng. trans. from, Hist. des. Mus. d'Espagne, by Stokes - London 1913), p. 434

تفصيلات أو يذكر اسم المصدر الذى استقى منه هذه المعلومات . ولهـذا فقـد رجح أحد المؤرخين المحدثين أنه إذا صح قيام هذا التحالف ، فلابد وأنه أقيم أصلا لمناهضة الخلافة الفاطمية فى شمال أفريقيا والتصدى لمطامعها[1] ، وخاصة بعد أن هاجم الفاطميون مدينة جنوة الإيطالية سنة ٩٣٤ — ٩٣٥ (٣٢٢— ٣٢٣ هـ) ، فلابد وأن هذا التقارب بين هوج البروفانسى وحكومة قرطبة وجه أصلا ضد الفاطميين[2] . وليس من المعقول أن يقيم الخليفة الأموى فى قرطبة حلفا مع ملك إيطاليا ضد المجاهدين المسلمين هناك ، فإذا صح قيام هذا التقارب وهذا الحلف ، فإن المقصود به عدو مشترك لـكلا الطرفين ، وليس ضـــد المجـاهدين فى إيطاليـا من المسلمين ، بل تشكك البعض فى قيـام هــــذا الحلف أصلا .

قرر الملك هوج البروفانسى إذن مهاجمة حصن فراكسنتم الحصين ، الذى يلوذ به المغامرون المسلمون ، ويتخذون منه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع الأندلس من ناحية ، ومع إفريقيا من ناحية أخرى ، ومركزا للهجوم على الجهات الداخلية[3] ، لكن الملك اقتنع بأن الاستيلاء على ذلك الحصن يتطلب جهداً كبيراً واستعداداً خاصاً ، ولهذا فقد عول على مساعدة بيزنطة فى هـذا المشروع وبعث يطلب من رومانوس ليكابينوس مساعدة بحرية وأسطولا من قاذفات النار الإغريقية، حتى يمكن مهاجمة المسلمين براً وبحراً وتصفية فراكسنتم، فوافقت بيزنطة على تقديم هذه المعونة وعلى المشاركة بمحاربيها لطرد المسلمين

---

(1) El - Hajji : op. cit. p. 284 .

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٠٩ ،

. Camb. Med. Hist. V. III, p 155

(٣) ... : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ .

من تلك الجهات ، وذلك سنة ٩٤١ (١) . وما لبث الأسطول البيزنطى أن رسا فى سان تروبيه ، وتقدم هوج البروفانسى فى نفس الوقت بجيشه نحو فراكسنتم (سنة ٩٤٢ م) ، وجرى مهاجمة المسلمين براً وبحراً وبإصرار شديد وجرى إحراق سفنهم وإلحاق خسائر جسيمة فى قوتهم ، وفى النهاية وبعد قتال مرير نفذ هوج البروفانسى إلى الحصن ، واضطر المسلمون إلى الفرار إلى الجهات الجبليه المجاورة ، والاعتصام بالآكام والربى ، وغدا استقرارهم فى هذه الجهات موضع شك كبير وفى كف القدر (٢) .

غير أن الظروف ما لبثت أن تبدلت فى صالح المجاهدين المسلمين ، لأن هوج البروفانسى سرعان ما أوقف مشروعاته فى تلك الجهات ، على أثر ما أتاه من أنباء ثورة داخلية فى بلاده وبروز أحد المنافسين له والطامعين فى إقصائه وحيازة العرش ، ولهذا فقد اضطر إلى صرف الأسطول البيزنطى وإيقاف مشروعاته ضد المسلمين بل وعقد معهم صلحاً ، اشترط فيه عليهم البقاء فى الألب وعند ممراتها ، وإغلاق الطريق إلى إيطاليا فى وجه خصمه (٣) . فلابد وأن هوج قد اقتنع أنه من الأوفق محالفة هؤلاء المسلمين واتخاذهم سنداً له ضد غريمه الثائر ، خاصة وقد خبر المسلمون جبال الألب وتمرسوا على الحرب بها ومرنوا التحكم فى دروبها وممراتها ، وغدى بوسعهم إغلاق هذه الممرات

(1) Rambaud : Histoire de L'Empire Grec p. 408
Daniel : op. cit. p. 53

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٤ ،
Daniel : op. cit. p. 53
Rambaud : op. cit p. 408

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٤ ،
Daniel : op. cit. p. 53

فى وجه أعداء الملك الايطالى (١) . وهكذا أقام هوج البروفانسى حلفـــا مع المجاهدين المسلمين سنة ٩٤٢ م (٣٣١ هـ) ، وليس مع حكومة قرطبة كما فهم دوزى ومن تابعه فى ذلك ، فالواقع أنه ليس ثمة ما ينبىء بقيـام أحـلاف بين هذا العاهل الإيطالى والخليفة عبد الرحمن الناصر فى أى من المصادر المعاصرة ، ولهذا فقد رجح البعض أن يكون التقارب قد حدث بين هذا العاهل الإيطالى والمجاهدين المسلمين ضد أعداء الملك الايطالى ، وثمنا لانصـراف هوج عن مواصلة الحرب معهم (٢) .

ولقد جاء هذا التطور فى صالح المسلمين دون شك ، فسرعان ما استعادوا قلاعهم وحصونهم وسيادتهم فى جنوب بروفانس ، وواصلوا خططهم فى تلك الجهات واحتلوا ممرات الألب وتحكموا فيها (٣) ، وفرضوا المكوس والضرائب على المسافرين ، وبثوا الذعر بين سكان الأنحاء المجاورة ، وسيطروا على ممـر سان برنار الكبير الواصل بين سويسره وإيطاليا وعلى غيره من الممرات الجبلية ونزلت جموع منهم للاستقرار فى السهول والضياع القريبـة وزرعوا الأرض ومارسوا حياة الاستقرار ، وقنع أمراء النواحى بتحصيـل بعض الضـرائب الزهيدة منهم اتقاء لشرهم (٤) ودرءا لخاطرهم ، وانسـاب المسلمون بعد ذلك إلى نيس ، ثم نفذوا إلى قلب ولاية دوفينة وساحوا فى المناطق التى تجرى فيها

---

(١) أرسلان : نفسه ص ٢١٦ ،

Brooke : op. cit. p. 35

(٢) انظر ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٣١٥ ،

El - Hajji : op cit. p 285

(3) Hoyt and Chodorow : op. cit pp. 192 — 3

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٤

رواند نهر الرون، بعد أن احتلوا جرينو بل لانترة ووادييا الخصيب، وشكلوا عنصرا هاما فى الأحداث فى تلك الجهات ، وغدت لهم سطوة بين سكان هذا الإقليم ، وتحكموا فى المرور بين فرنسا وإيطاليا وبين سويسره وإيطاليا (١).

فقد اندفع المسلمون أيضا فى حدود إيطاليا ، ونزلوا إلى ضواحى روما ذاتها (٢) ، وصعدوا فى نهر التيبر فنهبوا كنائس القديس بطرس والقديس بولس ، وعطلوا سدود نهرها ، وذلك سنة ٨٤٦م (٢٣١ هـ) ، وأجبروا الأهالى والرهبان والقسس على حمل السلاح (٣) . وفى سنة ٨٧٠ م (٢٥٦ هـ) غزا المسلمون من أسبانيا وإفريقيا مدينة روما أيضا فوصلوا إلى ضواحيها ، ولم يمنعهم من التقدم أبعد سوى جغرافية إيطاليا وعدم ملائمة الأرض لتقدمهم (٤) . واستصرخ البابا الإمبراطور شارل الأصلع ، إلا أن هذا لم ينهض لنجدة البابا الذى اضطر للدخول فى مفاوضات مع المسلمين قبل فيها بدفع مبلغ كبير من المال مقابل جلاء المسلمين (٥) ، وتكررت غزوات المسلمين فى جهات إيطاليا خاصة كلما تنافس الأمراء المحليون وتنازعوا فيما بينهم ، فتعرضت جهات كثيرة فى إيطاليا للغزو الاسلامى ، مثل نابلى وسالرنو وكابوا ومونت كاسينو فى النصف الثانى للقرن التاسع الميلادى (٦) ، كما استولى المسلمون على

(1) Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, pp. 180 — 1
(2) Bradford : op. cit. p. 329

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٧ ،

Hollister : Med, Europe, p. 106

(4) Davis : op cit p. 168
(5) Deanely : op cit. p. 456 , Scott : op. cit. II, p. 63

وأرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢١٩ (ترجمة أحمد عيسى)

(6) Scott : op. cit. II, p. 35 , Deanesly : op, cit p. 450

ريو Reggio سنة ٩٠١ م وتابع المسلمون هجماتهم فى تلك الجهات [١]، حتى وصلوا إلى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنـــوة ، وتروى الحوليات المعاصرة أن العرب غزوا مدينة « آكى » سنة ٩٠٦ على مقربة من مدينة تورينو الإيطالية ، ثم أعادوا غزوهم لمدينة آكى سنة ٩٣٥ م ، وإن ارتدوا عنها هذه المرة بعد هزيمتهم ؛ فقد روى المؤرخ الألمـانى الشهـير ليتوبراند Liutprard الذى عاش فى القرن العاشر أن المسلمين هاجموا مدينة آكى ، إحدى مدن مونتفرات الشهيرة بحماماتها المعدنية ، لكنهم انهزموا فى هذه الواقعة ، وأنهم دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرا من النساء والأطفال، وروعوا المنطقة بأسرها [٢]، ثم نزلوا إلى مدينة أنكونا فأشعلوا فيها النيران وحملوا معهم كثيرا من الأسرى ، وقتلوا أعدادا لا تحصى من المزارعين (٣) ، ولم تنج نابلى وبنفنتو وكابوا من نفس المصير. وتوغل المسلمون أبعد إلى سويسرا إذ غزوا فى سنة ٩٣٩ م منطقة فاليه فى جنوب سويسرا ، واتخذوا منها قاعدة للإغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرا وإيطاليا ثم نفـذوا إلى أواسـط سويسرا ثم إلى شرقها وأعملوا القتل والنهب فى الأديرة والكنائس وتذكـر بعض الروايات أن المسلمين وصلوا فى غزواتهم إلى بحيرة جنيف [٤].

وانبسط المسلمون فى المناطق الفسيحة بين بحيرة كونستانس Constance

---

(١) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٣

2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 192

وأرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٠ — ٢٢١

(3) Daniel : op cit. pp. 56 — 7

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٧ ، طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٢٢٧

عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ٢ ص ٤٦٩ .

فى الشمال الشرقي من سويسرا وبين مدينة كور (جورا) Chur فى شرقى سويسرا ، وزادت وطأة المسلمين على سويسرا ، وأمعنوا فى قتل الحجاج العائدين من روما (١) ، ولم تسلم الكنائس والاديرة من هجماتهم حتى أن الإمبراطور أوتو الكبير اضطر لتعويض مقدم دير كور عن الخسائر التى لحقت بالدير وأملاكه نتيجة لغارات المسلمين ، وأوغل المسلمون فى منطقة فات وقاعدتها لوزان على الشاطىء الشرقي لبحيرة جنيف،وكل المناطق الواقعة فى أعالى نهر الراين ٢ . واستقر المسلمون بهذه الأقاليم وتزوجوا من الوطنيات وراحوا يزرعون الأرض ويستغلونها ، ولم يسع الحكام المحليون إلا أن يسلموا بالوضع الجديد ، واكتفوا بجباية إتاوة منهم بل استعانوا بالمسلمين أنفسهم فى منافساتهم الداخلية ، ولم يتحقق بعد ، كم بقى المسلمون فى أنحاء سويسرا ، وإن كان استقرارهم فى تلك الجهات أمر لا خلاف عليه لوجود آثار مادية تدل على ذلك (٣) .

واذا ألقينا نظرة على المسرح الذى انساب فوقه المسلمون فى جنوب أوربا وأجزاء من داخلها ، نرى المستعمرات الإسلامية والمعاقل والحصون الإسلامية قد انتشرت خلال القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، فى بروفانس وسافواى وسويسرا ، وتحكم المسلمون فى ممرات جبال الألب ٤ ، وعلى

---

(١) أرسلان : نفسه ص ٢٢٧

(٢) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ — ١٣١ ، طرخان : نفسه ص ٢٢٧ — ٢٢٨

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٧
طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٢٢٨

(4) Previté : The Shorter Camb. Med. Hist. V I, p. 371 (Camb. 1953)

الحدود بين غاليسيا ولمبارديا فى شمال إيطاليا ، وبينها وبين سويسرا ، واحتلوا فى سويسرا ولاية فاليه وبعض جهات جورا ، واحتلوا فى إيطاليا ولاية ليجوريا بعد أن نفذوا إلى بيمون ومونتفرات القريبة من تورينو ، وأقاموا لهم مراكز وقواعد وحصون لتكون نقط انطلاق لهم فى شمال إيطاليا وسويسرا مثلما فعلوا في بروفانس وجنوب فرنسا من قبل (١) ، ومثلما حدث فى جنوب فرنسا وبروفانس انضم إلى أولئك المغامرين نفر من النصاري جريا وراء المغانم والأسلاب وحبا فى المغامرة والحرب وشكلت هذه الجماعات عنصرا خطيرا فى أوربا في ذلك الوقت وروعت جهات كبيرة فيها (٢) . ويبدو أن المسلمين خرجوا من سويسرا خلال النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي ، نظرا لقلة أعدادهم واتسام إغاراتهم بالصفة الفردية أو الجماعية المحدودة ، فضلا عما أثاره رجال الدين والأديرة من حماسة في نفوس المسيحيين لمطاردتهم وإخراجهم من تلك البقاع .

تعرض المسلمون فى هذه الجهات الجديدة فى شمال إيطاليا وسويسرا لمثل ما تعرضوا له من قبل فى بررفانس وجنوب فرنسا ، إذ أدت إغاراتهم على المناطق المجاورة إلى تأليب سادة هذه الجهات لحربهم ومحاولة طردهم من مستعمراتهم الجديدة (٣) ، فقد جمع كونت بروفانس العليا ، وبعض سادة المناطق المجاورة ، قوات كبيرة واتفقوا على محاربة المسلمين وطردهم من تلك الجهات ، فهوجم المسلمون من كل حدب وصوب بغرض إجلائهم عن هذه المناطق ، وأخذ المسلمون على غرة فى بيمون وما حولها قرب تورينو ،

---

(1) Hoyt and Chodorow : op. cit. p 192

(٢) أرسلان : نفسه ص ٢٢١ — ٢٢٢

(3) Davis : op. cit, p. 168

ونزلت بهم كارثة هناك ، فاضطروا إلى الجلاء عن كثير من قلاعهم وحصونهم في تلك الجهات فاستولى عليها النصـــارى ، الذين استمروا في ملاحقة فلول المغامرين المسلمين ومطاردتهم للقضاء عليهم ، ووضعوا بذلك حـــدا لإغارات المجاهدين المسلمين في لمبارديا وشمال إيطاليا وعلى حدود الليجوريا ، وحدث نفس الشيء في جورا في سويسرا وبالقرب من حـدود المجر . وتذكر الروايات الكنسية المعاصرة أن ملك هذه النواحي كان يدعى كونراد ، وكانت سلطته تمتد على جهات شتى ما بين سويسرا وبلاد المجر ، وأنه عانى كثيرا من إغارات المسلمين في أملاكه في جورا من ناحية والمجريين الذين هددوا حـدود بلاده من ناحية أخرى (١) . غير أن هـذا الملك فكر في التخلص من أعدائه جميعا بإعمال الحيلة والدهـاء ، فبعث إلي المسلمين في سنة ٩٥٢ م (٣٤١ هـ) يتودد إليهم ويستحثهم على محاربة المجريين وانتزاع ما بأيديهم من أراضي وضياع خصبة ، وفي نفس الوقت بعث إلي المجريين يحرضهم على حـرب المسلمين ، ومحاولة إجلائهم عن قلاعهم وحصونهم في جورا ، واقـترح على كل فريق اسم مكان يصلح للقاء والمعركة ، ومن ثم أعد قواته وأخذ يترقب ما تسفر عنه الأحداث ، وحينما جرى الاشتباك بين المسلمين والمجريين وهلك من الفريقين جمع كبير ، انقض كونراد بمن معه من قوات فبدد شمل البـاقي من الفريقين ، وقضى عليهم جميعا ، وبذلك تخلص من أعدائه جميعا قـــرب منتصف القرن العاشر الميلادي (٢) . وأغلب الظن أن هذه الموقعة قد حدثت في سافواي ، لأنها نقطة متوسطة بين أملاك المسلمين في بروفانس ومناطق نفوذ المجر في.

---

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٦

(2) Reinaud : Mus. Col. p. 128

الألزاس وهي المكان الذى اقترحه كونراد ليكون مسرحا للمعركة (١) .

وعلى الرغم من ذلك فلا زال المسلمون يحتلون كثيرا من مواقع سافواى ويوغلون فى أنحاء سويسرا طلبا للغنيمة والسبي ، وساعدهم فى ذلك شدة مراسهم وقوة بأسهم وتمرسهم على حروب العصابات ، وحذقهم القتال فى الجبال والآكام ، حتى بلغوا مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس في سويسرا ، وأقاموا لهم قلاعا وأبراجا كثيرة فى بعض جهاتها ، وظلوا يجوبون تلك المناطق ردحا طويلا من الزمن (٢) ، حتى أنزل بهم نصاري سان جال هزيمة خفت وطأتهم على أثرها ، واضطروا للجلاء عن كثير من حصونهم وقلاعهم والارتداد إلى قواعدهم الأخري القريبة من الساحل ، فقد أورد هذه الأخبار مؤرخ سان جال Saint - Gall ، وذكر أن مقدم دير سانت جال ويسمى « فالتون » ، هو الذى جمع عددا من الرجال الأشداء وسلحهم بالحراب والفئوس وهاجم بهم المسلمين بغتة فقتل أكثرهم وقبض على من نجا منهم ، وساقهم إلى الدير فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا حتى ماتوا جوعا (٣) . وعلى الرغم من هذه الكارثة التى حلت بالمسلمين فى هذه الجهات فقد ارتد كثير من المجاهدين إلى قواعدهم ، وظلت الإمدادات ترد إليهم من الأندلس ، ويفد عليهم المطوعة من الأندلس ومن المغرب لمدهم بدماء جديدة ورفع روحهم المعنوية لمزيد من الإغارات والهجمات ، لاسيما أن قواعدهم فى

---

(١) أرسلان : نفسه ص ٢٢٦

(2) Hoyt and Chodorow : op cit pp 192 — 3

أرسلان : نفسه ص ٢٢٧

(٣) أرسلان : نفسه غزوات العرب ص ٢٢٦

بروفانس ودوفينة و بعض جهات الألب ، ظلت أمنع القلاع وأقواها وسمت فوق التصدع ، واستمرت تمد المجاهدين بأسباب الجرأة والقوة (١). ولعل فى ذلك يكمن سبب نهوض البابوية بالكتابة إلى الأباطرة وقادة الغرب المسيحى لحثهم على وضع حد لهذه الإغارات والقضاء على الجماعات الإسلاميه المغامرة ، فاستجاب إمبراطور ألمانيا أوتو الكبير سنة ٩٥٦م (٣٤٤هـ) وهو أكبر عاهل غربى مسيحى فى ذلك الوقت ، لأنه ربما خشى أن يغري نجاح المسلمين فى اختراق جنوب أوربا و بعض جهات إيطاليا وسويسرا أولئك المغامرين بتهديد ألمانيا ، وخاصة أن إغاراتهم أصابت جهات قريبة جدا من أملاكه الواسعة .

وعلى الرغم من اقتناع هذا العاهل الألمانى بخطر الجماعات الإسلامية ، وما يمكن أن تحدثه فى أملاكه فى أوربا من أضرار (٢) ، إلا أنه لم ينهض لقتالهم لأنه فيما يبدو أيقن أن هؤلاء المحاربين الأشداء الذين حذقوا حروب الجبال والمرتفعات وحروب العصابات لن يتأتى قتالهم بالقوات النظامية ، وأن ذلك ربما كلفه الكثير (٣) ، ولهذا عول على الطرق الودية لردعهم، وعلى المفاوضات الدبلوماسية مع خليفة قرطبة الأموى . فقد بعث بسفارة إلى قرطبة يطلب من عبد الرحمن الناصر التدخل لقمع عدوان هذه المستعمرات الإسلامية على النصارى، واستعمال نفوذه للحد من هذا الخطر (٤) ، وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الناصر

(1) Pirenne : op. cit. p. 249

(٢) أرسلان : ٥ ٩ ص ٢٢٨

(٣) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ٢ ص ٤٢٢

(٤) أرسلان : نفسه ص ٢٢٨

استقبل رسل الإمبراطور الألمانى بحفاوة ، وتلقى رسالته بشىء من المودة والتكريم إلا أنه اعتذر لرسل الإمبراطور عن عدم استطاعته عمل شىء ؛ لأن هذه المستعمرات والجماعات المغامرة لا تدخل فى نطاق سلطته ، وليس له عليها نفوذ (١) ، وأنها تعمل فى استقلال تام بعيدة عن سلطة الحكومة الأموية بالأندلس . ويبدو أن الإمبراطور لم يقتنع بذلك ، إذ تؤكد الروايات الكنسية المعاصرة أن الخليفة الأموى كان يحمى هذه المستعمرات ، ويمدها بالعون والتشجيع (٢) .

وبعد ذلك بسنوات أجبر المسلمون على الخروج من معاقلهم فى ممر سان برنارد حوالى سنة ٩٦١ م، ففقدوا بذلك موقعا هاما طالما جنوا بفضله كثيرا من المكوس والضرائب ، وتحكموا فى المرور بين سويسرا وإيطاليا ، وقطعوا الصلة بين إيطاليا وما وراء الألب من بلاد أوربا (٣) . وعلى الرغم من أنه ليس لدينا تفاصيل عن ذلك إلا أنه من الواضح أن المسيحيين قد تكتلوا فى تلك البقاع للقضاء عليهم ، ويبدو أن القديس برنار الذى بنى ملجأ فى أعلى ذلك الجبل والذى نسبت إلى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها ، كان أحد قادة المعارك التى انهزم فيها المسلمون وطردوا من هذه الجهات (٤) . وقبل ذلك بسنوات قليلة

---

(1) Daniel : op cit pp. 65 — 9
Reinaud : Mus Col. : 155 — 6
Lévi - Provençal : L'Espagne musulmane au Xe siècle,. p. 49
أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٧ — ٢٣٢
El - Hajji : op. cit. pp. 207 — 27

(2) Reinaud ; op. cit, p. 193

(3) Pirenne : op. cit. p. 158, Davis ; op cit p. 183

(٤) أرسلان : نفس المرجع ص ٢٣٤

(٩٥٦ م) طرد المسلمون أيضا من مدينة جرينوبل ، ومن واديها الخصيب فتذكر الروايات أن أساقفة هذه المدينة وهم الذين نهضوا بهذا العبء قد تجمعوا لقتال المسلمين ، وتواعدوا إنهم ظفروا بالنصر أن يتقاسموا الأراضى الخصبة ، كل بحسب بسالته فى القتال وإقدامه فى الحرب ، فلما تحقق لهم النصر تقاسم المقاتلون تلك البقاع الخصيبة (١) . وترتب على ذلك أن ساءت أحوال المسلمين كثيراً فى تلك الجهات ، وإن ظلت لهم بعض المواقع فى دوفينة وبروفانس(٢) ، وأدلوا بدلوهم فى الأحداث السياسية ، فحينما غزا الإمبراطور أوتو لمبارديا وطرد منها ملكها بيرانجيه ، إلتجأ ولده أدلبرت إلى عرب فراكسنتم ليساعدوه فى استرجاع ملكه ، فقوى هذا التحالف من وجود المسلمين فى تلك الجهات(٣) . ولعل فى ذلك يكمن السبب فى أن الإمبراطور أوتو أعلن أنه سيتولى طرد المسلمين من كل الأراضى المسيحية فى الغرب ، لولا أنه توفى بعد قليل من هذه الأحداث .

على أن أحوال المسلمين فى هذه البلاد أخذت تسوء ابتداء من الثلث الأخير للقرن العاشر ، وبدأوا يمرون بمرحلة حرجة ، وأخذ الخناق يضيق عليهم شيئا فشيئا ، وخسروا كثيراً من مواقعهم وحصونهم فى تلك الجهات ، ولابد وأن انصراف أولئك المغامرين عن الأهداف السامية التى خرجوا من أجلها كان له ضلع فيما جرى عليهم فى تلك المرحلة من كوارث ، كما أن مغالاتهم فى فرض الضرائب والمكوس والإتاوات ، وأسر الناس من أجل الحصول على

---

(١) أرسلان : نفسه ص ٢٣٧ — ٢٣٨

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٥

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٧

الفدية ، قد جلب عليهم كثيراً من المحن حينئذ ، لاسيما وأن ممرات الألب وآكامها ، كانت تتحكم في الطرق الموصلة إلى المزارات في إيطاليا وأماكن الحج المسيحية (١) ، التي يقصدها نفر من الرهبان ورجال الكنيسة، وكثير من الرعايا المسيحيين . ففي سنة ٩٧٢ م قام مقدم دير كلوني الشهير في برجنديا ويدعى ما يول Mayeul بالحج إلى روما وزيارة الأماكن المقدسة في إيطاليا ، ثم قفل راجعاً إلى بلاده متخذاً طريق دوفينة ، إلا أنه وقع في أسر المسلمين القاطنين في المناطق الجبلية هناك ، هو ومجموعة كبيرة من الحجاج ورفض المسلمون فك أسرهم إلا بعد دفع فدية كبيرة (٢) ، وبعد مشقة وعناء تمكن الأسرى من دفع الفدية الكبيرة وجرى إطلاق سراحهم ، فعادوا إلى بلادهم وكلهم حنق وكراهيه على المسلمين، وذاعت قصة أسرهم وهم في طريق العودة من الحج ، فأثارت موجة من الضيق في الغرب الأوربي ، وبعثت الحماسة في نفوس كثير من المحاربين للخلاص من أولئك المغامرين المسلمين ، الذين روعوا تلك المناطق (٣) ، ونهض أحد سادة تلك المناطق ويدعى بوبون (بيغون) Bobon وجمع حوله كثيراً من المقاتلين الأشداء وداهموا الحصون الإسلامية ، فقضوا على من فيها قتلا وأسراً وخربوها ، ووضعوا حدا لهذه الإغارات المدمرة عبر طريق الحج إلى إيطاليا (٤) ، وألهبت هذه الانتصارات حماسة النصارى في الجهات الأخرى لاسيما في دوفينة ذاتها ، فالتف المحاربون حول قائد يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين في مراكزهم في دوفينة وقلاعهم

---

(1) Brooke : op. cit p. 116

(٢) أرسلان : نفسه ص ٢٣٨ — ٢٣٩

(3) Brooke : op. cit. p. 335

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٠

الحصينة ، ونجحوا فى تشتيت شملهم وتمزيقهم كل ممزق ، فانهـــارت السيادة الإسلامية فى دوفينة ، ولم يبق للمسلمين سوى مراكز بروفانس (١) .

ولعل أهم ما جرى بعد ذلك هو سقوط حصن فراكسنتم ذائع الصيت سنة ٩٧٥ م (٣٤٩ هـ) وتصفية السيادة الإسلامية فى بروفانس (٢) ، فقـد تشجع جيوم هذا بعد إحرازه النصر على المسلمين فى دوفينة ، وما لبث أن وثب إلى السلطة فى بروفانس ذاتها ، وتلقب بالأمير ، وعزم على تصفية الوجود الإسلامى فى بروفانس نهائيا ، وإسقاط حصنهم الحصين فى فراكسنتم (٣) ، وانحاز إليه سادة النواحى القريبة ومنهم كونت نيس ، وحشدت قوات المسيحيين على مقربة من مواقع المسلمين فى بروفانس. ويبدو أن هؤلاء أحسوا أنها معركة فاصلة يتوقف عليها بقاؤهم أو فناؤهم فى هذه البلاد ، فلم يدخروا وسعـــا فى الاستعداد لها (٤) ، وجربوا هذه المرة أن يحتشدوا جموعا فى السهول المجاورة ، على المعركة تكون لهم ، لكنهم بذلك فقدوا أهم ميزة تميزوا بها خلال تاريخهم فى هذه البلاد ، وهى حرب العصابات والآكام وحرب الكر والفر والهجمات الخاطفة المؤثرة ، إذ حينما اندلعت معركة « تورتور » Tourtour سنة ٩٧٥م دارت الدائرة فيها على المسلمين (٥) ، وارتدوا إلى قلاعهم للإحتماء بها ، ولاذوا بحصن فراكسنتم لحصانته ، غير أن المسيحيين ضيقوا عليهم الخناق واشتدوا فى حصارهم ومطاردتهم ، فلم يجد المسلمون بدا من محاولة الفرار نجاة بأنفسهم

(١) نفس المرجع ص ٢٤١

(2) Reinaud : Mus . Col p 157

(٣) طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٢٦٠

(4) Reinaud : op. cit. p. 157

(٥) طرخان : نفسه ص ٢٦٠

تحت جنح الظلام للإحتماء بالغابات المجاورة، غير أن أعداءهم لحقوا بهم هناك، وأمعنوا فيهم قتلا وأسرا ، واستسلم بعضهم ممن احترف الزراعة فى الضياع المجاورة . ويذكر المؤرخ رينو عن روايات فرنسية قديمه أن بعض المسلمين فروا إلى البحر وذهبوا إلى الأندلس أو إلى صقلية أو سواحل إفريقية (١). وأجبر البعض الباقي على التنصر ، وانهارت بسقوط حصن فراكسنتم سيادة المسلمين فى بروفانس وجنوب فرنسا ، وما بين إيطاليا وفرنسا ، بعد أن مرح المسلمون فى هذه الجهات أكثر من ثمانين سنة ، واقتسم سادة النصارى أراضى العرب ومغانمهم وانتهت بذلك السيادة الإسلامية فى تلك الجهات (٢) . وتشير النصوص إلى أن جيوم قد حاز نفائس كثيرة من حصن فراكسنتم ، فقد كان هذا الحصن مركزا لجميع المسلمين المجاهدين فى فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا (٣) ، ولابد وأنه كان غاصا بالأموال والنفائس ، لأن الكونت جيوم بادر بتوزيع الأموال على أصحابه الذين أبلوا بلاء حسنا ، فحازت كثير من الأسر ثروات طائلة كانت سببا فى شهرتها فى العصور اللاحقة (٤) ، واستولت الكنيسة أيضا على كثير من الأراضى التى كانت بأيدي المسلمين ربما لأن رجال الدين ورجال الأديرة كانوا أكثر من غيرهم تضررا من هجمات المسلمين وغزواتهم ، فكان رجال الدين على رأس الطلائع التى انهت التواجد الإسلامى فى تلك الجهات من ناحية ومن أوائل الفائزين بما كان يمتلكه المسلمون من أراضى شاسعة من ناحية أخرى ، ولم يبخل جيوم على أولئك بشيء حتى

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٥

(3) Reinaud : op cit p. 157

(٤) أرسلان نفسه ص ٢٤٥

حاز شهرة كبيرة فى تلك المناطق [1] .

ولم يمض وقت طويل على ذلك ، حتى قضى المسيحيون على معظم المستعمرات الإسلامية فى جهات الألب وممراتها، وطورد المسلمون هناك أشد مطاردة فى حروب كانت أشبه بالحروب الصليبية [2]، ولعل صدى انتصارات بيزنطة على عهد كل من الإمبراطور نقفور فوقاس ويوحنا زمسكيس وباسيل الثانى ضد المسلمين فى الشرق قد ألهب حماسة مسيحى الغرب الأوربى فطاردوا المسلمين فى كل البقـــاع هناك ومزقوهم — للأسف الشديد — كل ممزق ، وأجبر البعض على التنصر ، ولم يقترب القرن العاشر الميلادى من نهـايته حتى كانت سيادة المسلمين قد ولت من غاليسيا وسويسرا مثلما ولت من بروفانس وغيرها من الجهات[3]. ولم تستطع أسبانيا الإسلامية أن تمد يد العون لأولئك المغامرين البواسل ، لأن الظروف والأحداث الداخليه كانت أقوى . وهكذا كتبت نهاية المستعمرات الإسلامية في غرب أوربا قرب أواخر القرن العاشر الميلادى ، على الرغم من أن كثيرا من أولئك المغامرين ، ظلوا باقين هنـاك واختلطوا بالسكان ، وتزاوجوا معهم، ويمكن تتبع آثارهم التى لا تزال باقية مبعثرة فى مناطق كثيرة [4] .

(١) نفس المرجع ص ٢٤٥

(٢) طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٢٣٤

( ) Reinaud : op. cit, p 157

(٤) الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٥١

ياقوت الحموى : معجم ج ١ ص ٢٦٣

Reinaud : Mus. Col. p. 130 — 3

الباب الرابع

العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية بين الجانبين

الفصل السابع : العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية بين الجانبين .

الفصل السابع

العلاقات الدبلوماسية والصلات الحضارية بين الجانبين

رأينا فى الصفحات السابقة كيف اتسمت العلاقات بين الفرنجة ومسلمى أسبانيا الأمويين بالعداء الشديد ، وكيف اندلعت الحروب بين الدولتين ضارية فى كثير من المراحل على المستوى الرسمى [١] ، وعلى المستوى الشعبى غير الرسمى أيضا [٢] . ويلاحظ أن الفترة المبكرة من الحكم الأموى فى أسبانيا اتصفت بالعداء الشديد تجاه الفرنجه ، ولونتها الحروب المريرة وغصت بالهجمات المتبادلة بين الدولتين ، بدأتها دولة الفرنجة على عهد شارلمان وعبد الرحمن الداخل [٣] ، وتعرض شارلمان خلال حملته على أسبانيا لكارثة كبيرة راح ضحيتها زهرة شباب جيشه ، وكل فرسان المؤخرة فى ذلك الجيش الكبير . ولابد أن شارلمان قد اقتنع بعد ذلك أنه من الأوفق تغيير تلك السياسة وإحلال الوئام والسلام محل الحرب والتصارع [٤] . فقد تحقق الفرنجة من قوة الأمويين فى أسبانيا ، وأنه من المستحيل زحزحتهم قد أنملة عن إمارتهم

---

(1) Einhard : op. cit, p. 143

ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٢ ، العذرى : ترصيع الأخبار ص ٢٥

(2) Daniel ; op, cit. pp. 51 — 60

Brooke : op, cit, pp 35 — 6

Hoyt and Chodorow : op, cit pp 192 — 3

(3) El - Hajji : And. Dip. Rel with western Europe during the Umavyad Period p. 151

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

التى قاسوا الأمرين فى تأسيسها وكفالة الأمن فيها ، وأنه ليس من السهل قهر عبد الرحمن نفسه لما يتمتع به من عزم وتصميم وقوة بأس ، ولهذا فقد مال الفرنجة إلى المصالحة وعقد الهدنة مع الأمويين تجنبا للحرب والصراع ، وان لم يصرفهم ذلك عن مراقبة الأوضاع فى أسبانيا بحذر تحسبا لأى فرصة تمكنهم من التدخل فى شئون أسبانيا وإخضاعها إن واتت الظروف وسنحت الفرصة [1] .

ويبدو أن الأمويين قد أقاموا سياستهم فى عمومها على أساس الاستجابة لأى نداء للمصالحة والصداقة من جانب دولة الفرنجة ، طالما تأكدوا أن هذا النداء أملته رغبة حقيقية فى السلام وجاء استجابة لإقتناع صادق بأهمية السلام والصلح معهم . والواقع أن ذلك لم يكن يتعارض مع خط سياستهم العليا فى شىء ، إذلم يحدث مطلقا أن شرع عبد الرحمن الداخل (٧٥٥–٧٨٨م) فى تعكير صفو السلام مع الفرنجة أو القيام بأى عمل هجومى ضد دولتهم [2] ، لأنه التزم خلال فترة حكمه التى نيفت على الثلاثين عاما بسياسة الدفاع تجاههم ، وغلبت هذه السياسة الدفاعية على علاقاته حتى مع غيرهم من النصارى لا سيما فى شمال أسبانيا . ولم يحاول قط إثارة المتاعب مع أولئك الأعداء ، وإنما كان يحاول فقط التصدى لهجماتهم ويعمل على امتصاصها والتغلب عليها ، ريثما تتحسن الأحوال الداخلية فى بلاده من جراء الفتن والثورات [3] ، والهجمات

(1) Lévi - Provençal. Histoire de L'Espagne Musulmane, I, p. 179

(2) El - Hajji : Dip. Rel. between Anadalu a and the Franks during the Umayyed period. (The Islamic Quarterly V. XIII, N. 2, April — June 1969), p. 115

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٥١ — ٥٣

ابن الأبار : الحلة السيراء ، القسم المطبوع بعناية دوزى ص ٣٣ ، ص ٥٥

من قبل العباسيين وغيرهم من الطامعين في السلطة . ويبدو ذلك منطقيا في ظل ما منيت به الأندلس فى ذلك الوقت من محن ، إذ إندلعت الفتن والثورات فى كل مكان فيها وتطلع أكثر من شخص للوصول إلى مقاليد السلطة فيها ، ولم يكن بوسع عبد الرحمن الذى حمل عبئا ينوء تحته أعتى الرجال أن يفتح جبهات أخرى فى العداء مع جيرانه الفرنجة ، وإنما مال خلال حكمه الطويل إلى سياسة الدفاع تجاههم ، ولم يحاول إثارتهم فى أى وقت من الأوقات ، وعول فى سياسته على الدبلوماسية بقدر ما يستطيع (١) .

وتذكر المصادر المعاصرة أن حكام قرطبة الأمويين ، قد أحاطوا أنفسهم ابتداء من عهد عبد الرحمن — بمجموعة من المستشارين والوزراء ، بلغت أحيانا نحو اثنى عشر رجلا متخصصين فى مختلف الشئون والقضايا ، لا سيما فى النواحى المالية والإقتصادية والتجارية والقضاء والدبلوماسية والحرب (٢) . ومعنى ذلك أنهم عولوا فى كثير من الأحيان على اتباع أسلوب السياسة والدبلوماسية قبل اللجوء للحرب مع أعدائهم .

وحينما قام شارلمان بحملته المشار إليها على شمال أسبانيا ، وحاصر سرقسطة تحرك عبد الرحمن إلى الشمال لمحاولة إرغامه على التراجع والارتداد عن المدينة إلا أنه وصل بعد أن كان شارلمان قد ارتد فعلا عنها دون أن يحقق هدفه (٣) ، ودلل عبد الرحمن على أنه لم يكن راغبا فى ذلك الوقت بالذات فى توسيع الهوة مع الفرنجة وزيادة روح العداء معهم ، فلم يتتبع عبد الرحمن الداخل شارلمان

---

(1) Lane - poole : op. cit. p. 63

(2) Jackson : op. cit, p. 25

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٠٤ (بيروت ١٩٦٢)

وجيشه المتراجع أو يحاول الانقضاض عليه ، وإن كان شارلمان قد مني بهزيمة ساحقة في ممر رونسفال وفقد مؤخرة جيشه هناك [١]. ويؤكد المؤرخون أن شارلمان هو الذي مال بعد هذه الكارثة إلى تبديل سياسته تجاه الأندلس ، وإحلال السلام والوئام معها محل الحرب والنزال [٢] ولهذا فقد تبودلت السفارات بين الجانبين ، وحلت العلاقات السلمية محل العلاقات العدائية حتى في الفترات التي تخللت اندلاع اشتباكات محدودة بينهما أو حملات صغيرة بينهما [٣] .

فقد جرت سفارات ورسائل بين عبد الرحمن وبين شارلمان ، في الأيام الأخيرة لحكم عبد الرحمن ، وحلت فترة وئام وسلام بين العاهلين ، لأن المؤرخ المقري يشير في غير مواربة إلى ذلك ، على الرغم من أنه لا يذكر لنا أي الرجلين كان البادىء بالكتابة إلى الآخر إذ يقول المقري : « وخاطب عبد الرحمن قارله (كارل أو شارلمان) ملك الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه إلى السلم ولم تتم المصاهرة .. » [٤] . ولقد أثار هذا النص كثيرا من الخلاف ووجهات النظر ،

---

(1) Einhard : op. cit. p. 143

(٢) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠

(3) Reinaud : Mus. Col. p 4

(٤) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠

Pascuol de Gayangos : The Hist. of the Mohmmedan dynesty in Spain, II, pp. 85 — 6 (London 1843)

El – Hajji : op cit. p 116

مواقع
غزوة شارلمان لسرقسطة
ومعركتي باب الشزري

خليج بسكونية
مملكة الفرنج
أكوتين
نيمة
تولوشه
قرقشونة
أربونة
بربنيان
جبال البرتات
جبال كنتبريا
ألبة
قتورية
بنبلونة
باب الشزري
جاقة
بلاد البشكنس
قلهرة
تطيلة
وشقة
بربشتر
لاردة
سرقسطة
الثغر الأعلى
قلعة أيوب
دروقة
نهر يوبرة
سولسونة
أرقلة
برجه
جيرندة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
أسبانيا المسلمة
البحر المتوسط

بل تشكك فيه البعض واعتبره ضربا من المحال أو أسطورة من الأساطير ، ربما لأن إحلال السلام بين العاهلين ، ونبذ الحرب والنزاع والشجار لا يستلزم المصاهرة ، وعرض المصاهرة مع المعرفة التامة بميول كل من الرجلين . فكلاهما كان متمسكا بأهداب دينه حريصا على قيمه ومبادئه ، وعلى عدم إيذاء مشاعر قومه ، شارلمان الذى أفنى عمره فى الإخلاص لعقيدته المسيحية وحارب السكسون والآفار وغيرهم بهدف نشر المسيحية وابتغاء مرضاة الله [1] ، وأقام حلفا مع الكنيسة الغربية والبابوية ، وحظى بتأييدها ورضاها ، لم يكن يتوقع منه أن يعرض مصاهرة مع أمير المسلمين فى الأندلس فى ظل أقوال كثيرة بتعرض المسيحيين فى أسبانيا للاضطهاد والمضايقة ، وفى ظل العداء المستحكم — فى ذلك الوقت — بين الإسلام والمسيحية . وعبد الرحمن الذى قضى شبابه وكهولته فى تأسيس الإمارة الأموية فى أسبانيا والتصدى لفتن المولدين ونصارى أسبانيا [2] ، ومحاولة إرضاء كافة الأهواء والمشارب فى بلاده لم يكن ليعرض المصاهرة على عاهل المسيحيين في الغرب أو محاولة نسيان كل التجارب السابقة مع الفرنجة . لهذه الأسباب استبعد البعض قيام عروض بهذا الشكل بل تشككوا فى نص المقرى نفسه ولم يقبلوه من أساسه [3] .

بل حاول بعض الكتاب المحدثين مناقشة القضية ذاتها ، فتساءل مورفي Murphy أى الرجلين هو الذى بادر بعرض اقتراحه بالسلم والمصاهرة ، وأيهما كان حريصا على قيام هذا السلام وحلول المصاهرة ، وخلص من ذلك

---

(1) Einhard : op. cit pp. 141 — 2

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٥٦

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٩

(3) El - Hajji : op. cit. p. 116

بأن عبد الرحمن هو الذي عرض ذلك الاقتراح (١)، وأيده مؤرخ محدث في الشرق بالقول بأن عبد الرحمن، فيما يبدو هو الذي طلب الاقتران باحدى بنات شارلمان، والمرجح أنها «هروترود» كبرى بنات شارلمان، وكانت وحدها التى تصلح للزواج فى ذلك الحين (٢). وعارض البعض هذا الإتجاه وذهبوا إلي القول بأن شارلمان هو الذي بدأ هذا الحوار وعرض المصاهرة، ولكن عبد الرحمن هو الذى رفض الاقتراح (٣).

ويذكر المؤرخ الشهير رينو R.inaud (٤)، أن المقري انما يقصد عبدالرحمن الثانى أو الأوسط حفيد الداخل، لأن علاقاته بملك الفرنجة شارل الأصلع كانت علي ما يرام، ولكن هذا القول تنقصه الدعامة والتأييد، إذ لم يقل بهأحد آخر، ويؤكد الباحثون المحدثون أن المقرى إنما يقصد عبد الرحمن الداخل. والواقع أن نص المقري — علي حد قول مؤرخ محدث — يثير قضايا هامة تحتاج إلى مناقشة للوصول إلي الحقيقة (٥) ومن تلك القضايا: من من الرجلين هو الذي عجم عود الآخر وتمرس به فى القتال علي حد قول المقرى ؟ ومن منهما هو الذى بادر بطلب السلام من الآخر ؟ ومن الذى عرض أولا المحالفة والمصاهرة ؟ ينبغى علينا أن نجد حلا لهذه المسائل وإجابات لهذه الأسئلة (٦).

وعلى الرغم من أن تعبير المقري فى هذا النص ليس واضحا تماما. ولا

(1) Murphy : Hist of the Mohometan Empire in Spain, p. 84

(٢) عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ١ ص ١٨٨ حاشية ٢

(3) Scott : op. cit. I, p. 409

(4) Reinaud : Mus, Col. p 91

(5) El-Hajji : op. cit, p. 116

(6) Ibid, p. 116

يمكن الجزم أو القطع بما كان يقصده في تلك العبارات ، وعلى الرغم أيضا من أن العبارات السابقة لهذا النص أو اللاحقة على حد سواء لا تقدم لنا معاونة يمكن أن تقربنا إلى الفهم وإلى الحقيقة [1] ، وذلك لأنه يحتمل أن يكون عبد الرحمن الداخل هو الذى طلب المحالفة والمصاهرة من شارلمان ، كما يحتمل أيضا أن يكون شارلمان هو الذي طلب ذلك ، فكلا الاحتمالين قائم وجائز ، أقول على الرغم من كل ذلك فإننا سنحاول أن نحل هذه المسألة ، ونصل إلى الحقيقة في ضوء الأحداث التاريخية المتصلة بهذه القضية ، ونحاول أن نستعرض الأحداث الداخلية المعاصرة في القطرين والدولتين ، علنا نوفق في تقديم تحليل مرض لهذه المشكلة .

والواقع أن أحداث هذه الفترة دونها المؤرخ الثقة ابن حيان تدوينادقيقا، وليس من شك في أن المقرى قد استقى هذا النص من ذلك المؤرخ الثقة ، ويؤكد ذلك أنه اقتبس أيضا من ابن حيان الفقرات السابقة واللاحقة لهذا النص ، ويؤكد المؤرخ ذائع الصيت ليفي بروفنسال [2] ، أن المقرى نقل هذا النص وهذه الحادثة من ابن حيان،وأنه من المحتمل أن يكون قدقلبالأوضاع أثناء هذا النقل ، ولم يحسن التعبير عما استقاه من مادة تاريخية من ذلك المؤرخ الثقة ، ولهذا فإننا نستبعد تماما أن تكون أصالتها أو صدقها موضع شك على الإطلاق ، لأن الأحداث التاريخية السابقة واللاحقة تؤكدها تماما وتزيل من نفوسنا كل شك يتعلق بأصالتها وصدقها [3] . إذ من الثابت أن

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٩ — ٣١٠

(2) Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 127

(3) El - Hajji : op. cit p. 116

شارلمان لم يقم بأية حملات عسكرية على الأندلس بعد حملته الفاشلة سنة ٧٧٨ م (١٦١ هـ) حتى نهاية حكم عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٨ ، بل حتى مطلع القرن التاسع الميلادى ، حين بعث بجيوشه للاستيلاء على برشلونة سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) (١) . حقيقة وقعت اشتباكات بين الدولتين فيما بين وفاة الداخل سنة ٧٨٨ م والاستيلاء على برشلونة سنة ٨٠١م ، ولكنها لم تكن اشتباكات هامة ، ولم تؤد إلى نتائج خطيرة فى تلك المنطقة ، وإنما كانت ردود فعل سريعة لحالة العداء المستحكم بين الجانبين (٢) . أى أن شارلمان لم يقم بحملات بعد حملته الفاشلة طوال الفترة الباقية من عهد عبد الرحمن الداخل وهي فترة تربو على عشر سنوات . وهذا يؤكد أن عروض السلم والموادعة يمكن أن تقدم في ظل ذلك الهدوء بين الدولتين وتوقف الحروب بينهما .

وثمة دليل آخر على حلول السلام والموادعة فى تلك الفترة ، فقد أشار المؤرخون المعاصرون إلى أن شارلمان قد اقتنع بعد المأساة التى تعرض لها فى ممر رونسفال بعبث أية محاولة ترمى إلى الاستيلاء على أسبانيا (٣) ، بعد أن اتضحت له قوتها ، ومقدرة حاكمها الأموى وإحكام قبضته عليها ، وبعد أن صمدت مدينة سرقسطة فى مواجهة جيش قوى جمع من كل أنحاء الإمبراطورية

(1) Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 179

ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٩

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٩

Scott : op cit, I, p, 429 , Oman : op, cit p 356

Deanesly : op cit, p. 353

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

الفرنجية ودافعت المدينة عن نفسها دفاعا شديدا [١] ، وخاصة أن شارلمان كان قد افترض أن مسألة احتلال الأندلس ، وتحطيم حكومتها يعتبر أمرا سهلا ميسورا ، فكانت المفاجأة شديدة ، والصدمة عظيمة ، حين تراجع دون أن أن يحقق هدفه ، فلابد وأنه قد غير سياسته وحاول إحلال السلام محل الحرب والنزال .

أما الدليل الثالث على حلول السلام والموادعة بين شارلمان وحكومة قرطبة فى السنوات الباقية من عمر عبد الرحمن الداخل ، يكمن فى الأحداث الداخلية فى الإمبراطورية الكارولنجية ذاتها ، فقد استنفذ السكسون جهدا عظيما من شارلمان ، وصرفوا جانبا كبيرا من جهوده ، ولم يستطع إخضاعهم إلا بشق الأنفس [٢] ، وفى خلال ذلك كان بحاجة ماسة إلى السلام مع جيرانه فى أسبانيا حتى يلتفت إليهم ويكمل إخضاعهم وتحويلهم إلى المسيحية نظرا لما درجت عليه هذه القبائل من عناد ومن الرغبة فى الردة عن المسيحية كلما لاحت الفرصة [٣] ، فضلا عن أنهم كثيرا ما استفادوا من طبيعة بلادهم الوعرة المليئة بالغابات والأحراش واستتروا عن أعين الفرنجة كلما جاء هؤلاء لتتبعهم ، ثم العود إلى العبث بعد رحيلهم مع صعوبة تتبعهم وسط الأحراش والغابات والآكام [٤] .

ولقد كان السبب الأساسى لرغبة شارلمان فى إحلال السلام ، ما أصابه

(١) مؤرخ مجهول : أخبار مجموعة ص ١١٣ .

(2) Einhard : op. cit. p. 141

(3) Davis : op. cit p. 144

(4) Einhard : op cit. p. 141

Oman : op cit. pp. 349 — 50

جيشه وحملته فى أسبانيا من كارثة ، وبعد أن دافعت سرقسطة دفاعها المجيد ، وانقض المسلمون والبشكنس على مؤخرة الجيش الفرنجى فأبادوها ، واستنقذوا الرهائن وعادوا بها ، ولابد وأن شارلمان قد علم بأن عبد الرحمن هو المسئول الأول عما لحق بالجيش الفرنجى هناك من كوارث ، وأن الفرق الإسلامية التى شاركت فى مهاجمة جيش الفرنجة كانت مدعمة بتأييد وعون عبد الرحمن ، الذى لابد قد أمدها بالسلاح والعتاد والأموال (١) . وفى ضوء ذلك يمكن فهم عبارة المقرى : « بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المسكر تام الرجولية » (٢) . ومن ثم فشارلمان — فى رأى مؤرخ محدث — هو الذى عجم عود عبد الرحمن واختبره ، فألفى فيه تلك المميزات ووجده صلبا يعز على الانكسار ، وليس الداخل هو الذى عجم عود شارلمان واختبره (٣) ، لأن عبد الرحمن لم يهاجم شارلمان في بلاده ويعجم عوده ويختبر قوته ، ليقرر ما إذا كان فى الإمكان الاستمرار فى ذلك الهجوم أم لا ، وإنما العكس هو الصحيح ، أن الذى عجم عود الآخر إنما هو شارلمان الذي لابد اقتنع بأن عوده كان صلبا ليس هينا ولا لينا يغرى بالاستمرار فى الحرب ، فأوقف كل مشروعاته العسكرية طوال عهد الأمير أو ما بقى من عهد هذا الأمير (٤) .

ويؤكد هذا أيضا أن عبد الرحمن لم يسع إلى هذه الحرب ولم يكن سببا فيها حتى يقال أنه أراد أن يختبر قوة شارلمان ويعجم عوده ، وإنما

---

(١) العذرى : ترصيع الأخبار ص ٢٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٢

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ص ٣١٠

(3) El - Hajji : And, Dip. Rel. p 128, pp 1-6 — 7

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

نرضت عليه الحرب ولم يسع هو إليها ، ولم يكن سببا لاندلاعها ، وإنما أدى تطور الأحداث إليهـا وما ماجت به الأندلس حينئـذ من فتن وثورات وما جرى من استنجاد بعض الثوار بشارلمان والتماس معـونته وتأييده [١] .
إذن نخلص من ذلك كله بأن شارلمان هو الذى « تمرس بعبد الرحمن مـدة » وهو الذى عجم عـــوده « فأصابه صلب المكسر تام الرجولية » ، وليس عبد الرحمن هو الذي فعل ذلك . وهناك دليل يدعم هذا الرأى أن المقرى عاد فى الصفحة التالية لهذا النص يصف رجولة عبـد الرحمن وشدة بأسه ومضاء عزيمته حين خرج بعد عودة شارلمان إلى ثوار الشمال فنكل بهم وأنزل بهم صارم العقاب ، واشتد جدا فى التنكيل بأولئـك الذين التمسوا المساعـدة من شارلمان [٢]، فأثبت للفرنجة بذلك أنه عزيز المرام صلب العود قوى البأس فاقتنع شارلمان بضرورة إحلام السلام معه [٣] .

ويضيف المؤرخ المحدث جاكسون Jackson إلى الأسباب التى أقنعت شارلمان بضرورة إحلال السلام مع أسبانيا الإسلامية ، سببـا آخر على جانب كبير من الأهمية ، وهو يتعلق بالنواحى الإقتصادية والمالية لدولة الفـرنجة ، فيذكر أنه بنجاح عبد الرحمن فى بناء اقتصاد مستقل عن المشرق ، واتجاهه إلى الأخذ بنظم الموازين والمقاييس الرومانية التى كانت سائدة ومتمشية مع النظام التجارى فى أسبانيا [٤] ، وسكه عملة خاصة قوامها الدنانير الذهبية ، فإنه يمكن

---

(1) El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 141

(٢) مؤرخ مجهول : أخبار مجموعة ص ١١٤

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

(4) Jackson : The Making of Med Spain, p. 14

أن نؤكد أن إمارة قرطبة قد لعبت دوراً هاماً وبارزاً فى العلاقات التجارية مع أوربا ، فضلا عن أن النظام المالى الكارولنجى قد أعيد تنظيمه اعتباراً من سنة ٧٨٠ م على أساس عملة تزن نصف دينار قرطبة تماماً (١) ، بما يعنيه ذلك من أهمية اقتصادية وتجارية لأسبانيا فى ذلك الوقت ، وضرورة إحلال السلام والوئام معها لإنعاش التجارة والاقتصاد فى غرب أوربا ، كل ذلك لابد قد اقنع شارلمان بإحلال السلام محل الحرب .

ويضيف مؤرخ محدث آخر هو دايفز R. H. C Davis إلى ذلك أن العملة الفضية الكارولنجية كان لها صلة بالقيمة الاعتبارية للفضة والذهب فى الدولة الإسلامية ، وتوقف على نشاط سوق الذهب والفضة فى الدولة الإسلامية ثبات أو ارتفاع أو انخفاض العملة فى الإمبراطورية الفرنجية (٢) ، فضلا عن أن العلاقات التجارية ارتبطت حتما بالأحوال السياسية والعسكرية بين الجانبين فقد تقلصت فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بالنسبة لما كان قبل ذلك ، وما حدث بعد ذلك فى القرن العاشر وما تبعه (٣) ، ويؤكد المؤرخون المحدثون أيضا أن ثروة أسبانيا فى تلك الفترة وما بعدها كانت عظيمة جداً فى كافة الجوانب الصناعية والمعدنية وفى الزراعة والتجارة ، وأثرت أسبانيا من الذهب والفضة والمعادن الثمينة ، ومن محاصيلها الزراعية كثيراً ، الأمر الذى انعكس

(1) Ibid, p. I4

(2) Davis : A Hist. of Med. Europe, pp. 183 — 4

(3) Davis : op. cit p 184

Ganshof : " Notes sur les ports de Provence du VIIIe au Xe siècles " — Revue Hist, V. 183 (1938) pp. 28 — 37

على ازدهارها وكثرة المنشآت المعمارية فيها [1] . كل ذلك لا بد قد اقنع شارلمان بضرورة إحلال السلام والوئام مع حكومة قرطبة إذا كان يريد الاستقرار المالى والاقتصادى لبلاده .

وفى نفس الوقت كان عبد الرحمن الداخل يرحب بالسلام وحلول الموادعة مع جيرانه الفرنجة بدلا من الحرب ، لما كان يعانيه فى الأندلس من ثورات داخلية ، وفتن كثيرة احتاج معها إلى سياسة خارجية هادئة خاصة مع جيرانه الفرنجة تمكنه من التفرغ الكامل لمواجهة متاعبه الداخلية من ناحية ولما سمعه من قيام نوع من التفاهم وعلاقات المودة بين شارلمان والعباسيين وتبادل السفارات بينهما من ناحية أخرى [2] ، إذ خشى عبد الرحمن أن يؤدى هذا التقارب بين أعدائه إلى قيام حلف ضد دولته فى الأندلس ، فمال إلى السلام مع الفرنجة ورحب بالفكرة التى عرضها شارلمان ، وربما عبر عن هذه الرغبة بطريقة أو بأخرى [3] ، فازداد ترحيب شارلمان بذلك .

وعلى هذا يمكن القول بأن شارلمان اقترح عقد معاهدة صلح وصداقة مع عبد الرحمن الذى كان يرحب أيضاً بهذه الاتفاقية لإحلال السلام ، فالتقيا فى نصف الطريق وعقدت المعاهدة ، على الرغم من أنه ليس من المعروف تماما متى عقدت ، وإن كان من المحتمل أنها عقدت فى سنة ٧٨٠ م فى أغلب

---

(1) Bernhard and whishaw ; op. cit. p. 160

(٢) ديفز : شارلمان ص ٢٩٥ (ترجمة العرينى)

E nhard : op. cit. p. 144 . Deaneely : op cit. p. 294

Pirenne : op, cit. p. 160

(3) El - Hajji : Dip. Rel. between And. and the Franks, p 117

الظن [١] ، وهذا يقوى الاتجاه إلى أهمية الاقتصاد والتجارة والمال فى إجبار شارلمان على تغيير سياسته ، لأنه فى نفس العام أعيـــد تنظيم الشئون المالية والاقتصادية فى دولة الفرنجـة على أساس عملة تزن نصف دينـار قرطبه كما ذكرنا من قبل [٢] . ويبدو أن شارلمان قرن هذه العروض الطيبة بالرغبة فى مصاهرة عبد الرحمن ، فعرض زواج ابنته من عبد الرحمن، إلا أن هذا اعتذر فى لباقة عن هذه المصاهرة متذرعا باعتلال صحته وتقدمه فى العمر . ويشير بعض المؤرخين المحدثين إلى أن هذه الذريعة تجاوزت العــرف، وخرجت عن حدود اللياقة ، لأنها تخفى وراءها رفض إتمام هـــذه المصاهرة السياسية ، وتأكيد حلول الوئام والسلام بين الجارين العتيــدين بطريقة حاسمة ، وكان يمكن أن يزوجهـا لابنه وولى عهـده ، إذا كان فعلا راغبـا فى هذه المصاهرة [٣].

ولا يجب أن نستبعد قيـام شارلمان بعرض هـذه المصاهرة السياسية على عبد الرحمن ، فالدلائل كلها تشير إلى أن دولة الفرنجة أصبحت منذ ذلك الوقت معنية بحلال السلام والوئام مع حكومة قرطبة ، ولقد أشار المؤرخ المحدث — سالف الذكر — جاكسون إلى أهمية العامل الاقتصادى والمالى فى العلاقات بين الطرفين ، وذلك فى دراسة حديثة ممتازة أضاف بها الكثير إلى أفـكارنا فى هذا الجانب [٤]، وتناول هذا الدارس الجانب الصناعى والتجـارى فى

---

(1) Ibid. p 118

(2) Jackson : op cit. p 14
Davis : op cit. pp 183 — 4

(3) Scott : op. cit. I p .09

(4) Jackson : op. cit. pp 21 — 22

أسبانيا الإسلامية فى تلك الفترة بشىء من التحليل ، أثبت من خلاله أهمية الدور الذى لعبته حكومة قرطبة فى هذا الميدان ، وفى إجبار دولة الفرنجة على الحد من غلوائها ، ومحاولة الالتفات لصوت العقل أحيانا ضمانا لاستمرار تبادل المنافع بين الجانبين [١] .

فقد أشار إلى أن ثمة نموا هائلا فى الصناعة قد ظهر إبان القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وربما قبل ذلك لاسيما فى صناعة الخزف والأوانى ونقش وتزيين تلك الأوانى وتطعيمها بمختلف المعادن والسلع الجلدية ، والصناعات العاجية ، وصناعات الأثاث والعطور ، كل هذه الصناعات أنتجها آلاف الفنانين والعمال فرادى أو فى جماعات فى مدن أسبانيا الإسلامية [٢]، فضلا عن المؤسسات الصناعية الأكبر التى انهمكت فى صناعات الغزل والنسيج والأنسجة المزدانة بالرسوم والألوان ، وصناعات الأسلحة وصناعات الأصبغة وغيرها .. وكان الزجاج الصوانى أحد اختراعات قرطبة فى القرن التاسع ، وكذلك ظهر الاهتمام بحفر المناجم وكشفها على يد الأفراد وإنتاج الحديد والزئبق والملح . ومن ثم فقد انتعشت التجارة ، وتبادل السلع وقليلا ما عوقتها الحروب الأهلية فى أسبانيا أو الحروب التى اندلعت بينها وبين المسيحيين من جيرانها [٣] .. أى أن هذه المنتجات والصناعات قد وجدت طريقها إلى دولة الفرنجة التى كانت فى حاجة إلى مثل هذه الصناعات المتقدمة التى لا تستطيع إنتاجها أو الحصول عليها من أماكن أخرى .

---

(1) Ibid p. 21

(2) Ibid. pp. 21 — 22

(3) Jackson : op. cit p. 22

هذا فضلا عن أن أسبانيا قد لعبت دورا هاما فى التجارة العالمية وتجارة الإمبراطورية الكارولنجية بصفة خاصة ، لاسيما فى تجارة رقيق شرق أوربا ، وأسرى وسبايا الجيوش الفرنجية ، الذين عرفوا طريقهم عبر أراضى أسبانيا الإسلامية إلى برشلونة وبنبلونة (١) . ويؤكد المؤرخ المحدث دايفز أن العلاقات التجارية بين الجانبين فى القرنين الثامن والتاسع قد تقلصت كثيرا عما كانت عليه قبل ذلك ، وعما أصبحت عليه بعد ذلك أي فى القرن العاشر ومابعده (٢) ولابد وأن الحروب وسوء العلاقات السياسية والعسكرية كان لها ضلع فى ذلك . وهذا يؤكد أن الجانبين قد أدركا حتما مغبة الحرب ورغبا فى إحلال السلام وإعادة الهدوء فى المنطقة ، للسماح للتجارة وتبادل السلع بالنمو والازدهار .

وعلى هذا يمكن القول أنه فى ضوء أحداث العصر ، والظروف الداخلية فى كل من الدولتين ، قد توصلنا إلى حلول للقضايا التى أثارها نص المقرى ، وقدمنا إجابات للتساؤلات التى أوردها (٣) . ففضلا عن ثبوت صحة هذا النص وأصالته وسموه عن التلفيق أو الخطأ ، فقد ثبت أن شارلمان هو الذي عجم عود عبد الرحمن واختبره فى القتال ، فوجده صلبا ، وأنه هو الذى بادر بطلب إحلال السلام والصداقة محل الحرب والنزال (٤) ، كما أنه هو الذى عرض

---

(1) Ibid. p. 24

(2) Davis : op. cit p 183 — 4

(3) El - Hajji : op cit. p. 118

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

(4) Scott : op, cit. I, pp. ·09

المصاهرة السياسية وزواج ابنته من عبد الرحمن ، الذى قبل عروض السلام واعتذر عن اتمام المصاهرة والزواج ، كما جرى إثبات أن روح السلام وسياسة الوئام كانت تلقى ترحيبا لدى عبد الرحمن وحكومة قرطبة [١] ، بدليل أنه سارع بقبول هذه العروض نظرا للظروف التى كان يمر بها من ناحية ، وخشية أن تتفاقم وتزداد علاقة الفرنجة بالعباسيين ، وتتطور الى قيام مشروعات مشتركة ضد الأندلس من ناحية أخرى [٢] ، فجرى عقد المعاهدة وحل السلام بين الجانبين .

ظلت معاهدة الصلح سارية المفعول طوال السنوات الباقية من عمر الأمير عبد الرحمن والسنوات الأولى من عهد ابنه هشام الرضا ، لكن الفرنجة عادوا إلى سابق سياستهم العدائية ضد المسلمين فى أسبانيا عقب وفاة عبد الرحمن فى سنة ٧٨٨ م (١٧٢ هـ) ، فأخذوا يتحينون الفرصة للتدخل فى شئون أسبانيا رغبة فى النفاذ إليها [٣] ، وراحوا يحرضون نصارى الشمال بصفة مستمرة ضد حكومة قرطبة ، ثم أردفوا ذلك بإرسال حملات هاجمت شمال أسبانيا — كما سبق أن فصلنا — سنة ٧٩٢ م (١٧٦ هـ) [٤] ، فاضطر هشام بن عبد الرحمن إلى إرسال جيش كبير اجتاز جبال البرتات وهاجم سبتمانيا وأمعن فى القتل والأسر ثم عاد ظافراً إلى قرطبة ، وتلى ذلك قيام الفرنجة باحتلال برشلونة

---

(١) المقرى : نفسه ج ١ ص ٣١٠

(2) Deanesly : op. cit. p. 204 , Pirenne : op. cit. p. 160
ودينز : شارلمان ص ٢٩٥ (ترجمة العرينى)

(3) Jackson : op. cit. p. 18

(4) Scott : op. cit. I, p. 429

سنة ٨٠١ م (١٨٥ ﻫ) على عهد الحكم بن هشام [١] ، ثم هاجموا الثغر الأعلى بعد ذلك بسنوات في ٨٠٨ — ٨٠٩ م (١٩٢ ﻫ) تحت قيادة لويس بن شارلمان، وحاصروا طرطوشة ، إلا أنهم أجبروا على الارتداد تحت وطأة جيش الحكم الذى قاده ابنه عبد الرحمن لمهاجمة الفرنجة وإجلائهم إلى بلادهم [٢] ، ثم حدثت مجموعة اشتباكات حربية أيضا فى البحر [٣]، أقنعت الفريقين بعقم هذه الحروب وعبثها فمالا معا إلى عقد الصلح ، وإحلال السلام ، وأظهر كل من شارلمان والأمير الحكم بن هشام رغبتهما فى عقد الصلح [٤] .

وتشير الدلائل إلى أن شارلمان كان يرحب بعقد الصلح أيضا مع الأمير الحكم ، وذلك في السنوات الأخيرة من حكم شارلمان نظراً لاشتداد وطأة الأحوال الداخلية فى بلاده ، وعدم إمكانية الالتفات إلى أسبانيا أو توجيه حملات لمحاربة الأمويين فيها ، فالمتتبع لأحوال فرنسا فى تلك الآونة يستطيع أن يصل بيسر وسهولة إلى فكرة عن اضطراب أحوالها الداخلية [٥]، بعد أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٦٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٥

أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٠ — ١٧١ .

Deanesly : op. cit. p. 354

(٢) ابن سعيد المغربى: المغرب فى حلى المغرب ١ ص ٤٠ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨

ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٧ ،

Lévi - Provençal ; op, cit. I, p. 182

(3) Reinaud : Mus. Col. in France, pp 107 — 8

(4) El - Hajji : op cit. p. 118

(5) Cantor. : Med Hist. pp 224 — 5

pirenne : op. cit. pp. 250 — 2 , p. 273

Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 181 — 2

أن حمل اتساع الإمبراطورية وتضخمها معه بذور ضعفها وتداعيها ، وأعطى فرصة سانحة للسلطات المحلية والموظفين العموميين لانتزاع حقوق وامتيازات صارت فيما بعد حقوقا متوارثة وامتيازات مكتسبة [١] ، وحاز جباة الضرائب سلطة ونفوذا على حساب السلطة المركزية ، واتسعت سلطة القضاة فى الأقاليم وجنح المبعوثون الملكيون إلى التشبث بحقوقهم وتوريثها ، وساهم النظام الإقطاعى فى تحويل الكونتات وحكام الأقاليم من مجرد موظفين عموميين إلى أتباع يرتبطون بالأرض ويحوزون إقطاعات واسعة ، غدت أساس أرستقراطية طبقية فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية [٢] . ولقد تنبه شارلمان إلى ذلك الخلل في نظامه السياسى فى السنوات الأخيرة لحكمه ، إذ عكست مرسوماته وأوامره صورة قلقه وحقده على كبار الموظفين وإحساسه أن ثمة تداع لنظمه السياسية والاقتصادية ، وتآكل فى طبقة الملاك الأحرار — عماد جيشه — وتضخم فى الطبقة الإقطاعية وكبار النبلاء ، لما درجت عليه من احتواء أراضى صغار الملاك ، وغلوها فى الاستبداد والمصادرات وانحدار القضاة وتزايد المختلسين واللصوص والمرتشين [٣] .

ولعل ذلك ما جعل شارلمان يفكر فى الفترة الأخيرة من حكمه فى الاعتكاف فى أحد الأديرة ليقضى بقية عمره فى التنسك والتعبد والصلاة لولا أن وافاه الأجل بعد ذلك بقليل ، وهو فى السبعين من عمره ، وعلى الناحية الأخرى انهمك الأمير الحكم فى إخضاع الثورات المتأججة فى كل مكان ما بين حركات

---

(١) محمد الشيخ : شارلمان باعث النهضة الأوربية ص ٢٧ (مقالة)

(2) Cantor : op. cit. pp. 234 — 5

(3) Pirenne : op. cit. pp 250 — 2 , p. 273

الفقهاء ، وثورات المولدين ومسلمى الأسبان وثورات أعمامه عبد الله وسليمان وحركات نصارى الشمال وهجماتهم على أطراف دولته [١] ، وغير ذلك من الفتن التى صرفته عن توجيه جهوده لحرب الفرنجة فمال كثيرا لعقد الصلح ، ولهذا عقدت بينه وبين شارلمان قبل وفاته بسنوات هدنة وصلح ، حل السلام بفضلها وتوقفت الحروب فترة من الزمن ، وكان توقيع هـذه الاتفاقية فى سنة ٨١٠ م (١٩٥ هـ) [٢] ، ويشير أحد المؤرخين المحدثين إلى عامل هام ساعد على عقد هذه الاتفاقية فى سنة ٨١٠ م ، وهو نشاط الجماعات الإسلامية فى البحر وهجماتهم المدمرة على سواحل فرنسا وجزر البحر المتوسط وما سببه ذلك من إزعاج للسلطات الفرنسية التى رغبت فى إيقاف هذه الهجمات أو الحد منها ، لذلك لم يتردد شارلمان فى قبول الصلح وعقد الهدنة . [٣]

ويبدو أن هذه الاتفاقية الجديدة لم تكن من القوة بحيث تضمن بقـــاء الهدوء بينهما طويلا ، لأنه سرعان ما تجددت المصادمات الحربية فى العام التـالى لتوقيعها ، ربما كان البادىء بها الفرنجة فى منطقة الثغر الفرنجى (قطالونيا) ، لأن الحكم بادر بإرسال جيش فى العام التالى هاجم برشلونة قاعدة الثغر الفرنجى والمناطق المجاورة لها [٤] ، ربما رداً على انتهاك الفرنجة لهذه الاتفاقية ، ولكن

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٦ ، ابن عذارى : البيان : ج ٢ ص ٧٣
ابن الأثير : الكامل ج٦ ص ١٦٨ ، عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ٢ ص٢٢٣ .

Schmitz : Enc, Isl art ' Al - Hakam "

(2) F J. P. de Urbel ; Hist. de Espàna, VI, p. 4.9

El - Hajji : op, cit. p. 118

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٨٤

(٤) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٧٣

El - Hajji : And. Dip. Rel p. 129

يبدو أن تلك الأعمال العسكرية لم تسفر عن نتائج حاسمة أو عن تغيير الأوضاع في تلك الجهات ، وغلبت الرغبة في السلام كلا الطرفين ، فعـــادا إلى الصلح والوئام ، لأن المصادر المعاصرة تشير إلى وصول سفارة أندلسية سنة ٨١٢ م (١٩٧ هـ) إلى عاصمة الفرنجة إكس لاشابل للتفاوض مع شارلمـان نفسه [١] لإحلال السلام ، ولابد أن الأمير الحكم أراد بمفاوضة شارلمان ذاته ضمان سريان الاتفاقية وعدم انتهاكها من جانب الفرنجة ، فالدلائل كلها تشير إلى ذلك وإلى أن الحكم أراد ضمانا أكبر لسريان الاتفاقية بمفاوضة عاهل الفرنجة نفسه ، بعد أن اقتنع أن مفاوضة الأمراء الفرنجة لن يكون لها ذلك الإلزام ولن يكون لها الاحترام الكافي [٢] . وهكذا وصلت السفارة إلى العاصمة الفرنجية والتقى السفير الأندلسي بشارلمان ، ونجح في عقد اتفاقية جديدة أمـدها ثلاث سنوات . ويذهب المؤرخ رينو Reinaud إلى أن سفير قرطبة الذي نجح في عقد هذه الاتفاقية يدعى يحيى بن حكم ويقول أن المصادر الإسلامية المعاصرة والمؤرخون العرب المعاصرون وصفوه بأنه كان: «رجلا شجاعاً جريئاً» [٣] على الرغم من أنه ليس هناك ما يؤيد ذلك في المصادر العربية المتاحة ، ولكن من الثابت أن الحكم لم يكن ليختار لهذه السفارة إلا رجـلا يتصف بهـــذه الصفات فضلا عن اللباقة والكياسة والذكاء ، للنجاح في هذه الصلات الدبلوماسية والسفارات السياسية بين دولتين لم يعرفا في تاريخهـا الطويل لغـة سوى لغـة الحرب والقتـال ، ويؤكد المؤرخ المحـدث جاسكون أن أمراء قرطبة كانوا

---

(1) El - Hajji : op. cit pp. 129 — 30

(2) Reinaud : op. cit. p. 110

El - Hajji : Dip. Rel. between And. and the Franks, p. 18

(3) Reinaud : op. cit p. 110

يختارون لسفاراتهم المختلفة مع أوربا وبيزنطة وشمال إفريقية نفراً من المستعربين سواء من المسيحيين أو اليهود الذين صقلتهم التجارب وتمرسوا على أرفع أسلوب فى الدبلوماسية ، وحذقوا توجيه الحوار السياسى والدبلوماسى فى العلاقات الدولية (١) .

وعلى الرغم من كل ما بذل فى سبيل إنجاح هذا الحوار الدبلوماسى والصلات الودية لعقد تلك الاتفاقية ، إلا أنها لم تحترم أيضاً بل انتهكت أكثر من مرة ، ومن كلا الطرفين ، ولسنا نشك فى أن الانتهاك كان يأتى من جانب الفرنجة فى منطقة الثغر الفرنجى ، الذين دأبوا على الهجوم على أطراف الثغر الأعلى ومدن الشمال ، كلما لاحت الفرصة غير متقيدين فى أغلب الظن بنظم أو اتفاقيات (٢) . ويبدو الأمر مفهوماً فى ظل ما كان يطمع فيه أمراء الثغر الفرنجى فى برشلونة وما حولها من استقلال ذاتى ، دون ارتباط بعجلة السياسة الفرنجية وقد سبق أن رأينا كيف كان يختار أمراء ذلك الثغر ، إما من المنحدرين من أصل قوطى أو من الفرنجة ، وكيف جرت الأحداث فى هذا الثغر بما يؤكد رغبة حكامه فى الاستقلال الذاتى فى سياستهم ، ولهذا فقد عكروا — أكثر من مرة — صفو السلام بين المسلمين والفرنجة ، وانتهكوا هدنات واتفاقيات سلام ، دون أن يكون فى ذلك من جانبهم عملا غير مشروع (٣) . كما أنهم فهموا ما حدث من اتفاقيات بين الفرنجة والمسلمين على

---

(1) Jacks n : op. cit. p 30

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٧
أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٨

(3) Deanesly : op. cit: p. 345
Lévi – Provençal : op cit. 1, p. 181
أرسلان : الحلل السندسية ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ ، طرخان : المسلمون فى أوربا ص ١٨٦

أنها اتفاقيات لا تلزمهم بشيء ولا تشملهم ، ولهذا كثيراً ما جاءت الانتهاكات من جانب أولئك الفرنجة الرابضين فى الشمال الشرقى لأسبانيا (١) . ويذكر ابن خلدون أن إغاراتهم فى هذه المرحلة من عهد الحكم تزايدت على مدن الثغر الأعلى ، وكان الحكم فى كل مرة يتحرك لصد خطرهم (٢) ، كما رد المسلمون على هذا الانتهاك بالقيام بعمليات عدائية ضد الفرنجة ، ثم الهجوم على جزيرة قورسيقا ، وذلك سنة ٨١٣ م (١٩٨ هـ) ، وعلى غيرها من أراضى الفرنجة بالقرب من جبال البرانس (٣) ، بقيادة عبد الرحمن بن الأمير الحكم الأول ، وكانت هذه الاشتباكات من القوة بحيث تركت آثارا مدمرة فى جنوب فرنسا وقتل فى إحدى المعارك القديس أفانتين Saint Viantin من أهالى إحدى المدن فى مقاطعة الجارون ، وجرى تعظيمه بعد ذلك ، وإحاطته بهالة من القدسية ٤ .

وبعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م ، وولاية ابنه لويس التقى ، وعلى الرغم مما أحرزه المسلمون من انتصارات في السنوات القليلة السابقة ، كان الأمير الحكم يميل إلى السلام وحسن الجوار مع الفرنجة لرغبته فى الإلتفات لشئون بلاده فى الداخل من ناحية ولما بلغه من تزايد قوة إدريس بن إدريس في المغرب من ناحية أخرى (٥) ، ولهذا عول على أن يسلك طريق المفاوضات مع الفرنجة

---

(1) El - Hajji : An . Dip. Rel. p. 129
Jackson : op. cit. p. 18

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٧ — ١٢٨

(3) Reinaud : op cit p 110

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٨٥

(٥) السلاوى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ — ٧٢

ويعقد اتفاقية معهم ، فأرسل فى عام ٨١٦ (٢٠١ هـ) سفراء إلى بلاط لويس التقى فى فرنسا لعقد تلك الاتفاقية ، فاستقبلهم لويس التقى فى إكس لاشابل ، وتمت المفاوضات بنجاح عقدت على أثرها اتفاقية سلام بين الطرفين ، ضمنت الهدوء بينهما لفترة ، وإن لم تمتد طويلا (١) . وتذكر الروايات أن رسل أمير الأندلس هم الذين كانوا جادين فى طلب الصلح بحيث تحملوا مشاق كثيرة قبل أن يلتقوا بالإمبراطور فى إكس لاشابل ، فقد كان عليهم البقاء لفترة فى إحدى المدن فى جنوب فرنسا ، قبل أن يسمح لهم بالوصول إلى مقر إقامة الإمبراطور فى إكس لاشابل (٢) .

وعلى الرغم من كل مما بذل فى سبيل عقد هذه الاتفاقية ، فإن أمدها كان قصيراً لأن الفرنجة عادوا فى سنة ٨٢٤ (٢٠٩ هـ) ، بتوجيه من لويس التقى نفسه إلى غزو شمال أسبانيا ، وإخضاع البشكنس توطئة للهجوم على المسلمين غير أن البشكنس استعانوا بجيرانهم المسلمين فنهض هؤلاء من مدن الثغر الأعلى لمؤازرتهم ، وتمكن الحلفاء من إنزال هزيمة ثقيلة بجيش الفرنجة فى ممرات البرتات ، شابهت إلى حد بعيد معركة باب الشيزرى ، وممر رونسفال قبلها بستة وأربعين عاما (٣) .

ولقد كان حنق لويس التقى على المسلمين عظيما بعد هذه الهزائم ، إذ استبد به الغضب واستبعد مفاوضات السلام ، ونبذ أسلوب الحوار السياسى ، وصمم على الانتقام . فبعد ذلك بنحو عامين وفى سنة ٨٢٦ م (٢١١ هـ) ، دعا لويس

(1) Lévi – Provençal : op. cit. 1 p. 208

(٢) أرسلان : نفسه ص ١٨٦ — ١٨٩

(٣) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٢

التقى إلى اجتماع غير عادى فى إكس لاشابل ، يعقد تحت رعاية ابنه بين ملك أكويتين، ويحضره كونتات الأقاليم الملاحقة لأسبانيا ، وأعلن بين رغبة والده الإمبراطور فى مهاجمة الأندلس والانتقام لما نزل بالجيش الفرنجى فى ممرات البرتات [١] . ويشير المؤرخ رينو والمؤرخ ليفى بروفنسال إلى أمر هام مؤداه أنه حضر هذا الاجتماع قائد قوطى يدعى آيزون Aizon (عيسون) كان قد طرح طاعة الفرنجة ، وتأهب للاستيلاء على قطالونيا أو ما يعرف بالثغر الفرنجى أو القوطى ، ويؤكد رينو أن هذا القائد كان قد طلب معونة الأمير عبد الرحمن وتأييده ، ورحب الأمير عبد الرحمن بذلك وحثه على السفر إلى إكس لاشابل لحضور ذلك الاجتماع للوقوف على نوايا الفرنجة وخططهم القادمة فى الهجوم على المسلمين [٢] ، وعاد هذا القائد الثائر إلى قطالونيا وأراجون Aragon ، وأخذ يحرض هذه المناطق على الثورة ضد الإمبراطور الفرنجى وغدا بوسعه الاستيلاء على مدينة أشونة Ausona ، ثم ذهب بنفسه إلى قرطبة وطلب مساعدة الأمير عبد الرحمن لحماية هذه المدينة ليجعل منها قاعدة لعملياته ولتصمد فى مواجهة الفرنجة إذا تقدموا إليها [٣] ، ثم ما لبث الأمير عبد الرحمن أن بعث بجيش كبير إلى الشمال — كما سبقت الإشارة — نجح فى إلحاق بعض الهزائم بالفرنجة وعاد ظافراً إلى قرطبة [٤] . وتابع لويس التقى

(I) El - Hajji: Dip. Rel. between And and he Franks p. 119

(2) Reinaud ; op. cit. p. 114
Lévi - Provençal : op. cit. I, p. 211

(3) Reinaud : op. cit. p. 114
أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٢

(٤) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٥
أرسلان : نفسه ص ١٩٢

سياسة والده شارلمان فى مصادقة الخلافة العباسية فى الشرق نكاية فى إمارة قرطبة ، فتبودلت التجارة والسلع مع بلاد الشام ومصر ، وتبودلت السفارات بين الفرنجة والعباسيين ، ووصل وفد من ثلاثة رجال اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحى وحملوا إلى الإمبراطور لويس التقى الهدايا الفاخرة ، منها المنسوجات الفاخرة والعطور وغيرها (١) .

وتوفى لويس التقى سنة ٨٤٠م، واقتسم أبناؤه الثلاثة أركان الإمبراطورية الفرنجية فحاز شارل الأصلع الجهات الغربية فى الإمبراطورية ، بما فيها المناطق المتاخمة للمسلمين فى أسبانيا ، وتذكر النصوص أن العلاقات بين هذا الملك الفرنجى والأمير عبد الرحمن الثانى لم يكن يسودها الوئام ، بل لونها العداء ، وغصت بالاشتباكات الحربية وبمحاولة كل طرف التدخل فى شئون الطرف الثانى ، وتأييد ما يثور فى بلاد الآخر من ثورات والتحريض على القيام بها(٢)، وتوقف أسلوب الحوار بالسياسة والمفاوضات لفترة طويلة ولم يتجدد سوى فى السنوات الأخيرة لحكم كل من هذين العاهلين . إذ يذكر المؤرخ ابن حيان أنه فى سنة ٨٤٦ م (٢٣٢ هـ) ، قدم إلى بلاط قرطبة أحد الثوار الفرنجة سماه «غليام بن برباط بن غليام» (٣) كونت تولوز (William, Count Toulouse, grandson of William) فى صحبة نفر من رفاقه طالبين مساعدة الأمير عبد الرحمن الثانى ضد ملكهم شارل الأصلع ، ولقد رحب الأمير عبد الرحمن بهذا الثائر ، وأجاب طلبه وقدم له المساعدة بحيث استطاع هذا الثائر أن يحرز

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٩٤

(2) El-Hajji : and. Dip. Rel. p. 150

(٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٨٩ ، عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ١ ص ٢١٥

انتصاره على الفرنجة ، وحاصر برشلونة وهاجم جيرونا ، وأصبح له دور هام في أحداث الثغر الفرنجي في ذلك الوقت(١) . ولم ينس هذا الثائر ما قدم له من معونة إسلامية ، فبعث بخطاب شكر وامتنان للأمير عبد الرحمن، عبر فيه عن شكره لما قدمه له الأمير من مساعدة مكنته من إحراز الانتصارات في الشمال ، وتلقى الأمير عبد الرحمن هذه الرسالة بترحاب شديد ، وكتب على أثرها إلى عبد الله بن يحيي حاكم طرطوشة ، وعبد الله بن كليب حاكم سرقسطة ، يطلب منهما مد هذا الثائر بكل ما يحتاج إليه من مساعدة وأن يبالغا في إكرامه (٢) ، وظلت علاقات المودة سارية بين هذا الثائر وبين الأمير عبد الرحمن فترة ، فقد أشارت المصادر المعاصرة إلي قدوم هذا الثائر إلى قرطبة بعد ذلك بنحو عامين أي في ٨٤٨ م (٢٣٤ هـ) (٣) .

ويشير المؤرخ رينو إلى أن وليم هذا كان أحد رجال ببين الصغير ابن أخي شارل الأصلع الذي فجر الثورة في أكويتين ضد عمه شارل الأصلع ، وأنه هو الذى أرسل وليم إلى بلاط قرطبة لطلب المساعدة (٤) . ولابد وأن الأمير عبد الرحمن قد رحب بتقديم تلك المساعدة نظراً للعداء بين شارل الأصلع وحكومة قرطبة من ناحية ، ولقيام شارل الأصلع بمهاجمة الأراضى الإسلامية من جهة أخري واستمر العداء فترة ، وحدثت بعض الاشتباكات الحربية بينهما ، ثم ما لبث أن غلبت عليهما روح السلام من جديد، ومالا إلى عقد الهدنة من جديد ، فتم عقد الصلح قبل وفاة الأمير عبد الرحمن الثانى بسنوات قليلة

---

(1) El - Hajji : Dip. Rel. between And: and the Franks, p. 119

(2) Ibid: p. 119

(٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٨٩

(4) Reinaud : op. cit, p. 119 — 120

وانتهت هذه المرحلة الهامة من الصراع بحلول السلام بين الجانبين (١) . ومن المحتمل أن هذه الاتفاقية هي التى أشار إليها ليفى بروفنسال والتى وضعها فى سنة ٨٤٧ م (٢٣٣ هـ) (٢) .

ومن المحتمل أيضاً أن هذه السفارات والمفاوضات قام بها أحد رجال الأمير عبد الرحمن الثانى ، وخاصة ممن كان لهم حظوة عنده وكان أثيراً لديه ، لأن المؤرخ ابن القوطية يشير إلى ذلك إشارة فيها نوع من الغموض إلى حد ما إذ قال : « وذلك أن رجلا يعرف بالقصبي كانت له وجهة ، وكان يوفده عبد الرحمن بن الحكم إلى قارله (شارل) ملك الإفرنجة وإلى ملك الروم » (٣). وليس من السهل معرفة الاسم الكامل لهذا المبعوث الذى سماه ابن القوطية « القصبي » أو معرفة أى شيء عن سفارته إلى الفرنجة ، ورحلاته الخاصة إلى بلاط شارل الأصلع أو ما يتعلق بهذه الأحداث وتواريخها (٤). بل إن الروايات الإسلامية المعاصرة لا تستطيع أن تمدنا بما يشفى الغليل فى هذه الأمور لأنها قدمت أسماء غريبة لملوك الفرنجة ليس من السهل معرفتها ، ولولا ما قدمته من صفات ومميزات هذه الشخصيات ، لظلت هذه الأسماء موضع شك كبير ، ولما عرفنا أى أولئك الملوك كانت هذه الروايات تقصد . فالمؤرخ ابن حيان يطلق على شارل الأصلع لقب « قرلبيبا » بن ردين ، ولكن مايقدمه من وصف لهذا الرجل يجعلنا نتأكد أنه شارل الأصلع فالصفات التى يصفه بها تطابق تماما ما كان معروفا عن شارل الأصلع (٥) ، فهو يسميه ملك الفرنجة ويصفه بأنه على

(١) انظر عنان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٥

(2) Lévi – Provençal ; op. cit. I, p. 213
El - Hajji : op. cit. p. 119

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٢ (ط بيروت ١٩٥٧)

(4) El - Hajji : op cit. pp. 119 — 120

(5) Ibid. p. 120

جانب كبير من التقوي والورع ، وله شخصية قيادية ، ويعطى مدة لحكم هذا الرجل تطابق مدة حكم شارل الأصلع تقريباً (٨٤٠ — ٨٧٧ م) [١] ، إذ يقول عنه : « ... وكان أكلفهم بذلك طاغوتهم الأعظم قرلبيبا بن ردين ، صاحب الإفرنجة الجبار المستبصر في دين الملكانية ، وكان أعظم ملوك الإفرنجة ملكا ، وأفخمهم أمرا وأبعدهم صيتا ، وكانت ولايته تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر ... » [٢] . ويقدم المؤرخ ابن عذارى نفس هذه الصفات الجامدة عن شارل الأصلع ، بينما يسميه قارلش (قرولش) [٣] ، كما فعل ابن الخطيب أيضا في أعمال الأعلام [٤] ، وكذلك المسعودي فى مروج الذهب [٥] ، ولهذا فنحن لا نستطيع أن نأخذ صورة واضحة عما كان يجرى من صلات بين المسلمين في أسبانيا وبين الفرنجة من المصادر الإسلامية وحدها ، وليس أمامنا سوى قبول رواية ابن القوطية عن سفير قرطبة « القصبي » ، الذي نجح فى عقد صلح واتفاقية سلام بين الجانبين ، قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم بسنوات قليلة ، وقرب منتصف القرن التاسع الميلادى (٨٤٧ م) [٦] .

ولقد احتفظ شارل الأصلع هذا بعلاقات الود والوئام مع الأمير محمد بن عبد الرحمن ، بل تبادل معه الهدايا مواصلا ، بذل الجهود من أجل استمرار

---

(١) ابن حيان : المقتبس ص ٢٢١

(٢) ابن حيان : نفسه ص ٢٢١ ،

El - Hajji : op. cit. p. 120

(٣) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٨

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣

(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٧١

(6) El - Hajji : op cit. p. 120

السلام : « وكان قرولش ملك إفرنجة يسترجع عقله فيهاديه ويتحفه »(١) .

ويحدثنا المؤرخ ابن حيان أن شارل الأصلع حرص على حسن الجوار مع المسلمين، وتمتع الطرفان فى ذلك الوقت بعلاقات طيبة وباستمرار السلام بينهما، وتبادل شارل الأصلع الهدايا مع أمير قرطبة (٢) . ويبدو أن هذه العلاقات والمودة قد أعقبت فترة اشتباكات بين الجانبين اقتنع الطرفان خلالها بضرورة العودة إلى السلام ، وضجرا من استمرار العداء والحروب بينهما ، إذ تذكر النصوص أنه قبل ذلك بأعوام قام حكام الثغر الأعلى بنو موسى بن موسى بن قيسى بالهجوم على سبتمانيا ، وهددوا بلاد الفرنجة (٣) ، فى الوقت الذى انشغل فيه شارل الأصلع بالأحوال الداخلية فى بلاده ، وبهجمات النورمان على سواحلها ، ولهذا اضطر شارل الأصلع إلى الدخول فى مفاوضات مع أمير قرطبة محمد بن عبد الرحمن (٤) ، وفى نفس الوقت رحب هذا بالمفاوضات وإحلال السلام ، بل كان يبدى رغبته فى السلام وعقد الصلح قبل أن يرسل إليه شارل الأصلع برسله لعقد الاتفاقية ، وفى سنة ٨٦٦ م (٢٥٢ هـ) ، استقبل الأمير محمد بن عبد الرحمن سفراء الفرنجة في قرطبة حاملين معهم الهدايا من ملكهم ، وجرت مفاوضات ودية بين الجانبين ، انتهت بعقد معاهدة صلح وسلام (٥) ، ثم عاد السفراء إلى بلادهم محملين بالهدايا والمنح السخية من

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٨

(٢) ابن حيان : المقتبس ص ٢٢١ ،

El - Hajji : op. cit. p. 120

(3) Lévi - Provençal : op. cit. I, pp. 224 — 5

(٤) أرسلان : الحلل السندسية ج ٢ ص ١٢٣ ،

Reinaud : Mus. Col. p. 120

(5) Reinaud : op. cit. p. 126

El - Hajji ; op. cit, P. 120

أمير قرطبة (١) . ويبدو أنه جرى الاتفاق في تلك المفاوضات على بقـاء قطالونيا بأيدى الفرنجة كما يذهب مؤرخ محدث ، ولم تجـد حكومة قرطبـة غضاضة فى ذلك ، ومن ثم عاد رسل شارل الأصلع بهـدايا ثمينة من قرطبة « ومعهم رسل بحوائج مزينة » (٢) .

وعلى عهد الخليفة عبد الرحمن النـاصر (٩١٢ — ٩٦١ م) ، الذى عج بلاطه بالسفراء من كل الأنحـاء والذى أجمعت الآراء على أنه كان دبلوماسيا من الطراز الأول (٣) ، وصل إلى قرطبة مبعوث الملك لويس الرابع للتفاوض ، لعقد معاهدة سلام وصداقة مع المسلمين ، بعد أن تبوأت قرطبة مـكانة هامة بين مدن الدنيا فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجري) ، ويطيب لفريق من المؤرخين أن يتحدثوا بإكبار عن قرطبة فى ذلك العصر ، وما حققته من مجد ورفعة وسؤدد ، ويقارنون بين ما كان جاريا بها من مظاهر العظمة والأبهة ، وبين مدن الغرب المتخلفة وشعوبها الضاربة فى أطناب الجهل والاضمحلال (٤) ، فبينما زينت قرطبة بالقصور والأواوين والسقـائف والحمـامات والأبنية والمتنزهات والحدائق ، كان السكسون فى غرب أوربا لا يزالون يعيشون فى أكواخ خشبية ويخوضون فى أوحال وطين ، وبينما كانت اللغـات الغـربية تمر بمحنة ويقتصر استعمالها كتابة وقـراءة على بعض الأديرة ، كانت اللغة

---

(1) Reinaud : op. cit. p. 126 ,

ابن حيان : المقتبس ص ٢٢١ ،

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٥

(3) Lane - poole : The Moors in Spain, p. 127

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٣

(4) Lane - poole : op. cit. p. 129

العربية والحضارة الاسلامية والعلوم في أوج عظمتها في أسبانيا المسلمة وفي قرطبة على وجه الخصوص . وهكذا حازت قرطبة مكانتها العالية وشهرتها الذائعة ، فأضحت إحدى المدن المعدودة في الدنيا التي يقصدها المبعوثون من كافة الأنحاء (١) ، وتذكر النصوص أنه كان بقرطبة في القرن العاشر نحو سبعين مكتبة علمية ونحو سبعمائة حمام عمومي (٢) .

وحينما بدأت المفاوضات بين مبعوثي الملك لويس الرابع وحكومة قرطبة، وطلب المبعوثون عقد اتفاقية سلام ، أجيب المبعوثون لطلبهم ، وحل السلام والوئام بين الدولتين (٣) ، ولابد وأن هذه الاتفاقية هي التي أشار إليها المؤرخ ابن خلدون ووضعها ضمن أحداث سنة ٩٥٣ م (٣٤٢ هـ) ، استنادا إلى تواريخ الأحداث السابقة لهذه السفارة (٤) ، على الرغم من أن التعبير الذي استعمله ابن خلدون ليس واضحا ، ويثير بعض التساؤلات ، فقد قال ابن خلدون : « ثم جاء رسل ملك ... وآخر من ملك الفرنجة بقاصية الشرق وهو يومئذ كلدة » (٥) ، ومن المرجح أن كلمة كلدة ليست إلا تحريفا لكلمة « قارله » أي « شارل » ، فيكون ابن خلدون قد قصد بقارلة « شارل البسيط » الذي توفي قبل هذه الأحداث بسنوات طويلة في سنة ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) ، ويكون معنى ذلك أن هذه السفارة أرسلت على عهد شارل البسيط إلى بلاط قرطبة ، واستقبلها عبد الرحمن الناصر أيضا (٦) . ولكن

---

(1) Lane - poole : op. cit pp. 129 — 139

(2) Davis : op cit. p 178

(3) Murphy: Hist. of the Mohametan Empire in Spain. p. 101

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٠٩ — ٣١٠

(٥) ابن خلدون : نفسه ج ٤ ص ٣١٠

(6) El - Hajji : op. cit. p. 121

فريقا من المؤرخين يميل إلى اعتبار تاريخ هذه السفارة كما وضعه ابن خلدون صحيحا ، وأحداثها صحيحة لأن ما قبلها وما بعدها يؤكد حدوثها في تلك السنة ، ويعتقدون أن ابن خلدون ربما اعتقد أن شارل البسيط كان لا يزال يحكم دولة الفرنجة ، ولم يدر أنه توفى قبل ذلك بفترة طويلة ، وأن الذى كان يحكم القسم الشرقي من إمبراطورية الفرنجة في ذلك الوقت هو لويس الرابع بن شارل البسيط [1] .

غير أن فريقا آخر من المؤرخين يعتقدون أن السفارة أرسلت فعلا زمن شارل البسيط ، وأن كلمة كلدة ليست إلا تحريفا لكلمة « قارله » أى شارل البسيط ، وأن هذا الملك هو الذى عول على عقد اتفاقية مع المسلمين لظروفه الخاصة في بلاده [2] ، ويؤكدون أن هذه السفارة أرسلها هذا الملك ، لأن ابن خلدون لا يمكن أن يشير إلى ملك توفى قبل هذه الحادثة بهذه السنوات الطويلة اعتمادا على أن مؤرخا نابها مثل ابن خلدون لا يمكن أن يخطىء في ثلاثين عاما دفعة واحدة ، وإنما حدثت هذه السفارة على عهد شارل البسيط أى قبل وفاته سنة ٩٢٩ م ووضعها ابن خلدون سهوا بعد ذلك بكثير على عهد لويس الرابع بن شارل البسيط [3] .

---

(1) Ibid. p. 121

(2) Gayangos : The Hist of the Mohammedan Dynasties in Spain, II, p. 139, p. 4 4

Imamnddin : A political hist. of Muslim Spain, p 100 (Dacca 1961).

وانظر أيضا :

El – Hajji : op. cit. p. 121

(3) Gayangos : op. cit. p 139. p. 464

Imamuddin : op. cit. p. 100

وعلى الرغم من ذلك فالدلائل كلها تشير إلى أن هـذه السفارة أرسلها الملك لويس الرابع فعلا ، وليس والده شارل البسيط ، اعتمادا على ما جاء بنص ابن خلدون نفسه من أن مرسل هذه السفارة هو الملك ، الذي يحـكم الجزء الشرقي من الإمبراطورية الفرنجية واتساقا مع الأحداث ذاتها ، فشارل البسيط لم يكن سوي ملكا قليل الحصافة والحكمة هشا لا يقيم لمثل هذه السفارات وزنا كبيرا (١) ، بل ألهته أحداث عصره ومنازعة آل كابيه له للانفـراد بالسلطة في البلاد ، بل قطعت تسلسل حكمه أحداث متلاحقة ووقع في النهاية في أسر أمير من أمراء النواحي ، ولم يتمكن من ممارسـة سلطته حتى وفاته في سنة ٩٢٩ م ، دون أن تكون له آثار هامة في بلاده (٢) . وعلى عكس ذلك كان ولده لويس الرابع فارسا ممتازا اتصف بالقوة والشهامة والحزم ، وكان ذكيا مثابرا شديد البأس لم يستطع منافسه وغريمه هيو الكبير أن يحوز ما حازه آل كابيه في ظل والده شارل البسيط (٣) ، ولما عول هيو الـكبير على محالفة أوتو الأول ملك ألمانيا ، لجأ لويس الرابع إلى محالفة دوق برجنديا ، ولابد وأنه لجأ لمحالفة أمير قرطبة طمعا في تجنب أي صـراع مع المسلمين ، قد يعوقه عن الالتفات لأحزاب المعارضة والمنـافسين المطالبين بالسلطة في دولة الفرنجـة .

نخلص من ذلك أن لويس الرابع هو الذي أرسل هـذه السفارة ، وليس شارل البسيط ، ويؤكد هذا الرأى ما ذكره المؤرخ المسعودى من أن مرسل

---

(1) Hoyt and Chodorow : op. cit. p 196, p. 203
Omaa : op, cit. pp. 441 — 2

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p 196

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3764

هذه السفارة هو لذريق بن قارله أى لويس بن شارل البسيط (١) . ومما يؤكد ذلك أيضا أن ابن خلدون عاد فى أحداث نفس السنة ٩٥٣ م (٣٤٢هـ) فذكر ورود سفارة مشابهة من ملك الفرنجة فقال : « ثم جاء رسل ملك ... وآخر من ملك الفرنجه وراء المغرب ، وهو يومئذ أفوه » (٢) إذ قدمت هذه السفارة إلى قرطبة ، وليس من شك فى أن ابن خلدون يقصد بأفوه « هيو العظيم » Hugh the Great ، الذى كان يحكم الجزء الغربى من الأملاك الفرنجية (٩٣٦ — ٩٥٦م) ، أى كانت سلطته نافذة فى الجانب الغربى من الإمبراطورية الفرنجية ويقصد ابن خلدون بما وراء المغرب أى الجانب الآخر من جبال البرتات، وإلى الغرب من شمال أسبانيا (٣) .

ويفهم من تعبير ابن خلدون أن هذه السفارة جاءت فى نفس الوقت الذى جاءت فيه سفارة لويس الرابع أو فى وقت قريب جدا من وصولها (٤) ، وهذا يؤكد أن السفارة التى ذكرها قبلا كانت من لويس الرابع ، والراجح أن المتنافسين على السلطة فى دولة الفرنجة سعيا للحصول على تأييد قرطبة واعتراف الخليفة عبد الرحمن الناصر به ، فأرسل لويس الرابع سفارته من أجل ذلك ولإقامة علاقات ودية وصداقة وحسن جوار (٥) ، وفى نفس الوقت أو قبلها بقليل وصلت سفارة هيو العظيم منافس البيت الكارولنجى الذى جد فى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٧٢

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣ ،

El - Hajji : op. cit. p. 121

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣ ،

El - Hajji : op. cit. p. 121

(4) Imamuddin : op. cit. . 100

(5) Murphy : op. cit, p. 101

تشكيل أحزاب معارضة للويس الرابع ، و إقامة تحالفات مع غيره بين ملوك الغرب . ويبدو أن سفارة هيو العظيم هي التي وصلت أولا إلى قرطبة تخطب ود خليفتها الناصر ، وتحاول إقامة محور سياسى ، وعلاقات صداقة معه (١) ، استناداً إلى نفوذ هيو العظيم كان ساريا فى الجانب الغربى من إمبراطورية الفرنجة أكثر من نفوذ لويس الرابع الذى كان يحكم الجانب الشرقى من الدولة ، وحيث أن الجانب الغربى من دولة الفرنجة هو الذى يتاخم أملاك المسلمين فى أسبانيا ، وهو الذى يحتاج إلى إقامة علاقات حسن الجوار مع المسلمين، فلا بد وأن هيو العظيم هو الذى سعى إلى إقامة هذا التحالف والصداقة مع جيرانه المسلمين ، وطلب تأييد حكومة قرطبة فى جهوده والاعتراف به كملك على الفرنجة ، هذا فضلا عن رغبته فى الحصول على هذا الاعتراف من خليفة مثل الناصر اشتهر فى الخافقين ، وغدا بلاطه قبلة السفراء والمبعوثين من كافة أنحاء الدنيا (٢) ، على هذا يطمئن هيو العظيم الذى لا بد كان يشعر بأنه ليس ملكا شرعيا ، وأن السلالة الكارولنجية التى يمثلها لويس الرابع أحق منه بالانفراد بالسلطة فى دولة الفرنجة ، فكان فى حاجة إلى اعتراف من حاكم المسلمين الكبير فى أسبانيا كسبا للمؤيدين والمتعاطفين ، ولهذا بادر بإرسال هذه السفارة إلى بلاط الناصر .

ويبدو أن الملك لويس الرابع شعر بأن هذه السفارة ربما حظيت بترحيب خليفة قرطبة وعطفه ، فبادر هو الآخر بإرسال سفارة مضادة تشرح وجهة نظر الملك الشرعى وتحاول كسب عطف الناصر ، ولهذا لا بد وأن وصول سفارة

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٣٦ ،

Lane – poole : op. cit. p. 127

لويس الرابع كان بعد وصول السفارة الأخرى التى أرسلها هيو العظيم ، على الرغم من أن ابن خلدون وضع سفارة لويس الرابع فى المقدمة وذكرها قبل الأخرى [١] ، ربما لأنه شعر بأن لويس الرابع هـو الملك الشرعى للفرنجة صاحب الجانب الأكبر والأعظم من دولة الفرنجة ، فجاء بسفارته فى البداية قبل سفارة منافسة هيو العظيم ، وأعطى سفارته أهمية خاصة لأنها السفارة الرسمية فى تصوره وينبغي وضعها فى مكانها بين الأحداث [٢] .

هذا ولا بد وأن العلاقات بين دولتى الفرنجة والمسلمين فى أسبانيا على عهد الناصر وابنه الحكم الثانى كانت علاقات ودية اقترنت بحسن الجوار وحلول السلام والصداقة ويدلل المؤرخون على ذلك بأن تسعة عشر من الأعمدة التى استخدمت فى أبنية الزهراء كانت قد جلبت من بلاد الفرنجة [٣] ، أى جاءت على سبيل الهدية التى قدمت لقرطبة تعبيرا عن روح المودة والألفة بين الدولتين ، إذ ليس من المعقول أن تكون قد جلبت بطريق الحرب والاغارة لأن المصادر المعاصرة لا تذكر لنا قيام حروب بين الجانبين فى هذه الفترة ، ولا تعين لنا معركة حربية انتصر فيها المسلمون يمكن أن تكون سببا فى جلب هذه الأعمدة لبناء الزهراء وتزيينها كما أراد لها بانيها عبد الرحمن الناصر ومزينها الحكم الثانى [٤] . إذن يبقى القول بأن هذه الأعمدة قد قدمت على سبيل الهدية لحكومة قرطبة طلبا لرضاها وتأييدها ، فأحداث هذه المرحلة في عمر دولة

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣

(٢) ابن خلدون : نفسه ج ٤ ص ١٤٣

(3) El - Hajji : op. cit p. 121

(4) Lane - poole : op. cit. p. 127

Murphy ; op cit p. 101

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٣

الفرنجة تنبيء عن تنافس عظيم بين سلالة الأسرة الكارولنجية وآل كابيه الذين نشطوا كثيرا فى طلب السلطة وتطلعوا للانفراد بها ، على الرغم من أنهم لم يكونوا ملوكا شرعيين [١] .

وتعددت الرسائل بين الملك لويس الرابع والخليفة عبد الرحمن الناصر ، واستمرت العلاقات الدبلوماسية بين الجانبين ، وتبودلت السفارات أو على الأقل أرسلت من قبل لويس الرابع إلى بلاط الخليفة الناصر فى قرطبة ، وقام بالسفارة للملك لويس الرابع رجل يسميه المسعودى « عرمار » أحيانا [٢] و « مرمار » أو « فدمار » أحيانا أخرى [٣] ، كما لاحظ ذلك مؤرخ محدث [٤] ، وتشير الدلائل إلى أن هذا الرجل قام بسفارتين من قبل الملك لويس الرابع إلى قرطبة إحداها ثبت أنها كانت فى سنة ٩٣٩ م (٣٢٨ هـ) ، والأخرى لابد وأنها جرت بعد ذلك بسنوات قليلة — ، وقد استنتج المؤرخون قيام هذا الرجل بالسفارة إلى قرطبة للتفاوض مع الخليفة عبد الرحمن الناصر ، لإقامة علاقات ود وصداقة مع خليفة قرطبة [٥] ، وأجمعت الآراء على أن هذا الرجل كان أسقفا لإحدى المدن الفرنجية وإن اختلف على تسمية هذه المدينة — — كما سوف نفصل بعد قليل — لكن كيف ثبت قيام هذا الرجل بالسفارة إلى قرطبة ؟

الواقع أن المؤرخ المسعودى هو الذى بدأ هذه القضية ، حين أشار إلى .

---

(1) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٩ — ٧٢ (ط دى ميناراد)

(٣) المسعودى : نفسه ج ١ ص ١٩٧ (طبعة القاهرة)

(4) El - Hajji : op. cit. p. 121

(5) El – Hajji : And. Dip. Rel. p. 135

أنه أطلع فى سنة ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) مصادفة وهو في مدينة الفسطاط بمصر على نسخة من كتاب يحوى تاريخا لملوك الفرنجة قدمه « عرمار » — أسقف جربادة — إلى الأمير الحكم بن الخليفة الناصر ، وكان حينئذ وليا لعهد والده الناصر [١] . والتقط المؤرخ المحدث رينو هذا الخيط وراح يؤكد أن هذا الأسقف أرسل إلى الناصر فى مهمة أو سفارة من قبل الفرنجة ، وبينما هو فى قرطبة إذ طلب منه الأمير الحكم بن الناصر — ولى العهد — كتابا يتناول تاريخ ملوك الفرنجة [٢] ، وكانت هذه السفارة هي السفارة الأولى إلى قرطبة التى قام بها هذا الأسقف ، وهي التى حدثت سنة ٩٣٩ م (٣٢٨ هـ) ، ووافق مؤرخ آخر محدث رينو على ما ذهب إليه قائلا ، أنه من المحتمل أن هذا الأسقف قد حمل هذا الكتاب إلى الحكم فى سفارته الثانية إلى قرطبة — بناء على طلب الحكم — على الرغم من أن هذا المؤرخ المحدث أشار إلى عدم معرفته أية تفصيلات عن السفارة الجديدة التى قدم الكتاب خلالها ، والتى يحتمل أن تكون في نفس السنة التى سجل المسعودى روايته فيها (٩٤٧م) [٣]

ونكاد نميل إلى ترجيح هذين الرأيين ، لأنهما يتوافقان مع الحقائق الأخرى ومجريات الأمور ، فلابد وأن الأسقف الفرنجى قد قام بسفارة أولى إلي قرطبة فى العام الذى أشار اليه المسعودى (٩٣٩ م) ، والتقى خلال سفارته هذه بالأمير الحكم ، وجرى تفاهم بينهما وصداقة طلب الحكم على أثرها كتابا عن ملوك الفرنجة من هذا السفير ، فحرص هذا على تلبية طلب الأمير وحمل

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٤ — ٧٢

(2) Reinaud : op. cit p. 4

(3) El - Hajji : Dip. Rel. between And. and the Franks, pp. 121 — 2

معه الكتاب المطلوب فى سفارته الثانية ، التى تمت بعد هـذه السفارة بسنوات ربما فى السنة التى حددها المسعودي ٩٤٧ م ، وربما قبل ذلك [١] . ويبدو أن هذا الأسقف كان حريصا على إرضاء الأمير الحكم وكسب وده وصداقتـه باعتباره وليـا للعهد والخليفة المنتظر لقرطبة ، فاهتم بتعريفه بملوك الفرنجـة وتقديم ثبت كامل بتاريخ ملوك الفرنجة لرسم صورة طيبة عن أولئك الملوك أمام خليفة قرطبة المنتظر ، ولهذا فقد حمل الكتاب فى سفارته الثانية إلى قرطبة وقدمه إلى الأمير الحكم .

ومعنى ذلك أن الملك لويس الرابع قد أرسل هذا الأسقف إلى قرطبة فى سفارتين إحداهما ثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أنهـا تمت فى سنـة ٩٣٩ م ، والأخرى ربما كانت فى سنة ٩٤٧ أو قبلها بقليل، ولا بد وأن هاتين السفارتين كان لهما علاقة بالأحداث فى فرنسا ، وما كان جاريا من تنافس بين لويس الرابع وغريمه هيو الكبير [٢] ، فى ظل معرفتنا الدقيقة بالأحداث فى دولة الفرنجة فى ذلك الوقت ، نستطيع أن نؤكد صحة حدوث السفارة الأولى فى السنة التى حددتها المصادر المعاصرة، لأنه فى تلك السنة اندلعت الحرب ضارية بين لويس الرابع وهيو الـكبير ، وأدلى أوتو الأول عاهل ألمانيـــا بداوه فى تلك الحرب ضـد الملك لويس الرابـع ، وبدا أن كـفة هيو الـكبير تكاد تكون هي الراجحة فى ذلك الصراع [٣] ، ولهذا لا بد وأن لويس الرابع

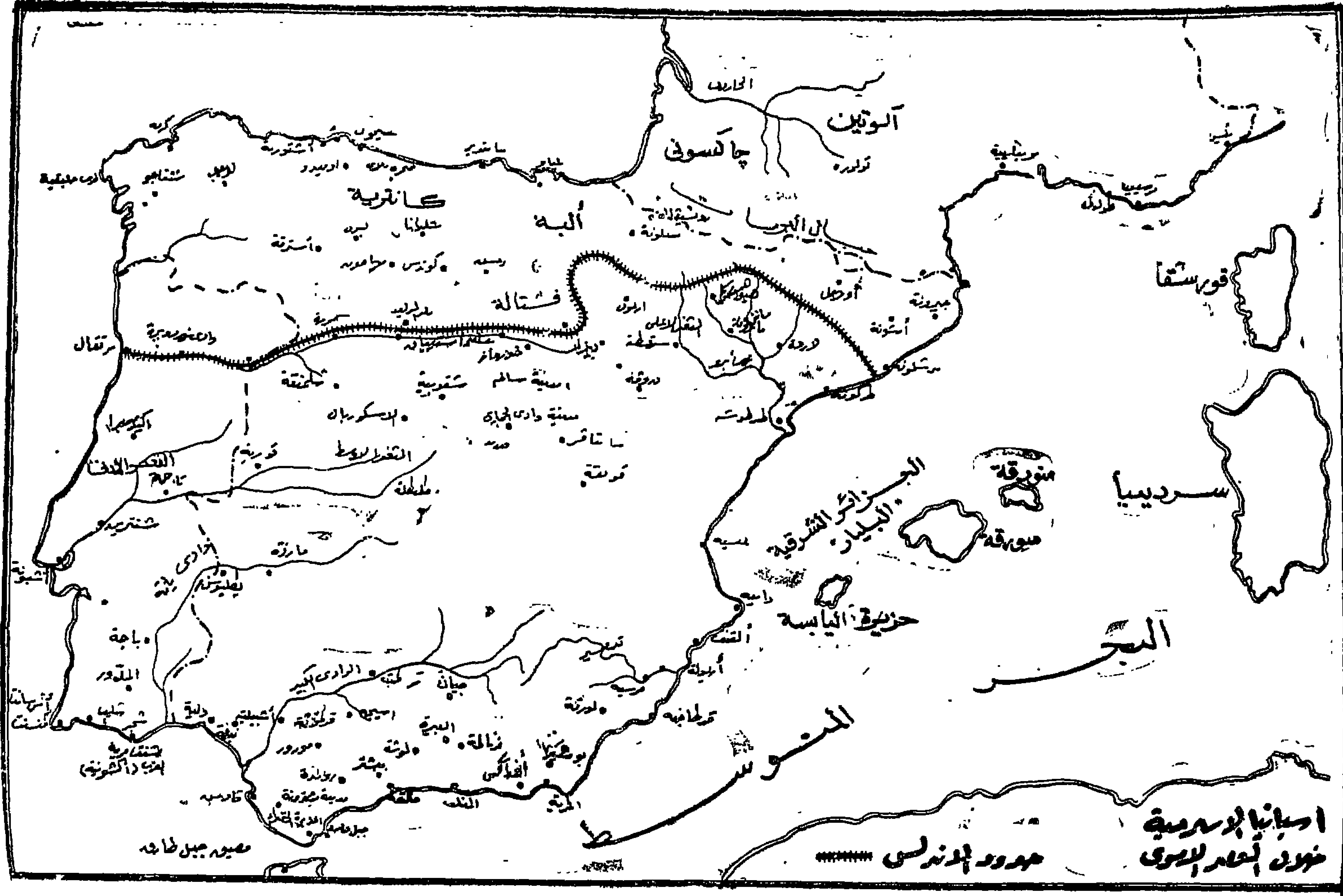
---

(١) كما ذهب المؤرخان المحدثان آنفا الذكر ، أنظر الصفحة السابقة

(2) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203

(3) Oman : op. cit. p. 505

Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 2o3 — 4



اسبانيا الاسلامية
خلال العصر الاموي
حدود الاندلس
البحر
المتوسط
الجزائر الشرقية
البليار
جزيرة اليابسة
ميورقة
منورقة
سردينيا
قورسقا
الوتين
جاسقونيه
قشتالة
البة
كانتبرية
الثغر الادنى
الثغر الاوسط
وادي يانة
باجة

عول على محالفة قرطبة وإقامة علاقات صداقة معها فى تلك الظروف الحرجة التى كان يمر بها كسبا لتأييدها من ناحية وضمانا لعدم إثارة المشاكل معها من ناحية أخرى . ومن ثم أرسل الأسقف المشار إليه فى السفارة الودية الأولى ، اعقبتها سفارة ثانية قام بها نفس الأسقف ، ولابد وأنها حدثت فى سنة ٩٤٧م — كما اقترح بعض المؤرخين (١) — لأننا نجد مسرح الأحداث فى دولة الفرنجة فى تلك الفترة مشابها لما كان عليه فى المرة الأولى أثناء السفارة الأولى، إذ لا زال الصراع والقتال محتدما بين لويس الرابع وغريمه هيو العظيم، لاسيما بعد أن انضم أوتو الأول إلى صف لويس الرابع (٢) ، فلابد وأن لويس سعى فى هذه الفترة إلى تجديد عهد الصداقة والمودة مع حكومة قرطبة والاطمئنان إلى استمرار السلام معها ، فأرسل سفارته الثانية التى اختار لها نفس الرجل الذى سفر له فى المرة الأولى، وهو الأسقف المشار إليه آنفا وفى هذه المرة لم ينس الأسقف أن يحمل معه كتاب تاريخ ملوك الفرنجة ، ليقدمه هدية للأمير الحكم ، بناء على طلبه فى المرة السابقة .

هذا هو الجانب الأول فى القضية التى أثارها المسعودى كما رأينا ، أما الجانب الثانى فيتعلق بشخصية الأسقف الذى سفر للملك لويس الرابع إلى قرطبة هاتين السفارتين والمدينة الفرنجية التى كان أسقفا لها . لقد أشرنا من قبل إلى أن المسعودي يورد اسم هذا الأسقف بأكثر من طريقة — كما لاحظ ذلك مؤرخ

---

(1) El - Hajji : op. cit. pp. 121 — 2

(2) Hollister : op. cit. p. 123 — 4

Mahrenholtz ; " France throughout the Middle Ages " B.H. VII, p. 3764

محدث ــ مرة يسميه « عرمار » وأخرى « مرماره» أو«فدمار» طبقا لمختلف نسخ كتب المسعودى (١) . ولا بد وأن الروايات التي استقى منهـا المسعودي هذا الخبر قد اختلفت فى ذكر اسم هذا الأسقف بما يفسر تعــدد كتابة هذا الاسم. على أن المؤرخ رينو يسميه «جودمار » Godmar ، ويقول إنه كان أسقفا لمدينة جيرونا ، Girona فى قطالونيا (٢) ، التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للفرنجة، بينما يشير المسعودى إلى أنه كان أسقفا لمدينة فرنجية يسميها « زهرة » وهي مدينة أخرى غير جيرونا (٣) ، غير أن فريقا من الـكتاب المحدثين (٤) يوافقون رينو على اسم هذا الأسقف «جودمار» أو «غودمار»، ولكنهم يذهبون إلى القول بأنه أصلا من جيرونا أو ينتسب إلى جـيرونا ، ولكنه كان أسقفا لمدينة فرنجية فيما وراء البرانس تسمى «سرت» Ceret فى إقليم روسيللون Roussillon ، وليست زهرة التى ذكرها المسعــودى إلا تحريفا لسرت Ceret (٥) ، ويؤكد بعضهم أن هذه المدينة كانت فعلا فيما وراء البرانس فى أرض الفرنجة ، ما دام المسعودى قد أشار إليهـــا على أنها مدنية فرنجية لأن المسعودى إذا ذكر كلمة «الفرنجة» فإنما يعنى الأرض التى حكمهـا الميروفنجيون والكارولنجيون، خاصة الأرض الواقعة فيما وراء البرتات مباشرة

(1) Lewis ; Al - Mas udi Milleuary Commdmoration: p. 8
El – Hajji : op. cit. p. 121

(2) Reinaud : op. cit, p. 4

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٩٧ . ويذكر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٤ أن مدينة جيرندة (جيرونا) تقع فيما وراء البرانس .

(٤) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٣٦ ،
El - Hajji : op. cit. p. 122

(٥) أرسلان : نفسه ص ٣٦

كما سبق أن ذكرنا (١) ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يكن الملك الفرنجى لويس الرابع يختار لسفارته إلى قرطبة رجلا من البلاد الخاضعة لحكم الفرنجة في قطالونيا ، وإنما من المؤكد أنه اختار رجلا فرنجيا ينتسب إلى دولة الفرنجة ، إن لم يكن أحد رجاله وخاصته(٢). وعلى هذا فالمدينة التى كان جودمار أسقفا لها، لا بد وأنها تقع فيما وراء البرانس، ولابد وأنها مدينة سرت Ceret الفرنجيةالتى حرفت لدي المسعودى إلى «زهرة» ، وان لم يكن ثابتا ما إذا كان اسم Ceret هو نفس المكانالذى سماه المعاصرون «هيكل الزهرة» أم أنه مكان آخر (٣) .

نخلص من ذلك كله بأن السفير الذي أوفده لويسالرابع في سفارتيه إلى قرطبة ، كان اسمه جودمار أو غودمار ، وأنه ينتسب أصلا إلى مدينة جيرونا في الشمال الشرقي لأسبانيا ، ولكنه كان أسقفا لمدينة سرت Ceret الفرنجية ، وهي مدينة تقع فيما وراء البرتاتمنإقليم روسيللون علي الناحية الأخرى، وأنه لابد وأن يكون أحد الرجال الفرنجة الذين يتمتعون بثقة الملكلويس الرابع، ومن أصحاب الحظوة لديه ، بحيث اختاره لهذه المهمة الخطيرة ، لأنه من غير المعقول أن يختار الملك لهذه السفارة رجـــلا من الثغر الفرنجى فى قطالونيا ،

---

(١) انظر ما سبق .

(2) El - Hajji : op. cit. p. 122

(٣) انظر الحميري : الروض المعطار ص ٤٢ (نشر ليفي بروفنسال ١٩٣٧)

عبد الواحد المراكشي : المعجب فى تاريخ المغرب ص ٢٩ (نشر العريان سنة ١٩٦٣)

ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٠ (القاهرة ١٩٠٦) ،

El - Hajji : op: cit. p, 122 (N; 2.)

كما ذهب البعض ، أى من بلاد يخضعها الفرنجة بحد السيف [1] ، لما فى ذلك من تجاوز ، وإنما اختار لهذه المهمة رجلا فرنجيا يتمتع بثقته وتقـــديره للقيـام بالسفارة الهامة إلى حكومة قرطبة ، وأن مدينة سرت التى كان هــذا الرجل أسقفا لها ، جرى تحريفها لدى المسعودى « بالزهرة » ، كما جرى تحريف اسم الرجل نفسه إلى « عرمار » و « مرمار » و« فدمار » ، كما سبق أن أشرنا ، وأن هذا الرجل نجح فى سفارتيه إلى قرطبة ، وكسب ود الأمير الحـكم ولى العهد والخليفة المنتظر لقرطبة ، الذى طلب منه كتابا عن ملوك الفرنجة لقراءته والإطلاع عليه ، فلبى طلبه وحمل معه فى سفارته الثانية هذا الـكتاب ، ولابد وأن هذا الكتاب الذى رآه المسعودى بنفسه كان مختصراً تاريخياً يتناول تاريخ ملوك الفرنجة ، فحسب لأن المسعودى صمت عن ذكر شىء عن بقية محتويات هذا الكتاب [2] .

وليس ثمة شك فى أن بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر ، كان قبلة السفراء والمبعـوثين وسعى إليه ممثلو كثير من الدول والأمم فى ذلك الوقت يلتمسون توثيق عرى الصداقة مع خليفة المسلمين بأسبانيا ، ويخطبون ود قرطبة ، بعد أن بلغت الأندلس أوج قوتها وتفوقها على عهد هذا الخليفة [3] ، وبعـد أن تمتعت على عهد الناصر بمكانة سامية متفوقة بالنسبة لكثير من الدول والأمم .

---

(1) Jackson : op. cit. p. 18

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٩٧ (ط القاهرة) ،

El – Hajji : op. cit. p. 121

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٢

Davis : op. cit p. 178 ; Murphy : op. cit. p. 101

Lane - poole : op. cit. p. 127, pp. 129 - 39

ومن هذه السفارات السفارة التى أرسلها ملك ألمانيا أوتو الكبير إلى قرطبة ، وعلى رأسها السفير جان دى جورز Gorze الذى أخذ كثيرا بعظمة الأندلس وسمو حضارتها على عهد عبد الرحمن الثالث [١] ، وجرت هذه السفارة فى سنة ٩٥٦ م — على الأرجح ، رغم أن مؤرخا محدثا [٢] ذهب إلى القول بأنها جرت فى سنة ٩٥٣ م ، أى قبل ذلك بنحو ثلاث سنوات، كما ذهب إلى القول بأن أوتو الكبير كان قد أرسل سفارة إلى قرطبة سنة ٩٥٠ م ورد عليه الناصر بسفارة على رأسها أحد الأساقفة من المستعربين مصحوبا باثنين من الرفقاء ، وبقى سفير قرطبة هذا لدى أوتو الكبير نحو ثلاث سنوات ثم توفى هناك ، فأرسل أوتو سفارته الثانية إلى قرطبة على رأسها جان (يوحنا) راهب جورز فى سنة ٩٥٣ فى رأى المؤرخ المذكور [٣] ، وكان السبب الرئيسى لسفارة أوتو الكبير الثانية هو موضوع إغارات المجاهدين المسلمين من فراكسنتم، أى محاولة حل هذه المشكلة ووضع حد لهذه الإغارات ، إذ تشير الروايات إلى أن المجاهدين المسلمين فى فراكسنتم كانوا قد روعوا المناطق المجاورة ، بإغاراتهم فى إيطاليا وسويسرا وفرنسا ، وأدركت البابوية أن هذا الخطر لا يمكن أن ينهيه سوى شخصية عظيمة ، فعولت فى ذلك على الإمبراطور الألمانى أوتو الكبير [٤] .

ولقد أدرك الإمبراطور الألمانى بدوره أنه ليس من السهل القضاء على أولئك المجاهدين المسلمين الذين مرنوا على أساليب الحرب الخاطفة وحرب

---

(١) ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى الأندلس ص ٧٦ (ترجمة قرقوط)

(2) El - Hajji : And. Dip. Rel. pp. 211 — 12

(3) El - Hajji : op. cit. pp. 211 — 212

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

العصابات ، وتحصنوا فى الجبال والقمم والممرات ، ولهذا لجأ إلى محاولة حل هذه المشكلة بالدبلوماسية ، وقد فهم أن حكومة قرطبة هي التى تحمى هـؤلاء المجاهدين وتقدم لهم العون والتأييد ، وعلى الرغم من أن الدبلوماسية كان قوامها فى ذلك العصر بعثات تستغرق سنوات فى تبادل الآراء ومناقشتها ، ربما دون أن تصل إلى نتائج محددة (١) ، إلا أن أوتو الكبير أرسل سفارته الثانية إلى قرطبة سنة ٩٥٦ م آملا أن يوفق فى حـل هـذه المشكلة خاصة وأن السفارات كانت متبادلة بينه وبين عاهل قرطبة قبـل ذلك ، بل تشير المصادر المعاصرة إلى أن ثمة صداقات كانت قد نشأت بين مبعوث الخليفة عبـد الرحمن الناصر ـ وهو أحد الأساقفة المستعربين ـ وبين رجال بلاط ألمانيا ، وتبودلت الآراء بين الجانبين فى جو يتسم بالتفهم والمودة (٢) .

ويفهم من ذلك أولا : أن أوتو كان قد أرسل مبكرا سفارة إلى قرطبة ، رد عليها عبد الرحمن بسفارة على رأسها أحد المستعربين ، وزوده برسالة إلى أوتو ، وبقى هذا السفير فـترة لدى أوتو فوافته منيته هنـاك ، فأرسل أوتو سفارته الثانية موضوع حديثنا — كما يفهم ثانيا : أن الهدف الرئيسى لسفارة أوتو الثانية هو محاولة وقف إغارات المجاهدين المسلمين فى أوربا .

غير أن كاتب حولية ديرية معاصر (٤) ، أشار إلى أن عبد الرحمن كان

(3) Daniel : The Arabs and Med Europe, p. 64

(4) Ibid. pp 64 — 5

(5) A. Paz Y Mella (tr.) " La Embajada del Emperador de Alemania Oton I al Califa de Cotdoba Abderrahman III " X, 258 No. 115

E Hole : Andalus, Spain under the Muslims, p. 90 (London 1958)

El - Hajji : op cit, p. 211

هو البادىء بإرسال السفارات إلى ألمانيا ، وليس أوتو الكبير ، كما أشار إلى هدف آخر من أهداف سفارة أوتو إلى قرطبة ، فذكر أن عبد الرحمن كان قد بعث مع سفارته إلى أوتو الأول بهدايا ثمينة تعبيرا عن إعجابه بالعاهل الألمانى ، لكنه بعث برسالة حوت عبارات اعتبر الألمان أنها تمس الدين المسيحى ، وفيها غض من النصرانية (١) . ولهذا كان على أوتو أن يرسل إلى قرطبة رجلا متفقها فى الدين المسيحى لمناقشة القضايا والعبارات التى حوتها رسالة عبد الرحمن الناصر ، ومجادلة علماء الدين المسلمين ومحاولة إقناعهم ، وفى نفس الوقت يحاول إيجاد حل لمشكلة إغارات المجاهدين المسلمين فى أوربا (٢) .

ولقد أثارت هذه الاشارة اللاتينية جدلا بين الدارسين والمؤرخين المحدثين، وأكد مؤرخ محدث (٣) أن أوتو كان هو البادىء بإرسال السفارات إلى قرطبة ، وليس عبد الرحمن بسبب ما أحدثته إغارات المجاهدين المسلمين فى أوربا من خسائر ودمار ، ورغبة أوتو فى حل هذه المشكلة بالطرق الدبلوماسية معولا فى ذلك على حكومة قرطبة . وخلص هذا المؤرخ إلى أن السفارات قد بدأت من أوتو ، ولم تبدأ اطلاقا من عبد الرحمن ، لأن أوتو هو الذى كانت لديه الأسباب القوية لخطب ود قرطبة ، وإرسال السفارات إليها (٤) .

---

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٨ ،

Daniel ; op. cit. p. 65

(2) A. Paz Y Melia (tr.) — op. cit. X. 258, N. 115

(3) El-Hajji ; op. cit. p. 211

(4) Ibid. pp. 211 — 212

ونميل إلى تأييد هذا المؤرخ المحدث فيما ذهب إليه من أن أوتو كان هو البادى بالاتصال بحكومة قرطبة ، رغبة فى حل مشاكله فى أوربا من ناحية ، ولما تبوأه خليفة قرطبة من مكانة سامية ، وما كان فيه من عظمة وهيبـة من ناحية أخرى ، أجبرت الأباطرة والحكام على خطب وده والتقرب إليه ، ليس من الألمان فحسب ، بل أيضا من البيزنطيين والفرنجة والنورمان وغيرهم (١) . ولكننا نصدق أيضا ما جاء فى إشارة الكاتب اللاتينى من أنه كان من أهداف السفارة إلى قرطبة إجراء حوار دينى وجدل مع علماء المسلمين وخليفتهم ردا على ما حوته رسالة عبد الرحمن من عبارات فجرت ذلك الجدل الدينى ، لأن الأحداث تؤكد صحة ذلك وتؤيد هذا الشق من إشارة الـكاتب الديرى المعـاصر .

فقد اختار أوتو الأول لسفارته إلى قرطبة عالما لاهوتيا متضلعا فى فقه الدين المسيحى والجدل الدينى للرد على المسلمين وهو راهب دير جورز Gorze بقرب مدينة متز يدعى جان John (حنا) ، وبلغ من تضلعه فى علم اللاهوت أن حاول إقناع الخليفة بالتنصر (٢) ، ويصف أحد تلاميذ الراهب المذكور رحلتـه إلى قرطبة وصفا طريفا فقال : إن جان سافر بصحبته راهب آخر ومعهما هـدايا من رجال الدير ، فسارا مشيا على الأقدام إلى نقطة على نهر الرون تسمى فيين Vienne ، ومنها ركبا النهر إلى البحر المتوسط ، ثم ركبا إلى برشلونة التـابعة لمملكة الفرنجة ، ثم إلى طرطوشة أول ميناء تابع لقرطبة ، ثم تقدما فى الأندلس

---

(1) Lane – poole : op. cit. pp. 129 — 39
Jackson : op. cit, p. 30

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٨
Daniel : op. cit. p. 65

« وهم فى ضيافة العرب بالمعهود من كرمهم » (١) ، فوصلا إلى قرطبة لم يتكلفا إنفاق درهم واحد ، وهناك استقبل جان وصاحبه استقبالا طيبا ولقيا ترحيبا عظيما ، وأنزل الجميع فى محل على مسافة ميلين من قصر الخلافة .

وحينما أحيط الخليفة علما بمهمة الراهب جان، أظهر رغبة فى تجنب المباحثات الدينية إلا أن الراهب جان ركب رأسه ، وأصر على إنجاز مهمته ومجادلة الخليفة دينيا (٢) ، ومحاولة إقناعه ، وعند ذلك أخبره الخليفة أنه كان قد بعث من لدنه سفارة إلى أوتو فأنظره ثلاث سنوات ، ولهذا فهو يريد أن يمسك سفير أوتو لديه ، لا ثلاث سنوات بل تسع سنوات ، لأنه يرى نفسه أكبر من أوتو بثلاث مرات (٣) ، غير أن الراهب جان رفض ذلك وتعلل بأن الأوامر التى صدرت إليه تحتم عليه إنجاز مهمته والعودة فى أسرع وقت ؛ ولذلك استقر رأى الخليفة عبد الرحمن على إرسال سفارة أخرى إلى ألمانيا على رأسها رجل مسيحى يدعى « ارسيموندس » Recomund ، كان يجيد اللغة اللاتينية وكذلك اللغة العربية ، فى مهمة عاجلة يقترح فيها على أوتو ترك المجادلات الدينية والتحدث فى المهمة الأساسية للسفارة (٤) .

ومعنى ذلك أن ثمة سفارة فرعية أو مبعوثا على مستوى عال قد جرى إرساله على عجل إلى ألمانيا بمهمة محددة هو الحصول من أوتو على أوامر لسفيره فى قرطبة (جان) بترك الجدل الدينى والتحدث فى المهمة الأساسية

---

(١) أنظر نص العبارات فى : أرسلان : نفسه ص ٢٣١
وانظر المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها .

(2) Daniel : op. cit. pp. 66 — 7

(٣) أرسلان نفسه ص ٢٢٨ — ٢٣١

(4) Daniel : op. cit. pp. 66 — 8

للسفارة لإنهاء المفاوضات الجارية في قرطبة . إذ يبدو أن إصرار الراهب جان على الالتزام بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه من أوتو بمجادلة المسلمين ومحاولة إقناعهم بآرائه ، ورغبة الخليفة عبد الرحمن فى تجنب الجدل الدينى للتحدث فى مهمة السفارة قد عجل بإرسال المبعوث الخاص إلى ألمانيا للحصول على موافقة أوتو على ذلك لاستئناف المفاوضات فى المهمة الأساسية للسفارة فى قرطبة .

خرج مبعوث قرطبة رسيموندس فى طريقه إلى ألمانيا ، بعد أن التقى بجان راهب جورز الذى زوده بخطابات لمقدم دير جورز لتسهيل مهمته، وبعد أن قابل أيضا الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى زوده بدوره بتعليمات فى سفارته أو بعثته إلى العاهل الألمانى فى فرانكفورت (١) ، فسافر رسيموندس عبر فرنسا قاصدا ألمانيا ، فوصل أولا إلى دير جورز قرب متز ، بعد نحو شهرين ونصف ، وقضى فصل الخريف والشتاء فى ضيافة الدير، ريثما تجرى إعدادات مقابلته مع الإمبراطور الألمانى ، ثم سار بعد ذلك إلى فرانكفورت ، حيث قدم الإمبراطور أوتو ، فاستقبله هذا بحفاوة وتكريم ، فأطلع رسيموندس الإمبراطور على أحوال سفارته الألمانية فى قرطبة ، وأثنى كثيرا على الراهب جان (يوحنا) (٢) ، وطلب رسيموندس من الإمبراطور كتابة رسالة إلى سفيره جان فى قرطبة يوافق فيها على ترك الجدل الدينى والتحدث فى مهمة السفارة ، فوافق الإمبراطور على كتابة رسالة إلى الخليفة بدلا من رسالته الأولى أجابه فيها إلى ما اقترحه من ترك المجادلات الدينية والتحدث فى مهمة

---

(1) El - Hajji : op. cit. p. 219

(2) Daniel : op cit. p. 67
El - Hajji : op. cit. pp. 220

السفارة [١] ، كما كتب رسالة أخرى إلى الراهب جان يوصيه فيها بأن يبذل قصاري جهده لعقد معاهدة سلام وصداقة مع الخليفة ، يكون من شأنها إيقاف هجمات وإغارات المغامرين الأندلسيين فى فراكسنتم ، وأن يسارع بالعودة إلى ألمانيا بعد ذلك [٢] .

وعندئذ ترك رسيموندس فرانكفورت قاصدا قرطبة ، فوصلها بعد نحو أربعة عشر شهرا من غيابه عنها ، وسارع رسيموندس فور عودته بلقاء جان الراهب جورز وأطلعه على التعليمات الجديدة من الإمبراطور ، ودفع إليه خطاب أوتو بذلك ، ثم قابل بعد ذلك الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأطلعه على ما جرى فى لقائه مع الإمبراطور ، ومن ثم وافق الخليفة على لقاء الراهب جان [٣] . وتمدنا المصادر المعاصرة بأخبار تلقى الضوء على كثير من الشئون الدينية فى ذلك العصر ، ومدى اهتمام مبعوث الألمان بتقديم مثل طيب فى الزهد والورع والظهور بصورة طيبة كنموذج خاص لرهبان العصور الوسطى ، فبمجرد أن وافق الخليفة على لقاء جان ، أشار رفاق هذا الراهب عليه بأن يتزين للقاء الخليفة ، فيحلق شعره ويلبس ملابس تليق بهذا اللقاء ، بينما أرسل الخليفة من جانبه إلى جان مبلغا من المال ، ليشترى ما يحتاج إليه للتجمل لهذا اللقاء [٤] ، إلا أن جان رفض كل ذلك ، وأبى إلا أن يظهر فى صورة الراهب الزاهد المتقشف ، فبادر بالتصدق بالمال — الذى بعث به الخليفة —

---

(1) Daniel : op. cit. pp. 66 — 68

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٢

(3) El - Hajji : op cit. p. 221

(4) Daniel : op. cit, p. 68

علي الفقراء ، وأصر على لقــاء الخليفة في ثوبه الصــوفى الخشن ومظهره المعتاد دون تجمل ، وعندئذ لم يجد الخليفة بدا من الموافقة على لقــائه في ذلك الثوب وبمظهره الخشن (١) .

استقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر أخــيرا وبعــد نحو ثلاث سنوات من التأخير ، رسل الإمبراطور الألمانى على رأسهم الراهب جان،فكان يوما مشهودا على حد تعبير المؤرخين(٢)، فقد اصطف الجند على جانبي الطريق حاملين مختلف الأسلحة ، بينما كان الخيالة يعرضون فنونهم أثناء تقدم السفراء نحو مكان لقاء الخليفة ، ولما اقتربوا من المكان ساروا فوق بسط تغطى كل المكان حتى باب القصر ، ثم اجتازوا القصر إلى الجانب الشرقى منه ، وفى الصــالة المعدة للقاء السفراء المسماة « المجلس المؤنس » (٣) ، كان الخليفة يجلس متربعا على السرير ، فاقترب منه الراهب جان فأعطاه الخليفة بطن يده فقبلهــا ، تمييزا له عن سائر الناس (٤) .

ثم جرى الحديث حول مهمة السفارة ، وهي تتعلق — على حد قول مؤرخ محدث — بالدويلة الأندلسية الصغيرة فى فراكسنتم(٥)، ومن المحتمل أن يكون الراهب جان قد حاول إقناع الخليفة ، بأهمية تدخل الخليفة لوقف نشــاط

---

(1) Reinaud : Mus. Col. p. 155

(2) Lévi - Provençal ; L'Espagne Musulmane au Xe siecle, p. 49 n. 1

El – Hajji : op. cit. p. 221

(٣) عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣

(4) Daniel : op. cit. p. 69

(5) El - Hajji : op. cit. p. 224

أولئك المغامرين ، ملوحا بقوة الإمبراطور الألمانى ، وعظم قدراته العسكرية بالنسبة لأي حاكم على وجه الأرض ، وعلى الرغم مما بدا فى ذلك القول من من تجاوز ، فإن الخليفة لم يغضب بل راح يناقش المبعوث الألمانى فى بعض النظريات السياسية والإدارية (١) ، منتقدا إلى حد ما وبرفق سياسةالإمبراطور الألمانى . وعلى الرغم من توقف كاتب سيرة جان عند هذا الحد من سرده وعدم ذكره أى شيء عما أسفرت عنه المباحثات بين جان والخليفة الناصر ، إلا أنه يبدو أن الخليفة اعتذر عن عدم إمكان ممارسة أى ضغط على أولئك المجاهدين المسلمين فى فراكسنتم ، وعن عدم إمكان حكومة قرطبة إجابة الإمبراطور إلى طلبه في هذا الشأن ، ولكنه فى نفس الوقت وعد يبذل كل ما يستطيع فى هذا الصدد (٢) ، ثم عادت السفارة إلى ألمانيا بعد ذلك بقليل بعد أن بقيت فى أسبانيا نحو ثلاث سنوات .

ويتفق المؤرخون على أن قرطبة قد بلغت فى ذلك العصر شأوا بعيدا من من المهابة والعظمة والمجد ، فقد كانت محط رحال العلماء والطلاب ومركز العلوم والمعارف والصنائع والسياسة ، وكانت أوربا المسيحية مأخوذة بعظمة قرطبة ، لاسيما على عهد عبد الرحمن الناصر ، فكانت مقصدا لجميع سفراء الملوك والأباطرة وكافة السلطات (٣) ، فكان يراسله البابا وإمبراطور

---

(1) Reinaud : op. cit. p. 156. , El - Hajji : op. cit. p 225

(2) Daniel : op. cit, pp. 69 — 70

Poupardin : Le Royaume de Bauargogne 888 — 1038, p, 96

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٣ ،

Davis : op. cit. p 178

Murphy : op. cit. p 101

Lane - poole : op, cit. p. 127, pp. 129 — 39

القسطنطينية وملوك أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد الصقالبة ، واعتبر الملوك المسيحيون من دواعي الشرف العظيم أن يبسط الخليفة يده لسفرائهم ليقبلونها وذلك لجلالة قدره وعظم منزلته ، وكان عبد الرحمن عندما يفد عليه سفراء هؤلاء الملوك يبالغ فى الاحتفال بهم وإظهار عظمة الخلافة أمامهم (١) .

ويصور لنا أحد المؤرخين القدامى ، وصفا لإحدى السفارات الفرنجية التى وفدت على بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وما جرى فى استقبالها ودخولها على الخليفة (٢) ، على الرغم من أنه لم يعين لنا من أى البلاد قدمت ، أهى من دولة الفرنجة ذاتها أو من الثغر الفرنجى فى قطالونيا ، كما أنه لم يعين لنا تاريخا لهذه السفارة ، ومتى جرى استقبالها فى بلاط الخليفة الناصر ، ومع ذلك فلنا أن نقرأ هذا الوصف ونعلق عليه ، يقول الكاتب :

« ودخل على هذا الخليفة (عبد الرحمن الناصر) يوما أرسال الإفرنج ، وقد ظهر من عظيم ما يرغبهم ، بسط لهم الحصر من باب قرطبة إلى باب الزهراء قدر فرسخ ، وجعل الرجال عن يمين الطريق ويساره ، بأيديهم السيوف الطوال العراض مجردة — يجمع بين سيف الأيمن وسيف الأيسر حتى صارت كعقد الحنايا ، وأمر بالأرسال أن يمشوا بين تلك وفى ظلالها كأنها ساباط (٣) ، فدخلهم الرعب ما لا يعلمه إلا الله تعالى . فلما

---

(١) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٢٨

(٢) ابن عربى : المسامرات والمحاضرات ج ٢ ص ٣٤٢ ،

El - Hajji : Dip. Rel. p. 122

(٣) أنظر نص العبارات فى المسامرات والمحاضرات ج ٢ ص ٣٤٢ ،

El - Hajji : And. Dip. Rel. p. 136

وصلوا إلى باب الزهراء فرش لهم الديباج من باب المدينة إلى مقعده على تلك الحالة من الترهيب ، وأقام في مواضع مخصوصة حجابا كأنهم الملوك قعوداً على كراسى مزخرفة ، عليهم الديباج والحرير فما أبصروا حاجبا إلا سجدوا له يتخيلون أنه الخليفة ، فيقال لهم أرفعوا رءوسكم هذا عبد من عبيده، إلى أن وصلوا إلى ساحة مفروشة بالرمل والخليفة في وسطها قاعد عليه ثياب خلق قصار يساوى كل ما عليه أربعة دراهم ، وهو قاعد على الأرض مطرق ، وبين يديه مصحف وسيف ونار ، فقيل للرسل هذا السلطان نسجدوا له ، فرفع رأسه إليهم قبل أن يتكلموا وقال لهم إن الله أمرنا يا هؤلاء أن ندعوكم إلى هذا وأشار إلى المصحف كتاب الله ، فإن أبيتم فبهذا وأشار إلى السيف ، ومصيركم إذا قتلناكم إلى هذا وأشار إلى النار فملئوا منه رعبا وأمر بخراجهم ، ولم يبدوا كلاما ، فصالحوه على ما أراد . هكذا يعز دين الله وإلا فلا » (١).

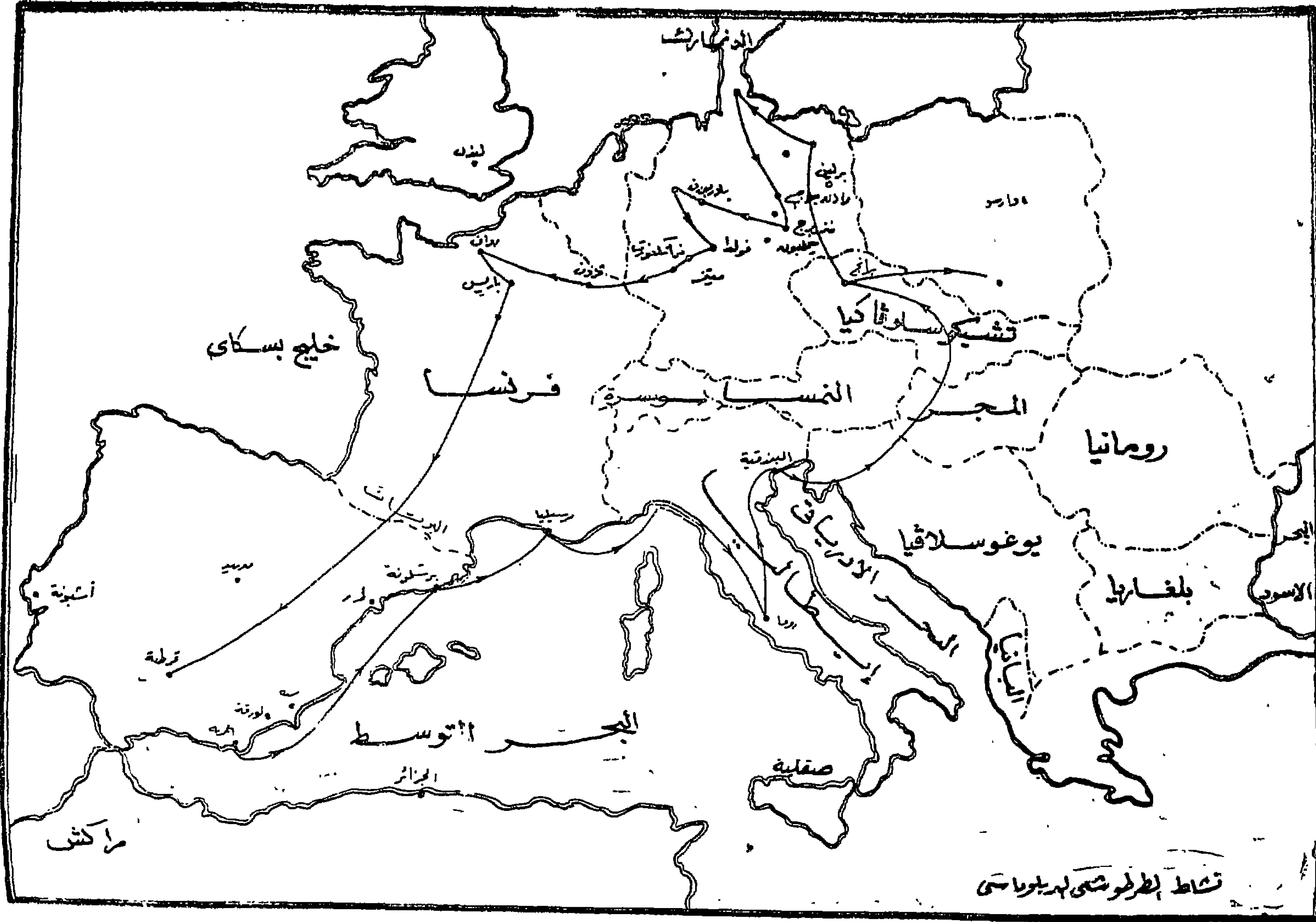
وكما سبق أن ذكرنا ليس من الواضح في هذا النص ، ما إذا كان السفراء هؤلاء لدولة الفرنجة ذاتها أم للثغر الفرنجى في قطالونيا . ويذهب ليفي برفنسال(٢) إلى أن هؤلاء السفراء كانوا من الثغر الفرنجى فيقطالونيا،

---

(١) نفسه ج ٢ ص ٣٤٢ ، وانظر أيضا :

El - Hajji ; And: Dip. Rel. p. 137

(2) Lévi - Provençal : L'Espagne Mus. anx Xe siécle, institutions et vie Sociale. p: 489. n. 2. (paris 1972)



نشاط الطرطوشي الديبلوماسي

وأيده في ذلك المؤرخ هول Hole (١) الذى أكد أنهم كانوا من الثغر الفرنجى فى شمال شرق أسبانيا . كما ليس واضحا في هذا النص متى وصلت هذه السفارة ؟ ومن الذى أرسلها ؟ وإن كان هول يذهب إلى أنها وصلت إلى بلاط قرطبة قبل وفاة الناصر بنحو عامين (٢) ، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نجد أية سفارة يمكن أن تتطابق أو تتوافق طريقة استقبالها مع هذا الوصف فى الكتب المعاصرة (٣) .

ومع ذلك فليس ثمة ما يدعو إلى الشك في حقيقة هذا الموضوع ، أو حقيقة السفارة ذاتها ووصولها إلى قرطبة فى عهد الناصر ، لأن بلاط هذا الخليفة كان مقصدا لكثير من السفراء سواء من دولة الفرنجة ذاتها أو من الثغر الفرنجى أو القوطى فى شمال شرق أسبانيا — كما فصلنا (٤) ، هذا فضلا عن أن سفارات الفرنجة أنفسهم تعددت وتلاحقت ، فمرة جاءت من قبل لويس الرابع ، وأخرى من قبل منافسه هيو الكبير (٥) وربما من الإمبراطور أوتو نفسه من ألمانيا ، ولهذا فنحن لا نشك في حقيقة السفارة ووصولها إلى بلاط الناصر ، وإنما المشكوك فيه فعلا هي طريقة تقديم هذه السفارة إلى الخليفة ، وطريقة استقبال الخليفة لها ، وما جرى عند لقائه بهم ، والشروط التى وضعها مسبقا قبل أن يتحدث السفراء ، فهذه كلها أمور مستبعدة من الخليفة الناصر

(1) Hole : Andalus, Spain under the Muslims, p. 90

(2) Ibid. p. 90

(3) El - Hajji : Dip. Rel. between And. and the Franks, p. 123

(4) Murphy : op. cit. p. 101

Lane - poole : op. cit. p. 127

المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٣

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٣

واحتمال وقوعها ضئيل جدا (١) ، وخاصة وأن الناصر اشتهر فى الخافقين بأنه كان دبلوماسيا من الطراز الأول ، ومفاوضا متمرسا وسياسيا قديرا ، كان يستقبل السفراء من كافة أنحاء الدنيا ، ويحتفى بهم ويجرى استقبال السفراء طبقا لمراسم خاصة تدل على علو كعب فى الدبلوماسية (٢) ، فلا يعقل أن يتصرف بهذه الطريقة التى قد تحمل على القول بتعصبه الدينى وإجباره الآخرين على اعتناق الإسلام ، فضلا عن أن يحدث ذلك مع سفراء دولة أخرى .

ويشير مؤرخ محدث إلى أن مثل هذا السلوك يعد سلوكا ساذجا ، ولا ينم عن تمدين بل إنه يخالف التقاليد التى اتبعها حكام الأندلس فى استقبال السفراء وتكريمهم ، وليس من المحتمل أن يحدث ذلك خلال حكم الخليفة الناصر بصفة خاصة ، حيث كانت التقاليد والاحتفالات الدبلوماسية ، وطريقة استقبال السفراء معروفة تماما ، ولا يعقل أن تصل تلك التقاليد إلى هذا المستوى (٣) . ويؤكد هذا الرأى قول المؤرخ هول : « لقد أصبح « بروتوكول » الاستقبال للسفراء أكثر إتقانا وإحكاما » على عهد الناصر فى أسبانيا ، ويتمشى هذا مع رأى المؤرخ المحدث رينو ، الذى يذهب إلى أن بلاط أسبانيا أصبحت تحكمه تقاليد و « بروتوكولات » لا يمكن أن تصل هذا إلى المستوى (٤) . ويوافقهم مؤرخ محدث آخر هو جاكسون Jackson على رأيهم ، ويضيف أن عبدالرحمن الناصر قد أضاف إلى عظمة قرطبة الشىء الكثير ، بتطوير وإنماء « البروتوكول »

---

(1) El - Hajji : op. cit, p. 123

(2) Lane - poole ; op, cit. p. 143

(3) El - Hajji : op. cit. p. 123

(4) Hole : op. cit p. 90

Reinaud : Mus. Col. in Fran e, p. 152

فى القصر ، الأمر الذى استرعى انتباه وإعجاب الحكام والسفراء الأجانب الذين مثلوا بين يدى الخليفة (١) . كما أن التفصيلات والوصف الذى حواه النص السابق ، يتناقض مع المعلومات التى قدمها المؤرخون المعاصرون لمثل هذه الاحتفالات لاستقبال البعثات الدبلوماسية وسفراء الدول ، فقد كانت الاستقبالات تتم فى دهليز أو صالة السفراء المسماة « المجلس المؤنس » فى قصر الخليفة فى الزهراء (٢) .

وهكذا يرفض المؤرخون وصف المؤرخ المشار إليه ، ولا يقبلونه ، ويجدونه منافضا لما كان معروفا عن بلاط الناصر من ناحية وما كان يجرى فى الاحتفالات الدبلوماسية فى الأندلس الأموية من ناحية أخرى (٣) ، وإن كانوا لا يشكون فى وصول هذه السفارة أو البعثة التى ربما كانت بعثة تخصصية ، لا علاقة لها بالسياسة أو الدبلوماسية ، وحتى فى هذه الحالة فالوصف الذى قدم لا يمكن قبوله برمته . إذ كيف يجرى ترتيب مثل تلك العمليات المؤثرة المخيفة كالطريق الطويل من قرطبة إلى الزهراء الذى غطى بالحصر لمسافة تزيد عن ثلاثة أميال ، وكيف يرص الجنود على جانبيه ، والسيوف المتشابكة إلى غير ذلك من الأمور التى لا نستطيع أن نقبلها وإن كان إضفاء المهابة والاحترام على بلاط الخليفة أمر جائز وثابت ، لكن ليس بهذا الشكل الدرامى المؤثر المرعب ، وكذلك جلوس الخليفة على تلك الهيئة التى ألفاه عليها السفراء ، كلها أمور بعيدة الاحتمال ، وغير مقبولة على الإطلاق (٤) .

(1) Jackson : op. cit. pp 42 — 3

(٢) عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ج ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ ،

Lane - poole : op. cit. p. 143

(3) El - Hajji : op cit. p 123

(4) Ibid. p. 123

فلقد كانت العلاقات مع الفرنجة بالذات تتعدى العلاقات الدبلوماسية وتتجاوزها إلى غير ذلك من مجالات الحياة ، لاسيما العلاقات الثقافية والعلمية ، بل إن ذلك لم يكن قاصرا على الفرنجة وحدهم ، بل مع غيرهم من الشعوب من كافة الانحاء (١) ، وذلك بعد أن وصلت الأندلس إلى قمة مجدها وقوتها ، وتقدمها العلمي والفكرى ، فقد أصبحت قبلة يتجه إليها طلاب العلم من كل مكان ، ويقصدها الباحثون عن العلم والعرفان (٢) ، وتحدثنا النصوص أن جربرت راهب أوفرن Gerbert the Monk of Auvergne ، وهو الذى أصبح بابا فيما بعد باسم سليفستر الثانى Sylvesrer II (٩٩٩ — ١٠٠٣ م = ٣٩٠ — ٣٩٤ هـ) ، قد قدم إلى أسبانيا لدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ، وأنه كان ناجحاً فى تحصيله واستيعابه لها حتى أنه حين عاد إلى قومه مزودا بقدر عظيم من العلم والمعرفة وخاصة فى مجال العلوم ، اعتبره مواطنوه ساحرا مشعوذا (٣) . وكان العلماء المسلمون فى إسبانيا قد أظهروا تفوقا على علماء اليونان والرومان القدامى وبزوهم فى مجالات علمية كثيرة ، وطوروا ما وصل إليهم من العلوم اليونانية والرومانية ، لا سيما فى مجال الطب والهندسة والعلوم والحساب والكيمياء وغيرها (٤) . ويذكر أنه كان بقرطبة فى القرن العاشر

---

(1) Rodenson : The western image and western studies of Islam —in " The Legacy of Islam " Ed. by Joseph Schacht with Bosworth, pp. 15 — 17. (Oxford. 1974)

(2) Bradford ; Mediterranean Portrait of a Sea, p. 314
Lane - poole : op. cit. p 144

(3) Reinaud : op. cit. p. 224

(4) Lyon, Rowen. Hamerow : op. cit. p. 242
Jackson : op. cit. p. 43

نحو سبعين مكتبة علمية تغص بالكتب النادرة والهامة فى كل فروع العلم المختلفة (١) .

ولم يكن البابا سليفستر الثانى وحده هو الذى تلقى تعليمه فى أسبانيا الإسلامية على يد علماء من المسلمين ، وإنما يذكر أيضا أن بعض الرهبان الآخرين الذين صاروا بابوات فيما بعد ، قد درسوا فى جامعة مونبلييه Montpellier فى جنوب فرنسا على أيدى أساتذة من العرب (٢) . ولم يكن الأمر قاصرا على جنسيات بعينها، بل تذهب بعض ملاحم الفروسية أن شارلمان نفسه كان قد أرسل فى طفولته إلى أسبانيا ليتعلم ويحصل العلم على يد العلماء المسلمين هناك(٣). ولقد أبدى مؤرخو القرن التاسع عشر أمثال رينو ودوزى وجولدسيهر وكذلك دارسو أسبانيا الإسلامية المعاصرون إعجابهم وتقديرهم بالمستوى العلمى والسياسى الرفيع الذى بلغته الأندلس الإسلامية فى ذلك العصر والقدرات العلمية والسياسية العالية التى تمتعت بها حكومة ومجتمع قرطبة حينئذ(٤)، الأمر الذى يضع هذا القطر الإسلامى فى مقدمة أقطار الدنيا علميا وثقافيا وسياسيا أيضا .

نخلص من ذلك كله أن بلدا بهذا القدر من التقدم والازدهار ، حتى قبل عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، لا يمكن أن يتصرف حاكمها بالطريقة التى قدمها ذلك النص ، عند استقبال سفراء دولة أخرى ، ولا يمكن أن يظهر

---

(1) Davis : op cit p. 178

(2) Camb. Med. Hist. V. III, p. 532 ,

شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٦

(3) Reinaud : op. cit. p. 238

(4) Jackson : op. cit. p. 80

خليفتهـا بتلك الصورة أمام ممثلي ملك أجنبي . وأن بلدا كان في ذلك الوقت قبلة الطلاب والعلماء على كافة جنسياتهم وأممهم (١) ، لا يمكن أن يكون خليفته بهذا القدر من السذاجة والسطحية ، وعلى ذلك القدر من التعصب وضيـــق الأفق ، لأن بلاط قرطبة كان حتما أنموذجا مصغرا لدولة قوية طبقت شهرتهـا الآفاق ، ومرآة لما كانت تعيشة البلاد من تقدم مادى وفكرى وما كان يموج فيها من تيارات ثقافية وفكرية (٢) ، ولا بد وأن احتفالات استقبال السفراء والمبعوثين جرت فى جو آخر طبقا لتقاليد أمة راسخـة فى التقدم والازدهار كما جرى لقاء الخليفة بالسفراء بطريقة تعكس التمدين والتحضر الذى كانت تحياه البلاد (٣) . ولهذا فالوصف الذى قدمه المؤرخ سالف الذكر عار عن الحقيقة تماما وفيه مبالغة ظاهرة ، وجرى كتابته بطريقة ساذجـة ، ليحـوز إعجـاب السذج ، وليضفى على النـاصر صفـات التعصب الأعمى ، والتقشف والزهد، الذي لا يمكن أن يتمشى مع ما كان معروفا عن خلافة قرطبة وخلفائها الأمويين من رفعة ورقي ومجد وسؤدد — خاصة خليفتهـــا ذائع الصيت عبد الرحمن الناصر .

ويكاد يجمع المؤرخون القدامى منهم والمحدثون (٤) ، على أن عبـد الرحمن

(1) Rodenson : op. cit. pp. 15 — 17
(2) Lane - poole : op. cit. p 144 , Bradford : op, cit p. 314
(3) Ibid. p. 143

(٤) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٨
ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٣ ، ص ٢٣٢
المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢١
ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٤ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٨
L. vi. Provencal : Hist. de L'Espagne Mus. II, pp. 130 — 40

الناصر قد أضاف إلى عظمة قرطبة الشيء الكثير ، بعد أن أقام الخلافة فى الأندلس على أسس راسخة فى الرقى والمجد ، وتبوأ مكانته السامية بين عظماء الدنيا فى ذلك الوقت ، وقام بتطوير وإنماء « بروتوكول » القصر فى قرطبة الذى خلب أفئدة الحكام والسفراء الأجانب بعظمة ومهابة . ويشير أحد الكتاب إلى أن السفراء الذين كان يسمح لهم بالمثول بين يدى الخليفة ، كانوا لفرط التعظيم يقبلون الأرض بين يديه ، فإذا تعطف عليهم وبسط يده لهم ، سارعوا بتقبيلها فى إكبار وتعظيم (١) .

وإذا كان حكام الإمبراطورية الفرنجية فى الشرق ، وفى الغرب قد حرصوا على إقامة علاقات المودة والصداقة مع حكومة قرطبة على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فإن البابوية أيضا أظهرت اهتماما بذلك على عهد البابا مارينوس الثانى ٩٤٢ — ٩٤٦ م (٣٣١ — ٣٣٥ هـ) ، والبابا أجابتيوس الثانى ٩٤٦ — ٩٥٥ م (٣٣٥ — ٣٤٤ هـ) (٢) ، فقد اتصلت الرسل والسفارات بين حكومة روما البابوية ، وحكومة قرطبة ، ووصل إلى روما سفارة من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر ، كانت فى أغلب الظن فى سنة ٩٥٤ م (٣٤٣ هـ) ، تطلب بعض الأعمدة ومخلفات المعابد الرومانية ليزين بها الخليفة مدينة الزهراء ، التى كان معنيا كثيرا ببنائها وتزيينها ، فأجيب عبد الرحمن إلى طلبه ، بعد أن وفدت سفارة من روما بهذا الخصوص على الأرجح (٣) ، ووجدت البابوية فى

---

(1) Jackson : op. cit p. 42

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٢ ؛
Reinaud : Mus. Col. in France. p. 151

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١١ ؛
El-Hajji : And. Dip. Rel. p. 287

ذلك فرصة نادرة للتقرب إلى عاهل المسلمين وكسب وده وصداقته ، لما حازه الناصر من شهرة فى الخافقين ، ولهذا لا يمكن أن نقبل تشويه صورة هذا العاهل الكبير أو التقليل من مهارته السياسية والدبلوماسية مهما كان المصدر لذلك .

وعلى عهد الحكم بن الناصر ، لابد وأن السلام كان مستمرا مع دولة الفرنجة وأن الأمور كانت تسير معها بطريقة عادية ، لا أثر فيها لمعارك أو قتال أو عداء . حقيقة لا نجد فى المصادر المعاصرة ما يؤكد وصول سفارات من قبل الفرنجة فى فرنسا ذاتها إلى بلاط قرطبة على عهد هذا الأمير ، غير أنه من الثابت أن الحكم استقبل سفارات متعددة من حكام غاليسيا وقشتالة ونافار وبرشلونة وطرقونة ، وأنه كان يميل إلى استخدام الدبلوماسية والمفاوضات السلمية بدلا من استخدام القوة (١) . ويذكر المؤرخ ابن حيان أن ثمة سفارة أو اثنتين قد قدمتا إلى قصر الحكم من الإمبراطور أوتو « ملك الإفرنج » فى ألمانيا فى سنة ٣٦٠ هـ ، ٣٦٣ هـ أى سنة ٩٧١ م ، ٩٧٤ م (٢) ، وما دام الأمر كذلك فمعناه أن الصداقه كانت قائمة بين الحكم وعاهل ألمانيا ، وهى التى اهتم بتنميتها وحرص عليها سفراء ألمانيا من قبل ، فلابد وأن الحكم فضل استمرار السلام مع حكام الممالك الغربية فى أوربا ، ولم يحاول أن يعكر الصفو معهم فجرت الأمور على خير ما يرام ، وهكذا ساد السلام بين الجانبين . ويؤكد المؤرخون أن الحكم الثانى كان رجلا سياسيا ودبلوماسيا قديرا لا يقل في

---

(1) Bernhard and whishaw : op. cit. p. 155

(2) El – Hajji : Dip : Rel. between And. and the Franks, p, 124

ذلك عن والده (١) ، فقد حرص والده على إشراكه فى شئون الحكم لإكسابه المهارة فى الشئون السياسية والإدارية والدبلوماسية ، ولما تولى الخلافة أضاف إلى رسوم البلاط والقصر و « البرتوكول » الكثير ، وأظهر اهتماما باستقبال الحكام والسفراء ، وأعطى الكثير فى هذا الجانب وفى العلاقات الدولية فى ذلك الوقت (٢) .

وقبل أن نعرض للسفارتين اللتين تحدث عنهما ابن حيان إلى بلاط قرطبة ينبغى أن نشير إلى النشاط الدبلوماسى الذى قام به رجل شهير يدعى إبراهيم ابن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ، ومساهمته فى استمرار الصلات الدبلوماسية بين حكومة قرطبة وبين أوربا الغربية خاصة ألمانيا ، ولو أن سفارتى الطرطوشى هذا إلى العاهل الأوربى فى ألمانيا جاءتا فى رأى مؤرخ محدث سفارات غير رسمية (٣) ، أما الطرطوشى فاسمه ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلى الطرطوشى ، وكان رحالة أندلسيا ينتسب إلى طرطوشة ومن رجال القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، وكان يهوديا أو مسلما من أصل يهودى ، ورحل خلال كثير من الأقطار الأوربية ، خاصة بلاد السلاف (الصقالبة) ، وإبان رحلته قابل البابا يوحنا الثانى عشر فى روما سنة ٩٦١ (٣٥٠ هـ) ، وإمبراطور ألمانيا أوتو الكبير فى مدينة ماذن برج ، وشاهد خلال سفارته الأخيرة هذه رسل البلغار إلى الإمبراطور الألمانى ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٩٦٧ م (٣٥٦ هـ) ، حيث بدأ فى كتابة رحلته فى العام التالى ، وربما قدم كتابه المتضمن أخبار هذة الرحلة إلى خليفة قرطبة الحكم الثانى (٤) .

---

(1) Bernhard and whishaw : op. cit. p. 155

(2) Jackson: op. cit pp. 42 — 43

(3) El - Hajjii : And. Dip. Rel. p. 228

(4) Ibid, p. 271

ونستهل الحديث عن نشاط الطرطوشي الدبلوماسي بالقول أن نصوص كل من البكري والقزويني وغيرهم من المؤرخين الذين أشاروا إلى سفارات الطرطوشي ونشاطه الدبلوماسي ، تشير إلى أن هذا الرجل قام بسفارتين إلى الإمبراطور أوتو الكبير جرت إحداها على الأرجح في سنة ٩٦٥م(٣٥٤هـ) ، وجرت الثانية في سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) (١) .

غير أن فريقا من المؤرخين يميلون لى القول بأن السفارة الأولى للطرطوشي قد جرت في سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ)—اعتمادا على نص للمؤرخ العذري (٢) — قابل الطرطوشي خلالها الإمبراطور أوتو الأول في روما وليس في ألمانيا — أي أن لقاء الطرطوشي بالإمبراطور أوتو لم يجر في ألمانيا إبان سفارة الطرطوشي الأولى وإنما جرى في روما . ويؤيد ذلك أن الإمبراطور أوتو وصل فعلا إلى روما في ذلك الوقت حيث جرى تتويجه على يد البابا يوحنا الثاني عشر في كنيسة بطرس في ٢ فبراير سنة ٩٦٢ م (٣) .

ولكن مؤرخا محدثا عالج هذه القضية ودرس مختلف الآراء والاتجاهات . واستخلص منها أن سفارة الطرطوشي التي أشار إليها العذري كانت إلى روما للقاء البابا ولم تكن للقاء العاهل الألماني وأنها جرت فعلا في سنة ٩٦١ م .

---

(1) Ibid pp. 241 — 43

(٢) العذري : (نصوص عن الأندلس) ص ٧ — ٨
عبد العزيز الأهواني — مدريد ١٩٦٥

(3) Gregorovius : Hist, of the city of Rome in the Middle Ages. III, pp. 332 — 3
Mann : The Lives of the Popes in the early Mid. Ages. IV, p. 248
Tout : The Empire and the papacy 918 — 1273, p, 31

(٣٥٠ هـ) حيث قابل الطرطوشي خلالها البابا يوحنا الثانى عشر (٩٥٥ — ٩٦٤ = ٣٤٤ هـ — ٣٥٣ هـ) الذى حمله رسالة إلى الخليفة الحكم الثانى وبعث بتمنياته الطينة لحكومة قرطبة (١) ، وأيد هـذا المؤرخ رأيه بأنه لو كان الطرطوشى يريد لقاء العاهل الألمانى فى هذه السفارة ، إذن لذهب للقائه فى ألمانيا وليس فى روما ، والأرجح أن هذه السفارة كانت قاصدة روما لمقابلة البابا ، أى أنها سفارة قائمة بذاتها قصدت البابا ولم تكن تقصـد الإمبراطور الألمـانى ، واذا كان العـذري قد أشار إلى أن العـاهل الذى التقى به الطرطوشى له سمة الملوك والحكام فإن البابا كان قد اتخذ فى تلك الآونة سمة الحكام العلمانيين وأصبح أشبه بالملوك فعلا فى رسومه ونظمه وحياته الخاصة والعامة (٢) . إذ يشير العذرى : « وقد رأيت من قدم خبرهـا أن ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ، أخبر أن ملك الروم بروميه سنة خمسين وثلاث مئة من الهجرة ، قال إنى أريد أن أرسل إلى أمـير المؤمنين بالأندلس قومسا حاذقا بهدية ... » (٣) .

وطبقا لهذا الرأى فإن إحدى سفارتى الطرطوشى اللتين أشـار إليهما المؤرخون المعاصرون — وهى السفارة الأولى — قد جرت فى سنة ٩٦١ م وليس سنة ٩٦٥ م وكانت إلى روما وليس إلى ألمانيا ، أما السفارة الثانية،

(1) El - Hajji : op cit pp. 251 — 2

(2) Duchesne : The Beginning of the Temporol Sovereignty of the Popes, p. 216 — 225 (Eng. tr. Mathew)

Gregorovius : op. cit. III, p. 321 — 28

Bryce : The Holy Roman Empire, p. 131

(٣) العذرى : نفسه ص ٧ — ٨ (عبد العزيز الأهوانى)

فقد التقى فيها الطرطوشي بالإمبراطور أوتو الأول فى ألمانيا لأن نص البكرى يتضمن اسم « هوته » أو أوتو ، الأمر الذى يرجح أن اللقاء قد تم فى ماذن برج Madhin Burg (Magde burg) (١) ، التى كانت المقر المفضل لأوتو الأول وأن السفارة كانت فى سنة ٩٦٥ م (٣٥٤ هـ) ، وليس فى سنة ٩٧٣ م كما ذهب المؤرخون . وأيد المؤرخ سالف الذكر رأيه هذا ، بأن هذه السفارة الثانية كانت حتما سابقة لعودة الطرطوشى إلى قرطبة (٩٦٧ م) وهي السنة التى بدأ فيها كتابة رحلته، وأنه لو حدثت هذه السفارة فى سنة ٩٧٣ م ـ السنة التى توفى فيها أوتو الأول ـ أذن لحرص الطرطوشى على تدوين أخبر وفاة الإمبراطور أوتو الأول ، الذى جاز إلى ربه فى نفس العام (٢) .

ويفهم من ذلك أن الطرطوشى قام بسفارتين ، اتجه فى الأولى منهما إلى روما حيث التقى فيها بالبابا يوحنا الثانى عشر سنة ٩٦١ م ، واتجه فى الثانية إلى ألمانيا حيث التقى بالعاهل الألمانى أوتو الأول فى ماذن برج على الأرجح سنة ٩٦٥ م

غير أننا نجد كل من البكرى والقزوينى يشير إلى سفارتين للطرطوشى مع أوتو الأول وليس إلى سفارة واحدة مع هذا العاهل الألمانى ، كانت إحداها فى سنة ٩٦٥ م والثانية فى سنة ٩٧٣ (٣) ، ولهذا فإننا نعتقد أنه ليس ثمة ما يمنع أن يكون الطرطوشى قد التقى بالإمبراطور الألمانى فى سفارتين وليس سفارة واحدة ، فضلا عن سفارته الأخرى التى التقى فيها بالبابا يوحنا الثانى

---

(1) El - Hajji : op. cit. p 257

Dvornik: The Slavs in European Hist p. 28

(2) El - Hajji : oq cit p 271

(3) Dvornik : The Making of Central and Easem Euro e p. 83

عشر فى روما . وعلى الرغم من وجاهه رأى المؤرخ سالف الذكر بأن سفارات الطرطوشى كانت حتما سابقة لعودته إلى قرطبة سنة ٩٦٧ م وهي السنة التى بدأ فيها كتابة رحلته ، إلا أننا لا نجد ما يمنع من أن يكون الطرطوشى قد قام بسفارة ثانية إلى ألمانيا حسب رواية المؤرخين المعاصرين فى سنة ٩٧٣ م أى قبيل وفاة أوتو الكبير ، لأنه فى هذه السفارة الأخيرة رأى رسل البلغار الذين استقبلهم أوتو « فأما ملك البلقاريين (البلغار) فلم أدخل بلده ، ولكنى رأيت رسله بمدينة ماذن برج ، حين وفدوا على هوته (أوتو) الملك ... » .

أما القول بأنه لو حدثت سفارة للطوطوشى فى تلك السنة (٩٧٣م) لحرص الطرطوشى على تدوين أخبار وفاة الإمبراطور أوتو الكبير ، الذى جاز إلى ربه فى نفس العام ، فليس ذلك بقرينة ضد حدوث السفارة فى ذلك العام ، إذ يحتمل أن الطرطوشى لم يسمع بوفاة الإمبراطور إلا بعد عودته ، وكتابة أخبار هذه السفارة الأخيرة . وعلى هذا يمكن القول أن ثمة سفارتين قام بها الطرطوشى لألمانيا ، التقى فيها بالإمبراطور إحداهما جرت سنة ٩٦٥ م والثانية جرت سنة ٩٧٣ م ، فضلا عن سفارة أخرى التقى فيها بالبابا فى روما سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، مع احتمال وجود الإمبراطور الألمانى فى روما فى ذلك الوقت أيضا (١) .

وأدت هذه السفارات والنشاط الدبلوماسى للطرطوشى إلى استمرار العلاقات الودية والصلات الحضارية بين دولتى الأمويين فى أسبانيا على عهد الحكم الثانى والإمبراطورية الألمانية التى انبثقت — قبل ذلك — عن إمبراطورية .

(1) Gregorovius : op. cit. III, p. 334
Mann : op. cit: IV, p 248
Tout : op. cit p. 31

الفرنجة الكبيرة التى أرسى دعائمها عاهل الفرنجة الكبير شارلمان (١) ، وغطت شهرتها فى القرن العاشر وما تلاه على شهرة الدولة الفرنجية فى قسمها الغربى التى قنعت فى هذه المرحلة بدور ثانوى فى الأحداث ولم تمكنها ظروفها الداخلية وأحوالها العامة حينئذ من أن تلعب دوراً كبيراً في السياسة الدولية والعلاقات الدبلوماسية مع أسبانيا الإسلامية ، وواضح أن الصلات السياسية والدبلوماسية بين الدولتين فى ألمانيا وفى أسبانيا نشطت فى تلك المرحلة وجرى حوار دبلوماسى بينهما وتبودلت السفارات والرسل بين الجانبين (٢) .

أما فيما يختص بالسفارتين اللتين أشار إليهما ابن حيان، واللتين قدمتا إلى بلاط الحكم الثانى المستنصر بالله : فقد جاءتا من قبل الإمبراطور الألمانى أوتو — كما رجح البعض — جاءت الأولى فى ذى القعدة سنة ٣٦٠ هـ (سبتمبر سنة ٩٧١) : « ودخل بدخوله أيضا أشراكه بن عمر داود القومس رسول هوتو ملك الإفرنج بكتابه أيضا يجدد صلته » . ووصلت الثانية إلى قرطبة فى ذى القعدة سنة ٣٦٣ هـ (يوليو سنة ٩٧٤) «وتوصل إثره أشراكه رسول هوتو ملك الإفرنج ، فأوصل كتابه أيضا مجدداً لعهده ومؤكداً لعقده » . ولقد أثارت هذه النصوص مشكلة هامة واعتقد فريق من الباحثين (٣) ، أنهما يخصان سفارة واحـــدة هي السفارة الأخيرة التى حـدثت سنة ٩٧٤ م (٣٦٣ هـ) ، اعتمادا على أن المبعوث واحد فى النصين ، بمـا يعنيه ذلك من أنها سفارة واحدة ، فضلا عما جاء فى النصين من أنهما وصلتا فى شهر ذى القعدة

---

(1) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 67

(2) Reinaud : Mus. Col. in France., p. 110

(3) Lévi – Provençal : op. cit. I. pp. 153 — 4

عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٤٨

مما يؤكد أنها سفارة واحدة ، وأنه ربما اختلط على الناسخ أمرها فكررها على ذلك النحو ، وذهبوا إلى القول أيضا بأنها جاءت من قبل الإمبراطور الألماني أوتو الثاني الذي اعتلى العرش خلفا لوالده سنة ٩٧٣ م ، والذي حرص بعد اعتلائه العرش على تجديد صلات الود مع حكومة قرطبة استمرارا لصلات المودة بين أوتو الأول والخليفة عبد الرحمن الناصر (١) .

غير أن مؤرخا آخر عارض هذا الإتجاه بعد مناقشة القضية من جوانبها المختلفة وأكد أن كل إشارة من إشارات ابن حيان تعني سفارة بذاتها وأن ورود اسم واحد للسفيرين في كلا النصين ليس قرينة على أنها سفارة واحدة، بل يؤكد أنهما سفارتين كل منهما قائمة بذاتها : إذ جرى إرسال نفس سفير المرة الأولى في السفارة الثانية لما اكتسبه من خبرة بهذا الأمر ، ولسابق معرفته بحدود مهمته ولهذا جرى اختياره للقيام بالسفارة الثانية (٢) .

والواقع أنهما سفارتين قائمتين بذاتهما ، وليستا سفارة واحدة ، إذا سلمنا بأنهما جاءتا من قبل الإمبراطور الألماني ، ونضيف أنه إذا كان رأي الفريق الأول من المؤرخين المحدثين بأنها سفارة واحدة جاءت من قبل الإمبراطور الألماني الجديد (أوتو الثاني ٩٧٤ م) لتجديد الصلات واستمرار علاقات الصداقة مع حكومة قرطبة ، التي كانت سارية على عهد أوتو الأول ، فإن ذلك أدعى لحدوث السفارة الأولى سنة ٩٧١ م من قبل الإمبراطور أوتو الأول لتهنئة الخليفة الجديد في قرطبة الحكم الثاني بعد اعتلائه عرش الخلافة

---

(1) Lévi - Pr vençal : op. cit. II, p. 153 — 4

عنان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٤٨

(2) El - Hajji : And Dip. Rel p. 276

واستمرارا لعهد المودة وحسن العلاقات مع حكومة قرطبة ، التى كانت سارية على عهد والده عبد الرحمن الثالث .

وبعبارة أخرى ، إذا كان الإمبراطور الألمانى الجديد أوتو الثانى قد حرص على إرسال سفارة إلى قرطبة ، بعد اعتلائه العرش ليجـــدد صلات المـودة والعلاقات الطيبة فلابد وأن والده أوتو الأول قد فعل نفس الشيء عند اعتلاء الحكم الثانى عرش الخلافة سنة ٩٧١ م لتجديد هذه المودة ، واستمرار الصداقة مع حكومة قرطبة فى عهد خليفتها الجديد . أى أنها سفارتين قائمتين بذاتهما ، وليستا سفارة واحدة ، هذا إذا سلمنا أنهما قد قدمتا من قبل العاهل الألمانى .

لأنه على الرغم من أن المؤرخ سالف الذكر قد ذهب إلى القـول بأنهما سفارتين قائمتين بذاتهما ، وليستا سفارة واحدة ، إلا أنه تشكك فى كونهما مرسلتين من قبل الإمبراطور الألمانى ، وذهب إلى القول بأنها ربما أرسلتا من قبل العاهل الفرنجى فيما وراء البرنية ، أى قدمتـــا من فرنسا ، وخاصة وأن المؤرخين المسلمين المعاصرين ، لم يفرقوا كثيرا بين أوتو أو هوتو أو هيو ، وهذا الأخير أحد حكام فرنسا فى هذه الحقبة (١) ، ولهذا رجح هـذا المؤرخ أن « ملك الإفرنج » يعنى دون مواربة ملك الجانب الغربى من دولة الفرنجة فيما وراء البرنية (البرتات) ، وليس العاهل الألمانى أوتو ، وخاصة وأن هناك نصوصا لدى كل من المقرى وابن حيـان تشير إلى أن ملك الإفرنج يعنى فى رأيهما عاهل فرنسا فيما وراء البرنية (٢). ولقد دعم هذا المؤرخ رأيه بأن هناك

---

(1) Reinaud : op. cit. p. 45, 143
Camb. Med. Hist. V. 3, p. 75 n
El - Hajji : op. cit. p: 277

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

إشارة فى نص ابن حيان توحى بأن مرسل السفارتين عاهل واحـــد ، فإذا اعتقدنا أنهما من قبل عاهل ألمانيا ، فلابد وأن أحدهما هو أوتو الأول والآخر هو أوتو الثانى ، وهذا يتنافى مع كونهما أرسلتا من قبل عاهل واحـد ، وأضاف بأننا لو سايرنا هذا الافتراض — من أن إحدى السفارتين قدمت من قبل أوتو الأول سنة ٩٧١ م — فإنه فى هذا التاريخ لم يكن أوتو الأول فى ألمانيا ، وإنما كان متغيباً عنها مشغولا بنشاطه العسكرى خارج ألمانيا[١] . فلم يكن فى هذه الظروف بحاجة إلى إرسال سفارة إلى قرطبة ، ولم يكن لديه الوقت للتفكير فى هذه السفارة للحصول على صداقـة حكومة قرطبة . أما أوتو الثانى الذى قيل أنه أرسل السفارة الثانية سنة ٩٧٤ م ، فقد كان فى تلك الظروف مشغولا بإخضاع بعض الثورات التى اندلعت ضده فى أنحاء مختلفة من بلاده [٢] ، فلم يكن هو الآخر معنياً بالبحث فى تلك الظروف عن صداقة قرطبة واستمرار علاقات المودة مع خليفتها .

وعلى هذا يمكن القول بأن نص ابن حيان ، كان يعنى سفارتين قدمتا إلى بلاط قرطبة ليستا من قبل الألمان ، وإنما من قبـل الفرنجة فيما وراء البرنية أى من فرنسا ، فإذا سلمنـــا بذلك فلابد وأن مرسل هاتين السفارتين هو «هيو كابيه» الذى خلف والده هيو العظيم فى الحكم سنة ٩٥٦ (٣٤٥هـ) [٣] ، وكان ذلك بمثابة فصل الختام فى عمر المملكة الكارولنجية ، إذ بعد وفاة لويس الخامس سنة ٩٨٧ م (٣٧٧ هـ) ، انفرد هيو كابيه بالعرش مقيما حقبة جديدة فى تاريخ فرنسا ، ومنهيا العهد الكارولنجى فى تلك البلاد .

---

(1) Enc. Brit " Htto 1 " XVI. 965
(2) Enc. Brit: " Otto 11 " XVI. 966
(3) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 80
El - Hajji : op. cit. p 279

ويؤيد الرأى القائل بأن السفارتين قدمتا من الفرنجة أنهمـا جاءتا من قبل عاهل واحد طبقا لنص ابن حيان ، فلابد وأنهما قد حدثتا فى عهد هذا العاهل الفرنجى ، ولابد وأن هيو كابيه كان معنيا بتجديد صلات المودة مع الخليفة الحكم الثانى التى كانت قائمة قبل ذلك على عهد كل من الخليفة عبـد الرحمن الناصر (١) وهيو العظيم والد هيو كابيه (٢) . ويؤكد ذلك أيضا أن اسم السفير الفرنجى « أشراكه بن عمر داود القومس » يشير إلى أنه إما أحد العرب أو أحد المستعربين من الإقليم الفرنجى وراء البرنيه ، حيث سكن هذه النواحى كثير من المسلمين المستعربين ، وأثروا كثيرا فى سكان هذا الإقليم . وهذا الاحتمال يعد أكثر قبولا من أن يكون هذا السفير قد جاء من ألمانيا ، فقد سكن كثير من المسلمين جنوب فرنسا وأثروا فى سكانها فبدأ سكان هذه الجهات يتكلمون العربية ويقبلون على الثقافة العربية (٣) .

ولابد وأن هيو كابيه كان يبحث عن صداقة قرطبة فى تلك الظروف التى صاحبت قيام دولته الجديدة فى تاريخ فرنسا ، خلفا للأسرة الكارولنجية ، وربما كان هيو كابيه فى حاجة ماسة إلى هدوء على الحدود مع أسبانيا المسلمة من ناحية ، ومنعا لقيام أية ثورات قرب الحدود بتأييد من حكومة قرطبة من ناحية أخرى ، ربما تسبب تعكير صفو الحكم الجديد، ومنعا لقيام أية أحلاف بين قرطبة وأعداء المملكة الجديدة مع ما كانت تمثله قرطبة من وزن سياسى وعسكرى فى ذلك الوقت (٤) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣١ ، ص ٣٤٣

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢١٠

(3) Reinaud : Mus Col. in France, p. 217 p 228

(4) El - Hajji : op. cit. pp, 280 — 1

وعلى هذا فمرسل هاتين السفرتين هو هيو كابيه ملك فرنسا الجـــديد ، الذى كان فعلا بحاجة إلى قيام سلام مع حكومة قرطبة فى ظروف كان أحوج فيها إلى الهدوء لإرساء دعائم حكمه الجديد ، وأسس أسرته الجديدة التى ورثت الأسرة الكارولنجية فى حكم فرنسا . ومعنى ذلك أن الصلات الدبلوماسية كانت لا تزال قائمة بين دولة الفرنجة وعاهل قرطبة الحكم الثانى ، وتبودلت السفارات تأكيدا لروابط الصداقة وحسن الجوار ، وجرت السفارات بين الدولتين حتى أواخر القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) .

المصادر والمراجع

أولا – باللغة العربية :

ابن الأبار (ابن الأبار القضاعى) :

— الحلة السيراء (القسم المطبوع بعناية دوزى)
(وكذلك تحقيق مؤنس – القاهرة ١٩٦٣)

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الجزرى) :

— الكامل فى التاريخ (طبع بيروت — ١٩٦٥م — ١٣٨٥هـ)

ابن حزم الأندلسى :

— جمهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السلام هارون — القاهرة ١٩٦٢)

ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان) :

— المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس

(الجزء الثانى تحقيق د. محمود مكى — بيروت ١٩٣٧)

(الجزء الثالث المنشور بعناية ملشور أنتونيا — باريس ١٩٣٧)

(جزء مختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر — تحقيق الحجي — بيروت ١٩٦٥)

ابن حوقل :

— المسالك والممالك (المكتبة الجغرافية)

ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن سعيد ت ٧٧٦ هـ)

— الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٠٤ ، ١٩٥٦)

ابن الخطيب :

— أعمال الأعلام (نشر ليفي بروفنسال — بيروت ١٩٥٦).

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

— المقـــدمة (تحقيق د . علي عبـد الواحد وافي — القاهرة ١٩٦٥)

— العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق — ١٢٨٤ هـ)

ابن الزبير (القاضي الرشيد بن الزبير) :

— الذخائر والتحف (تحقيق د. محمد حميدالله ـ الكويت ١٩٥٩).

ابن سعيد المغربي :

— المغرب في حلي المغرب (تحقيق د. شوقي ضيف — القاهرة ١٩٥٣).

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف) :

— الاستيعاب في معرفة الأصحاب (تحقيق علي محمد البجـاوي — القاهرة ١٩٦١)

ابن عبد ربه الأندلسي :

— العقد الفريد (طبع القاهرة ١٩٢٨ — وطبعة لجنـة التأليف والترجمة)

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد المراكشي) :
— البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب
(كولان — وليفى بروفنسال)
ابن الفرضى (عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى) :
— تاريخ علماء الأندلس (القاهرة — ١٩٦٦)
ابن القوطية (أبو بكر محمد بن القوطية) :
— تاريخ افتتاح الأندلس (مدريد — ١٨٦٨)
أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (نشر أميلو لافونتى أى الـــكنترا —
مدريد — ١٨٦٧)
الإدريسي (الشريف الإدريسى) :
— مختصر نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (طبع روما ١٥٩٢)
— وصف الأندلس للاديسى (طبع بعناية المستشرق سافدرا)
الاصطخرى (أبو القاسم ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى) :
— المسالك والممالك (تحقيق د. محمد جابر الحينى — القاهرة
١٩٦١)
البكرى(عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو أبو عبيد البكرى):
— جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك
(تحقيق الحجى — بيروت ١٩٦٨)
— المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك
(المنشور بعناية المستشرق دى سلان)
الحميدى (أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدى) :
— جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس (القاهرة — ١٩٦٦)

الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) :

— صفة جزيرة الأندلس — منتخبة من كتاب الروض المعطـــار (المنشور بعنــاية ليفى بروفنسال — القاهرة — ١٩٣٧) .

السلاوى :

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (القاهرة — ١٣٠٦ هـ)

الضبي (أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبي) :

— بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس (القاهرة — ١٩٦٧)

العذرى (أحمد بن عمر بن أنس العذري) :

— نصوص من الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار — منشور بعناية الدكتور / عبـــد العزيز الأهوانى — مدريد — ١٩٦٥

القزوينى (زكريا القزوينى ت ٦٨٢ هـ)

— آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت — ١٩٥٦)

الكندي :

— تاريخ الولاة والقضاة

مجهول المؤلف :

— الاستبصار فى عجائب الأمصار (تحقيق د. سعد زغـــلول عبد الحميد — الاسكندرية — ١٩٥٨)

المراكشى (عبد الواحد بن على):

— المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (القاهرة — ١٣٣٢هـ)

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين المسعودى) :

— مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الأول بولاق)
(الجزء الثالث دي مينارد — ١٨٦١)

المقرى (التلمسانى) :

— نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (تحقيق محمد محى الدين
عبد الجميد بيروت — ١٩٤٩)

المقريزي (أحمد بن علي) :

— اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا (القاهرة—١٩٤٨)

ياقوت الحموى

— معجم البلدان (القاهرة — ١٩٠٦)
(بيروت — ١٩٦٧)

أرشيبالد لويس :

— القوي البحرية والتجارية (ترجمة أحمد عيسى ومراجعة غربال
— القاهرة — ١٩٦٠)

أسد رستم :

— الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب
(بيروت ١٩٥٥ — ١٩٥٦ م)

بروكلمان :

— تاريخ الشعوب الإسلامية (ترجمه إلى العربية نبيه فارس والبعلبكى
— بيروت ١٩٤٨ — ١٩٤٩)

بلنبثية :

— تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمةد. حسين مؤنس ـ القاهرة١٩٥٧)

دوزى :

— تاريخ مسلمى أسبانيا (ترجمة د. حسن حبشى — الجزء الأول — القاهرة ١٩٦٣)

ديفز :

— شارلمان (ترجمة د. الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٥٩).

حاطوم :

— تاريخ العصر الوسيط فى أوربا (لبنان ١٩٦٧ م — ١٣٨٦ هـ).

الحجى (د. عبد الرحمن على) :

— الحضارة الإسلامية فى الأندلس (بيروت ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م).

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) .

— أوربا العصور الوسطى (جزءان ـ الطبعة السادسة ـ القاهرة ١٩٧٥)

— المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية (القاهرة ١٩٦٣)

— فضل العرب فى الحضارة الأوربية (القاهرة ١٩٥٧)

— الحركة الصليبية (جزءان — القاهرة ١٩٦٣)

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

— تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس (بيروت ١٩٦٢).

— تاريخ مدينة المرية الإسلامية (بيروت ١٩٦٩)

— قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس (بيروت ١٩٧١ جزءان)

السيد عبد العزيز سالم و د. أحمد مختار العبادى:

— تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس (بيروت ١٩٦٩)

شكيب أرسلان :

— تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط. (بيروت ١٩٦٦)

— الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية (بيروت).
العبادي (دكتور أحمد مختار) :
— في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية مؤسسة الثقافة الجامعية)
— دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية ١٩٦٨)
العدوى (دكتور / ابراهيم أحمد) :
— المسلمون والجرمان (القاهرة ١٩٦٠)
— المجتمع الأوربى فى العصور الوسطي (القاهرة ١٩٦١).
فازيلييف :
— العرب والروم (ترجمة شعيرة — القاهرة)
ليفى بروفنسال :
— حضارة العرب فى الأندلس (ترجمة دوقان قرقوط)
— الإسلام فى المغرب والأندلس (ترجمة سالم — القاهرة ١٩٥٦).
لوبون (جوستاف) :
حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر — القاهرة ١٩٦٤).
لين بول :
— العرب فى أسبانيا (ترجمه من الانجليزية على الجارم — القاهرة ١٩٦٠).
محمد الشيخ (دكتور محمد محمد الشيخ) :
— الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتي سقوط الرها (الاسكندرية ١٩٧٠)
— الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطي (الاسكندرية ١٩٧٥).

— سياسة الإمبراطــــور البيزنطى ثيوفيل تجاه الخـــــلافه العباسية (بحث فى مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية — الرياض ١٩٧٩ م — ١٣٩٩ هـ)

— شارلمان باعث النهضة الأوربية (مقالة — الاسكندرية ١٩٧٥)

محمد عبد الله عنان :

— دولة الإسلام في الأندلس (جزءان — القاهرة ١٩٦٩)

— تراجم إسلامية (شرقية وغربية — القاهرة ١٩٧٠)

موس :

— ميلاد العصور الوسطى (ترجمة جاويد — مراجعة العرينى) القاهرة ١٩٦٧

مؤنس (دكتور حسين) :

— المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية (مجلة الجمعية التاريخيه — القاهرة ١٩٥١)

— فجر الأندلس ٧١١ — ٧٥٦ (القاهرة ١٩٥٩)

ثانيا ـ باللغات الأجنبية :

Alcuin, Epist. in : A Hist. of Medieval Europe. by Davis

The Annals of Fulda — M. G. H. Scriptorum in — A Hist. of Medieval Europe, by Davis

Annales Regni Francorum (Ed. Kurze)

The Battle of the Dyle 891, trans. from the Chronicle of Regino of Prûm, Ed. Kurze 1890 — in : A Hist. of Med. Europe, by Davis

La Chanson de Roland; The French Texte Texte., together with a fine translation by René Hague, is printed in " The Song of Roland " (Lonon 1937)

Dümmler, Epistolae Karolini Aevi (M. G. H.)

Einhard : " Life of Charlemagne " in the Medieval word, by Cantor (New york 1968)

Epistolae Gerberti Ed. J. Havet 1889, Chronicon Novaliciense (trans. Davis in - C. M. H.)

Gesta Abbatum Fontenellensium (Ed Loewenfeld 1886)

Gregory of Tours : Hist. of the Franks (trans. by Dalton 2 Vols. Oxford 1927)

Lives of the Roman Pontiffs in - Lodovico Antonio Muratori, Rerum Italicorum Scriptores Mediolani 1723 - in Document of the German History, by Snyder (New York 1975)

M. G. H. Epist. Cap, Reg. Franc.

Monumenta Germaniae Historica, Scriptores, Ed. by Georg H. Pertz and others - Hanover and Berlin 1826 - 1925 - in :

Documents of German Hist. by Snyder. (N. Y. 1975)
See :

A : « The Annales Bertiniani »

B : « The Annales of Laureshein »

G : « The Treaty of Mersen 870 »

Nouvelle édition Revue et Augmenfée avec Trenta - Deux Planches Hore Texte. (Paris - Leiden)

A Passage trans. from Boretius Capitularia Regum Froncorum (M G. H. 1883)

Widukind's Rerum Gestorum Saxonicarum, Libri Tres (Ed. Waitz 1882)

Viking (trans. by Keery) in - Haskins, The Normans in European Hist. (N. Y. 1959)

Aimond, ch :

Le Moyen Ages (Paris 1947)

Altamiro, R :

A History of Spain from the beginning to the present Date. (trans. by Muna lee - London 1952)

Anwar G. Chejne :

Muslim Spain, tis Hist. and culture (Minneapolis 1973)

Barrie Dobson :

German Hist. 911 — 1618 - in Germany, A companion to German studies; Ed. by Malcolm Pasley (London 1972)

The Book of History : Hist of all nations from the Earliest times to the Present. Vol. V, VII; VIII; many specialists:

— Heyck, Eduard : « The rise of the Germanic races and the comming of the Barbarians »

— Helmolt, Hans, F : « Italy throughout the middle Agas »

— Màhrenhol z, R. : « The Empire of Charlemagne » « France throughout the middle Ages »

— Schjoth, Hans : « Great days of the Northmen »

Bernhard and whishaw :

Arabic Spain (London 1912)

Bradford :

Mediterranean Portrait of a Sea (London 1971)

Brook :

A Hist. of Europe 911 — 1198 (London 1928)

Bryce :

The Holy Roman Empire (1904)

Bury. J. B, :

— A Hist. of Eastern Roman Empire (London 1912).

— A Hist. of the Later Roman Empire 2 vols. (London 1923)

Cambridge Medieval History 8 Vols. (Cambaidge 1924)

Cantor, N. F. :

— Medieval History (New york 1964 sec. pr.)

— The Medieval world 300 — 1300 (Ed. by Cantor New york 1968)

Daniel :

The Arabs and Medieval Europe (London 1975)

Davis, R. H. C. :

A Hist. of Medieval Europe (Loadon 1970)

Deanesly :

A Hist. of Early Medieval Europe (London 1956)

Dozy :

— Histoire des Musulmans d'Espagne (Leiden 1932 — London 1913)

وقد جرى ترجمة هذا الكتاب إلى الانجليزية بعنوان :

Spanish Islam, by stokes - London 1913

— Recherches sur l'histoire et la Littérature de L'Espagne pendants le Moyen Age (Leiden 1860)

Duchesne :

The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes (Eng. trans. Mathew - London 1908)

Dvornik :

The Making of central and Eastern Europe (London 1949)

El - Hajji, Abd. El - Rahman :

— Andalusian Diplomatic Relations with western Europe during the Umayyad Period. (Beirut 1970)

— « Diplomatic relations between Andalusia and the Franks during the Umayyad period » in The Islamic Quarterly, V. XIII, Nor. 2 — April - June 1969

Encyclopaedia Britannica (Ed 1952)

Encyclopaedia of Islam. (Eng. Vols)

Fliche :

L'Europe Occidentale de 888 à 1125 (Paris 1930)

Freeman, E. A. :

Hist. of Norman Conquset (London 1847)

Ganshof :

— Feudalism

— « Notes sur les Ports de Provence du VIIIe au Xe siécles » Revue Hist. V. 183 (1938)

Gayangos :

The Hist. of the Mohammedan Dynasties in Spain (London 1816)

Gregorovius :

Hist. of the city of Rome in the middle Ages (Eng. trans. Hamilton — London 1895)

Grosset :

Histoire des croisades (Paris 1936)

Haskins, Ch. H. :

The Normans in European Hist. (New york 1959)

Hole :

Andalus, Spain urder the Muslims (London 1958)

Hollister :

Medieval Europe (New york 1974)

Hoyt and Chodorow :

Europe in the Middle Ages (U. S. A. 1976)

Imamuddin :

A Political history of Muslim Spain (Dacca 1961)

Jackson :

The Making of Medieval Spain (California 1976)

Keen, S :

A History of Medieval Europe (London 1967)

La Monte :

The World of the middle Ages (1949)

Lane - poole :

The Moors in Spain (London 1897, Beirut 1967)

Lewis, B. :

— Naval Power and trade in The Mediterranean (Princetion 1954)

— The Arabs in history (London 1966)

Lévi - Provençal :

— Histoire de L'Espagne Musulmane III, Tome (Paris 1950)

— L'Espagne Musulmane au Xe siècle institution et vie Sociale (Paris 1932)

Livermore, Harold :

History of Spain (London 1966)

Lodge, Sir; R. :

The Close of the middl Ages 1273 — 1494 (London 1961)

Lot, F :

The End of the Ancient world and the Beginning of the middle Ages (London 1966)

Luchaire ;

Le quatre prèmiers Captiens in Lavisse : Hist. de France (Paris 1901)

Lyon and Rowen and Hamerow :

A History of the western world. (Chicago 1969)

Mann :

The lives of the Popes in the Early middle Ages.
(London 1906 — 10)

Murphy, J. C. :

History of the Mohometan Empire in Spain.
(London 1816)

Oman, Sir Charles :

The Dark Ages 476 – 918 (London 1962)

Ostrogorski :

History of the Byzantine State. (Oxford 1956)

Painter :

A Hist. of the middle Ages (New York 1954)

Pascual de Gayangos :

The History of the Mohammedan Dynastiesiu Spain.
(London 1843)

Pirenne H, :

— Mohamed and Charlemagne (London 1968)

Previté :

The Shorter Cambridge Medieval History,
(Cambridge 1953)

Prou, M, :

La Gaule Merovingienne (Paris 1964)

Rambaud :

Histoire de L'Empire Grec, au dixième siécle.
(Paris 1870)

Read, Jan, :

The Moors in Spain and Portugal (London 1974)

Reinsaud :

Muslim Colonies in France, Northrern Italy and Swizerland. Eng. tr. Sherwani - Lahore 1964)

Roderson :

The Western image and western studies of Islam in —

« The Legacy of Islam » Ed, by Joseph Schacht with Bosworth, (Oxford 1974)

Tout :

The Empire and the Papacy 918 — 1273 (London 1924, 1903)

Vasiliev :

The Bayzantine Empir, (Madison 1952)

كشاف

(ث)

(ج)

(غ)

الفهرس

فهرس الخرائط

مطبعة شريف وشركاه ٥٩ شارع الجامعة — محرم بك